

رعماء على فراش المرض

سرار لم تشر من قبل


تأليف

الدكتور / باسم عادل عبد الصادق

المركز الإسلامي

والدراسات والبحوث الإسلامية

Biblioteca Alexandria



0161455

زعماء على فراش المرض

أسرار لم تنشر من قبل

دكتور

باسم عادل عبد الصادق

هذا الكتاب



اسم الكتاب: زعماء على فراش المرض
المؤلف: د. باسم عادل عبدالصاوق
طبيب متخصص في أمراض القلب والأوعية الدموية والعناية المركزة
المراجعة والتقديم: أ. د. عادل إمام
الطبعة الأولى: ٢٠٠١ م
الناشر: المركز المصري للدراسات والبحوث الإعلامية
١٦ شارع الفتح - منيل الروضة - القاهرة - ت ٥٣١١٣١٣

إدارة النشر

مستشار عام النشر: المنجي سرحان
الإشراف والإشراف الفني: طه عبدالجواد
المراجعة والتصحيح: أحمد محمد عبدالرحيم
الأخضر: راج الفني: عزت اسماعيل
الإشراف الطباعي: عماد إبراهيم
عبدالوهاب حسين

رقم الأيصال: ٢٠٠٠ / ١٨٤٠٦
الترقيم الدولي: X - 15 - 5963 - 977

الإهداء

إليك يا أمي
يا كل من يتبقى من شجرتي
يا سيدة النوات العظيمة على شواطئ روحى
دموعك قطرات ندى تصادق دموعى
ودعواتك كرقرة الماء نحيب ذبولى
أكتفيت بقلبك عن كل نساء ذكرياتى
ولو لم يتبقى سوى عمرى أهديته لك
واعتبرت ذلك أعظم إنجازات حياتى

باسم عادل عبدالصالح

المقدمة

كاتب المقدمة هو الأستاذ الدكتور عادل إمام الذى يعتبر بحق واحداً من رواد علم القلب فى مصر والعالم، وهو يعمل أستاذاً ورئيساً لأقسام قسطرة القلب بالمعهد القومى للقلب بالقاهرة، حيث يرأس فريق عمل مكون من أكثر من ستين طبيبياً، ويطبق الدكتور عادل إمام أحدث التقنيات الطبية مستعيناً بخبرته الدولية، وقد تخرج من كلية الطب جامعة عين شمس عام ١٩٦٣، ثم عمل كمحاضر بالجامعة ثم التحق بالجيش عام ١٩٦٥ وحتى عام ١٩٧٠، وخلال تلك الفترة حصل على درجة الماجستير فى الطب الداخلى وطب القلب، ثم عمل بعد ذلك كطبيب بمعهد القلب، وحصل على درجة الدكتوراة فى علم القلب، وفى عام ١٩٧٥ سافر إلى فرنسا لدراسة علم الأوعية التاجية ثم عاد إلى مصر عام ١٩٧٦، وأنشأ أول معمل فى مصر والشرق الأوسط للأوعية التاجية، ثم عين رئيساً لمعمل قسطرة القلب فى معهد القلب وظل شاغراً لهذا المنصب حتى الآن، وقد شارك الدكتور عادل إمام بأساليب فريدة فى علاج الأوعية التاجية، وصمات القلب بالقسطرة، وفى باريس أجرى عملية أذيعت على الهواء مباشرة أمام وفود المؤتمر البالغ عددهم ٨٠٠٠ شخص، وهو رئيس جمعية كل العرب لطب القلب التداخلى، وعضواً بالكليتين الأمريكية والأوربية لأمراض القلب، وعضواً بمجلس إدارة الجمعية المصرية لأمراض القلب، وقد قام بشر العديد من المقالات فى المجلات المصرية والعربية والأوربية والأمريكية، وكتبت عنه مجلة إيجيبيش ميديكال التى تصدر من لندن «أنه واحد من الآباء الروحيين لطب القلب».

المقدمة

بقلم الأستاذ الدكتور/ عادل إمام

القلم الرّشيق .. متعة .. خاصة عندما يتناول موضوعاً هاماً مثل موضوع هذا الكتاب الذى يحلل أمراض الزعماء والرؤساء، وتأثيرها على صناعة قراراتهم الهامة والخطيرة، وهنا تجد رشاقة القلم تخترق وجدانك أو تنفذ إلى عقلك أو تملكك بالدرجة التى تشعر معها أنك أصبحت أسير هذا الكتاب حتى تنتهى من قراءة آخر كلماته، والطبيب الشاب باسم عبدالصّادق يمتلك هذه النوعية من الأقلام الرشيقة التى ترصد الممتنع بالأسلوب السهل، وتجعلك مصمماً على الدخول فى أغواره لتتعرف على ما يملكه هذا الطبيب الأديب خلف جدران العقل .. وقد عرفت هذا الشاب عندما تسلم عمله فى قسم القسطرة القلبية الذى أتولى رئاسته بمعهد القلب القومى، ومنذ اللحظة الأولى شعرت أنه يحمل تفكيراً خاصاً أو قدرة هائلة على إنجاز مهام العمل التى يكلف بها، ولذلك أوليته رعاية خاصة فى تعلم فنون التشخيص والعلاج عن طريق قسطرة القلب، وأعتقد أنه كان جديراً بهذه الرعاية .. وعرفت بعد ذلك أنه أديب، يؤلف الروايات والمسرحيات، ويكتب القصص الأدبية ودواوين الأشعار، وله إبداعاته فى مجال الدراما التليفزيونية، وأشرفت عليه من الصراع القاتل داخله بين واجبات عمله كطبيب فى تخصص دقيق، وحمية إطلاعه المستمر على الجديد فى مجال تخصصه، وبين إلحاح موهبته التى تلح عليه من حين لآخر، مثل المعشوقة التى لا يرحل حبها عن قلب العاشق مهما باعدت بينهما الأسوار .. ولا غرابة فى ذلك فكثير من الأطباء نبغوا فى الآداب والفنون، وأسهموا إسهامات فعالة فى تطور الحركة الأدبية والثقافية فى مصر، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر الدكتور مصطفى محمود، والدكتور يوسف إدريس، والشاعر الدكتور إبراهيم ناجى، بل إن من أروع المفاجآت ذلك الخبر الذى ذكره لى الدكتور باسم عبدالصّادق بخصوص جراح القلب المصرى العالمى ذهنى فراج الذى حكى للمؤلف أثناء زيارته له فى منزله قبل سفره بساعات إلى لندن عائداً من القاهرة فى ديسمبر الماضى، أنه يمتلك مجموعة قصصية قام بتأليفها فى لندن، ويعتزم إصدارها فى مصر قريباً، وهذا يدل على النبوغ الأدبى لا يمكن أن يطغى على التنوع العلمى، بل ربما يكون الاثنان دافعاً وراء كمال الشخصية الإنسانية.

ومادة هذا الكتاب هامة جداً، لأنها تتعلق بتأثير المرض على إتخاذ الحاكم لقراره، وفي اعتقادي أن هذا الموضوع سيحدث دويماً في الأوساط المهتمة بمثل هذه التحليلات السياسية والطبية التي تتبنى وجهات نظر قيمة، وتنبع أهمية هذا الكتاب من أن كل الكتاب السابقين في مصر والعالم تناولوا مرض الزعماء في مؤلفاتهم من ناحية السرد الخبرى أو الوثيقي فقط، وقليل منهم هو الذى حاول أن يقتحم فكرة تأثير المرض على قرارات الزعماء، ولكن محاولاتهم تقريباً كانت تبوء بالفشل رغم كونهم كتاباً كباراً، إلا أنهم لم يكونوا من الأطباء، وبالتالي فإن ضعف خلفيتهم الطبية لم يسمح لهم بالنجاح فى تناول هذا الأمر، أما فى هذا الكتاب فإن المؤلف يسعى لإرساء وجهة نظر جديدة يجب أن تؤخذ فى الاعتبار عند تقييم قرارات الزعماء، إذ يجب العودة إلى تاريخهم المرضى أثناء فترة حكمهم، والاستناد على التفسير الطبى فى توضيح سلوك الزعماء والرؤساء وقادة الدول، وبعض الناس أحياناً ينسبون قرارات الزعماء التى قد تعصف بمصالح الشعوب إلى نوع من فساد الحاكم وبطانته، ولكن الأمراض التى قد يصاب بها مثل هؤلاء الزعماء قد تتدخل بقوة لتؤثر على قدرتهم العقلية بأسلوب مباشر إذا كانت هذه الأمراض تؤثر على ميزان الهرمونات والموصلات الكيمائية فى جسم الإنسان، التى تتحكم فى ردود أفعاله، أو بأسلوب غير مباشر عن طريق تغيير المرض للحالة النفسية والمزاج الشخصى للزعماء والقادة، وأحياناً قد يعدل المرض أشياء كثيرة فى سياسة الزعيم أو يقومها أو يجعله يعقد مصالحة مع شعبه خاصة إذا كان يمر بآخر محطاته فى الحياة.

وهناك كثير من الزعماء المرضى الذين أوقعوا البشرية فى شرك الهول والدمار كنتيجة لتصرفاتهم الناتجة عن أمراضهم العضوية أو النفسية، ولدنا المثل فى الزعيم الألمانى أدولف هتلر الذى كان مصاباً بالبارانويا والتعصب الأعمى، فحول العالم كله إلى جحيم بعد أن أوقع به فى براثن الحرب العالمية الثانية التى راح فيها عشرات الملايين من الضحايا والأبرياء، وقد سألت المؤلف عن سبب اختياره لهؤلاء الزعماء الثمانية دون غيرهم ليتناولهم فى موضوع كتابه؟ فكان رده مؤكداً على أن هؤلاء الزعماء أكثر من أثروا فى حياة شعوبهم وتاريخ أوطانهم، فالرئيس جمال عبدالناصر لم يكن رئيساً عادياً، بل كان زعيماً قومياً وتاريخياً، وله تأثير إلى حد كبير على أبناء وطنه، والملك حسين العاهل الأردنى الراحل، تولى الحكم قبل أن يولد ٩٥٪ من سكان الأردن الذين يعيشون على أرضه الآن، أما محمد رضا بهلوى وفيدل كاسترو فإن المؤلف يرى أن لهما تركيبة نفسية خاصة تستحق إلقاء الضوء والتحليل، بالإضافة إلى أمراضهم المستعصية التى أصيبوا بها، وفرانكلين روزفلت كان إسطورة الزعماء والرؤساء فى القرن العشرين وهو الرجل الذى انطلق نحو قلوب ملايين الأمريكيين على ساقين كسيحتين، فمنحوه شرف الرئاسة الأمريكية أربعة مرات متتالية على غير العادة

والقانون والدستور لأن إرادة الأمة قد انتصرت فى النهاية..

أما بوريس يلتسين فكان أول رئيس يحكم روسيا بعد إنهيار الشيوعية فى العالم وتفكك الإتحاد السوفييتى، وكان العالم كله ينظر إلى يلتسين نظرة ترقب وإستعداد حتى سقط به المرض فى حفرة الأخطاء، ورونالد ريجان كان الرئيس الأمريكى الذى قاد أمريكا فى حرب النجوم والكواكب وفى عهده عقدت أكبر صفقات لبيع السلاح الأمريكى فى تاريخ أمريكا كلها كما أنه تعرض لمحاولة إغتيال فاشلة بعد أيام قليلة من توليه حكم الولايات المتحدة عام ١٩٨١، وبالنسبة للرئيس الفرنسى الراحل فرانسوا ميتران فقد إختلف عليه شعبه ما بين مؤيد ومعارض، خاصة بعد أن ظهرت الحقيقة التى أخفاها عن شعبه لمدة إحدى عشر عاماً، وعرف الشعب أن رئيسهم كان مريضاً بمرض خبيث منذ بداية فترة حكمه وأن أطباءه كانوا يصدرون تقاريراً طبية غير صحيحة عن حالته الصحية، هذا بالإضافة إلى أن إحساس فرانسوا ميتران بأنه مشرف على الموت الأكيد بعد أن وصل إلى مرحلة متدهورة من المرض قد دفعه لأن يصلح كل أخطائه البشرية وخاصة فى حق إنته الغير شرعية، كما سنقرأ ونعرف على صفحات الكتاب،.

لذلك فإن إختيار هؤلاء الزعماء الثمانية كان موفقاً إلى حد كبير لأنهم يمثلون تيارات تاريخية وسياسية مختلفة فى تاريخ شعوبهم، ويعتبر كل منهم رائداً لمدرسة سياسية وشعبية منذ بداية كفاحه السياسى وحتى الوصول إلى آخر محطات مشواره السياسى.

ومن الأمراض التى تأثر بها الزعماء كثيراً فى قراراتهم أمراض تصلب الشرايين والأوعية التاجية وشرايين المخ، التى تغذى عضلة القلب والمخ بالغذاء والدماء، وهى تصيب غالباً الإنسان إذا ما تقدم به السن حيث تفقد الشرايين والأوعية الدموية مرونتها، وتحدث تغيرات باثولوجية بجدرانها وهذا بالطبع يؤدي إلى اصابتها بالضييق الشديد الذى يعوق بدوره سريان الدورة الدموية فى جسم الإنسان بصورة طبيعية فلا يصل الدم الحمل بالغذاء والأكسجين إلى الأعضاء والمراكز الحساسة بالجسم وبخاصة المخ، الذى تتأثر وظائفه بصورة واضحة، وكثيراً ما نقابل هذه النوعية من المرضى الذين يصيبهم فقد القدرة على التركيز، وضعف الذاكرة وتغير المزاج النفسى بالصورة التى تؤثر على توازنهم بصفة عامة وتجعلهم غير قادرين على القيام بأعبائهم الحياتية بصورة طبيعية، وقد يصبح الأمر عادياً إذا كان المريض إنساناً مثل عامة الناس أما إذا كان المرض يتعلق برئيس دولة يصدر القرارات ويرسم السياسات فإن الأمر يصبح فى غاية الخطورة، وبالطبع فإن كثيراً من الزعماء موضع هذا الكتاب قد أصيبوا بتصلب شديد فى الشرايين حيث كانت أعمارهم تتخطى دائماً الستين عاماً.. وهناك أيضاً أمراض أخرى عانى منها قادة الدول وغيرت من مجرى قراراتهم

السياسية مثل الاصابة بالأورام الخبيثة والسرطانات وتضخم الغدة الدرقية وزيادة إفراز هرموناتها بصورة غير طبيعية مما يجعل الزعيم يخرج فى سلوكه العام عن التصرفات الطبيعية والعادية .

وفى النهاية أجدنى متفقاً مع مؤلف الكتاب فى رؤيته حول تأثير الأمراض على القدرات العقلية للزعماء والقادة بما يعوقهم عن أداء دورهم القيادى بالصورة التى يأملها مواطنوهم ، وأن الأمانة تقتضى على الحاكم ، الذى يقع فى شرك الأمراض المستعصية أن يتنازل عن الحكم أما إذا كان قادراً على القيام ببعض الأعباء الرئاسية ويستلزم وجوده لدواعى تاريخية وسياسية هامة فإنه يجب أن يستعين بهيئة واعية ومخلصة من المستشارين والمعاونيين لمساعدته فى أعباء الحكم ، ومراجعتة فى كل قراراته التى قد تصدر متأثرة بمرضه حتى لايلقى بمصير شعب كامل فى جحافل الجحيم بسبب فرد واحد خاصة إذا أصر على الإنفراد بقراراته رغم بعدها عن الصواب والصالح العام .

وأترككم مع صفحات الكتاب فى رحلة تحمل كثيراً من الأسرار المثيرة والجديدة .

الأستاذ الدكتور

عادل إمام

٢٠٠٠/١٢/١٠

مقدمة الطبعة الأولى

الغزاة.. شوكة في قلب الوطني..
والفضيل.. دمعته على خد الأمل
والقلب.. كبش فداء للحجب
والموت.. صبريية الحياة
والخرافات.. الوجه الآخر للأوهام

والمرض .. محطة على طريق الزعماء والقادة والرؤساء الذين رسم لهم القدر أن يلعبوا دور البطولة على مسرح الحياة، ويحملون في رقابهم مصائر الشعوب وأحلامها وطموحها في حاضر ومستقبل يضمن العزة والكرامة والتفوق.. ولا جدال أن كل الحكام على اختلاف أوطانهم وهويتهم وسياستهم يحملون أكفانهم فوق أيديهم في انتظار حتفهم.. لأن الحاكم دائما لا يصل إلى درجة الكمال في إرضاء شعبه، ولا يتفق عليه جموع المواطنين، ولا تشير نحوه أصابع الجماهير كلها في اتجاه واحد.. بل إن لكل حاكم كبوته وخطأه ونقطة ضعفه التي يتربص خلفها أعداؤه، وهم يصوبون نحوه البنادق على أمل في النيل منه حين تضعف همته أو يكل عزمه.

وكثير من القادة والرؤساء لم يخذلوا أحلام الجماهير، ولم يخيبوا ظن شعوبهم فيهم، واستطاعوا أن ينتشلوا الرعية من ضياع الفقر إلى أمان الرخاء ومن ضعف الذل إلى هيبة القوة، ومن ظلام الجهل والتخبط إلى نور العلم والمدنية، ومن البقاء بلا حراك على الأرض إلى التحليق في الفضاء وغزو الكواكب والتخطيط لإقامة مجتمعات جديدة عليها،... نعم.. إن هناك زعماء لن ينسأهم التاريخ.. رفضوا أن يهبطوا إلى الأرض قبل أن يلمسوا السماء.. علموا شعوبهم معنى الحرية، وأن الكلمة المنطلقة من قلوب الأحرار أقوى ألف مرة في صداها من دانات المدافع ودوى القنابل.. وهناك زعماء كانوا وبالأعلى على شعوبهم.. رفضوا أن يخرجوا بآمال الجماهير من بوابة الأحلام إلى حيز الحقيقة لتصبح واقعا ملموسا ومحسوسا.. فكانوا مثل الغزاة كالشوكة في قلب الوطن.. وتحولت على أيديهم الأحلام إلى أوهام ثم خرافات ثم قيود تكبل المعاصم والسواعد.. وتزرع الشواهد فوق القبور.. وهؤلاء الطغاة لا يتنفسوا الهواء النظيف ولا تستنشق أنوفهم إلا رائحة الطغيان،... والديمقراطية في قواميس بلادهم معناها زوار الفجر والبطش والقهر والفساد، ولا تنطلق من إذاعاتهم سوى أخبار الحاكم وبطانته وبيانات التضليل والتلفيق ولا تبث تليفزيوناتهم إلا صوراً لمدارس ومصانع ومعامل ومستشفيات وجامعات غير التي يذهب إليها الناس كل نهار في أعمالهم.. حيث الواقع المؤلم والمرير.

وسواء كان الحكام من هذا الفريق أو ذاك .. فإن نسبة كبيرة منهم وقعوا فى شرك المرض .. وهجم عليهم فجأة مثل الوحش الكاسر، وحاولوا بكل إمكانات النفوذ والسلطة والسيطرة أن يفعلوا أى شىء ليطيروا أعمارهم فترة من الزمن فلم يستطيعوا أن يمدوا الأجل ولو لدقيقة واحدة .. وماتوا مثلما يموت كل الناس، وكان مثواهم الأخير أيضاً حفرة كالتى يدفن فيها العامة .. وواراهم التراب .. وفى النهاية فإبها حفرة مهما علت فوقها البنايات، ومهما أقيمت عليها قلاع المساجد أو الكنائس، ومهما ازدانت الجدران حولها بالرخام والجرانيت .. فالعبرة فى النهاية بما يحدث داخل القبر وهل هو مضى أم مظلم؟! .

والكثير من الناس رغم اختلافهم فى الدين والوطن والثقافة، والظروف الاجتماعية والاقتصادية، ينظرون إلى الحكم على أنه زهوة وأمل يحاكي الأذهان ويداعبها، وما أكثر ما تملك الزعامة والعظمة من نفوس البعض من العامة، فيتقمصون أدوار الرؤساء، ويرتدوا عباءات القادة وهم يجلسون على المقاهى، وفى الحانات والأوكار، أو يقفون على النواصي ليقول الواحد منهم: لو كنت مكان الرئيس لفعلت كذا وكذا!! وكأن السلطة والقيادة تكريماً للسلطان وتعظيماً للقائد وليست معجوناً من الخبرات، وحماً لتوء عن حمله الجبال .. ويسود هذا الاعتقاد لاشك فى البلاد والدول التى تتعاطم فيها صورة الحاكم مثل دول العالم الثالث التى تؤله الحكام، وتعتبرهم كيانات خيالية بالنسبة للأُم والأوطان .. فهم يعيشون فى خزانة من الحواجز التى تفصلهم عن شعوبهم . ولا يتحركون بين الناس إلا فى المواكب التى تحرسها المصفحات والرشاشات ومئات من الجنود المدججين بالسلاح .

ولكن تبقى الحقيقة فى النهاية .. والتى لا جدال ولا مرء أو شك فيها أن عظمة الحاكم تهبواى وتسقط وتذبل عندما يواجه محنة المرض، وخاصة إذا كان مرض الموت .. وأن سياسات الدول داخلياً وخارجياً ترتبط بالحالة الصحية والمرضية للزعماء إلى الحد الذى تتلاعب معه أسعار العملات فى الدول التى يصاب حكامها بأمراض خطيرة .. مثلما حدث من انخفاض كبير فى سعر الدينار الأردنى أثناء مرض العاهل الأردنى الراحل الملك حسين، وإصابته بسرطان الغدد الليمفاوية «الليمفوما» الذى أودى بحياته .. حيث عم جو من القلق فى الأوساط العالمية خوفاً على مستقبل الأردن بعد وفاة الملك حسين خاصة إذا وقعت المملكة الأردنية فى براثن الخلاف على الحكم وتولى السلطة فى البلاد .

وعادة لا يتوقف الأمر على تأثير سوق النقد الدولى بالظروف الصحية للرؤساء والملوك ولكن تصاب السلع الأساسية أيضاً بنوع من تلاعب الأسعار فنجد مثلاً أن سعر برميل البترول والغاز الطبيعى قد يتأثر بالأحداث السياسية العالمية الهامة، ومنها مرض ووفاة الزعماء ورؤساء الدول والحكومات .

وحيثما اشتد المرض على الزعيم جمال عبدالناصر قام الاتحاد السوفىيتى ولم يقعد إلى الحد الذى جعل بريجينيف يأمر وزير الصحة وكبير أطباء الكرملين البروفيسور يفجينى

تشازروف بأن يفعل أى شىء وكل شىء من أجل إستعادة صحة عبد الناصر ، لأنه كان يرى أنه لا توجد فى الشرق الأوسط شخصية أخرى قادرة على أن توحد العرب فى مواجهة الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل . . وأن عبد الناصر إذا مات وغادر المسرح السياسى فستلقى المصالح الروسية مواجهة وخطراً كبيراً . . وعندما ذهب الملك حسين إلى مستشفى مايو كلينيك فى ولاية مينسوتا الأمريكية طلب الرئيس الأمريكى بيل كلينتون من أطبائه الخصوصيين أن يبقوا فى خدمة الملك ورهن إشارته حيث كان يخشى على مستقبل الأردن إذا ما انتقلت السلطة إلى يد شقيقه وولى عهده الأمير الحسن وهو ما يضر بالمصالح الأمريكية فى الشرق الأوسط ، وعندما واجه بوريس يلتسين الموت . . حين صارحه أطباؤه بضرورة إجراء جراحة عاجلة وخطيرة فى القلب لاستبدال الشرايين التاجية المصابة بالتهلوث ، سلم الحقيبة النووية إلى رئيس حكومته ، وتداولت كل وكالات الأنباء العالمية هذه الأخبار الهامة ، وفردت لها مساحات كبيرة للبحث والنقاش حول مدى أهمية هذه الحقيبة النووية . . وهل كان يمكن للرئيس بوريس يلتسين أن يحتفظ بالحقيبة أثناء رحلة العلاج أم لا ؟ .

والرئيس السورى حافظ الأسد كان يتكتم بشدة أخبار مرضه حتى لا يؤثر ذلك على الحالة المعنوية لشعبه الذى يرى فيه الشخصية الصامدة التى تهابها إسرائيل وتحسب لها المقادير والحسابات . . ورغم كل ذلك فإن أخبارا عن حالته الصحية كانت تتفشى بين الحين والآخر ، وكان تدهور حالته المرضية يقلق الأوساط السياسية فى الشرق الأوسط ، والعالم كله . . وهذا ما دفع الموساد الإسرائيلى أن يتابع حالته الصحية عن قرب حتى يتم تقييم مؤشرات مفاوضات السلام مع سوريا بصورة تخدم مصالح إسرائيل . . هذا إذا بدأت هذه المفاوضات . . !!

ونتيجة لهذه المحاولات المتكررة للتقصى عن حالة الرئيس الأسد الصحية ، استطاع الموساد الإسرائيلى أن يحصل على عينة من «بول» الرئيس حافظ الأسد أثناء زيارته للأردن فى شهر فبراير ١٩٩٩ لتشخيص جثمان العاهل الأردنى الملك حسين ، وتمكن الموساد من تحليل هذه العينة التى كشفت نتائجها عن حالة صحية حرجة للرئيس حافظ الأسد وخشيت إسرائيل أن تدخل فى أى مفاوضات للسلام مع الرئيس حافظ الأسد ، قد تتعثر أو لاتستمر بعد تولى شخص آخر الحكم خلفه خاصة وأن الرئيس حافظ الأسد قد بدأ يدرك أهمية السلام العادل بعد سنوات طويلة من المواجهة مع إسرائيل .

وهناك عشرات من الرؤساء والملوك والرموز الوطنية وقعوا أسرى للمرض لفترات طويلة ، منهم على سبيل المثال الملك عبد العزيز آل سعود والحبیب بورقيبه ومحمد رضا بهلوى وتيتو ورونالد ريجان وغيرهم كثيرين . . كما أن هناك العديد من الحكام فى أنظمة الحكم الزائلة ، قد راحوا ضحية أمراضهم ، مثل الزعيم الصينى ماوتسى تونغ ، والحدوي توفيق الذى مات متأثراً بتسمم بولينا ونيكولاى شاوشيسكو ديكتاتور رومانيا الذى أصيب

بالبارانويا، وراح فى نهاية مأساوية، ولكن يبقى السؤال الهام الذى يراود الأذهان .. ويشغل تفكير المحللين السياسيين والخبراء فى دوائر صنع القرار وهو هل يتأثر قرار الحاكم بحالته المرضية .. وهل يصبح قادراً من الناحية الذهنية والعقلية على إدارة شئون البلاد وهو يعانى من أعراض مرض خطير؟! .

الإجابة قد تبدو سهلة فى بداية الأمر، وللكتير من الناس الذين سيستشهدون بكثير من الزعماء المرضى الذين مارسوا مقاليد الحكم، وصارعوا مع شعوبهم فى مراحل البناء والتقدم .. بل منهم من قاد شعبه فى حروب التحرير ضد قوى الاستعمار الغاشمة ... وحقق انتصارات ساحقة تراجعت أمامها جيوش الاحتلال .. والإجابة على هذا التساؤل ليس أمراً سهلاً مثلما يتصور البعض، فتلك القضية تحتاج إلى تحليلات كثيرة، وإلمام كامل بمجاسات الظروف الصحية للزعماء، وتصرفاتهم الشخصية فى حياتهم العادية أثناء رحلة العلاج وهو ما سنتعرض له على صفحات هذا الكتاب بالعرض والتحليل الدقيق ...

وقبل الخوض فى هذا التحليل يجب أن ألقى الضوء على بعض النقاط الهامة التى وقفت عليها أثناء رحلتى فى تأليف وإعداد المادة الخاصة بهذا الكتاب، ... وأولى هذه النقاط أن هناك عدداً لا بأس به من الحكام قد أصيب بأمراض نفسية مباشرة مثل «البارانويا» أو جنون العظمة كما يطلق عليه البعض، أو بترسبات نفسية غير مباشرة مثل «الإكتئاب» نتيجة إصابتهم بأمراض عضوية خطيرة أو لتعرض بلادهم لأحداث سياسية هامة، ونكبات ونكسات لم يستطيعوا معها مواجهة شعوبهم، فانعكس ذلك على حالتهم النفسية، واندفعت قراراتهم من خلفية نفسية غير سليمة شجعتها بطانة السوء والطامعين فى الحكم فيعيش الحكام أسوأ فترات حكمهم، والتى غالباً ما تنتهى إما باعتياله أو الإطاحة به فى انقلاب عسكري، أو بثورة شعبية ضده، أو بموته مقهوراً، ومتأثراً بحالته النفسية والعضوية .

ونقطة ثانية .. أن كثيراً من القادة والزعماء قد توحشوا فى مواجهاتهم مع الأعداء إلى الحد الذى لا يتحمله عقل ولا يقبله منطق ولا تقره أى شريعة سماوية مثلما فعل هتلر الذى أعد محارق جماعية لليهود، وكان يلقي فيها بآلاف الأشخاص وقوداً للنار، وقائده روميل «ثعلب الصحراء» الذى زرع صحراء العلمين فى مصر بأكثر من ١٧,٥ مليون لغم حتى لا تتبعه فلول الجيش البريطانى، ومازال إلى يومنا هذا يذهب العشرات ضحايااً للألغام هذا الثعلب روميل .. وسلوبودان ميلوفتش، وحش الصرب الذى كان يلعب الكرة برؤوس مسلمى البوسنة والهرسك بعد بترها من فوق الأعناق .. ويقرر بطون الحوامل ويغتصب النساء والفتيات، ويطلق جنوده المسعورين نحوهم .. وإريل شارون مجرم الحرب الإسرائيلى الذى ذك المدارس فوق رؤوس الأطفال الأبرياء، وحفر المقابر الجماعية لأسرى الحرب خلفاً للأعراف والتقاليد الدولية، وذبح الآلاف فى لبنان والأراضى المحتلة، ومازال إلى اليوم يواجه العالم بوقاحتته وبوجهه الذى نضبت فيه الدماء .. وهذا لا شك دليل على اختلال الميزان

النفسي لهؤلاء القادة حتى أنهم أصبحوا يعيشون بنفسية الوحوش لا بنفسية البشر .

ونقطة ثالثة .. أن معظم الزعماء الذين تفحلت حالتهم الصحية، وشعروا بدنوا أجلهم، كانوا يصرون على اتخاذ قرارات فورية وسريعة، وخاصة هؤلاء الرعاء الذين حملوا على عاتقهم قضايا التحرر من الاستعمار، وأن رغبتهم فى الانتصار والفور واستنشاق رحيق الحرية قد جعلهم فى حالة توتر وانفلات عصى مستمر، خشية أن يلقوا مصيرهم المحتوم قبل تحقيق آمال شعوبهم .. على عكس الجبابرة من الزعماء الذين تميزوا بالديكتاتورية طوال فترة حكمهم، فهم يصابون بحالات أشبه بالجنون كلما شعروا بدنوا أجلهم ..

ونقطة رابعة .. أن كل الحكام يخفون أخبارهم الصحية ويرفضون أن تتداول وسائل الإعلام تقاريراً عن حالاتهم الصحية، خاصة إذا كانت بلادهم فى مواجهة سياسية أو عسكرية مع أى دولة أخرى بالعالم، ويخشى أن يتسرب خبر مرض الحاكم فيرفع من الروح المعنوية للأعداء، ومن الناحية الأخرى يشبّط من همم شعوبهم وجنودهم، ونسبة نادرة من الحكام يواجهون شعوبهم بحقيقة حالتهم الصحية ولكن نعود لنؤكد، كما سيبين لنا فى صفحات الكتاب، أن وراء ذلك أحياناً أغراضاً سياسية أخرى أو لاستجلاب تعاطف الشعب خاصة مع مقدم الانتخابات الرئاسية .

ونقطة خامسة .. أن حكام دول العالم الثالث عادة ما يقطعون آلاف الأميال للعلاج فى المستشفيات الأمريكية والأوروبية .. ويشغلهم طوال فترة العلاج مسألة الخلافة وانتقال السلطة وهذا ما سنتوقف أمامه كثيراً فى فصول هذا الكتاب ..

وأجدنى فى النهاية أقف مبهوراً أمام عظمة وصفاء «عمر بن العاص» القائد العربى المسلم الذى فتح مصر وحررها من احتلال الرومان .. حين وهنت صحته فى السنة الثالثة والأربعين من الهجرة، وشعر بقرب وفاته بمصر، حيث كان والياً عليها وراح يستعرض حياته فى لحظات الرحيل، فقال «كنت أول امرى كافراً .. وكنت أشد الناس على رسول الله .. فلو مت يومئذ لوجبت لى النار .. ثم بايعت رسول الله، فما كان فى الناس أحد أحب إلى منه، ولا أجل فى عينى منه، ولو سئلت أن أنعته ما استطعت، لأنى لم أكن أقدر أن أملاً عينى إجلالاً له .. فلو مت يومئذ لرجوت أن أكون من أهل الجنة .. ثم بليت بعد ذلك بالسلطان، وبأشياء لا أدرى أهى لى أم على» ثم رفع بصره إلى السماء فى ضراعة، مناجياً ربه قائلاً: «اللهم لا برئى فاعتذر، ولا عزيز فانتصر، وإلا تدركنى رحمتك أكن من الهالكين» وظل فى ضراعاته وابتهالاته حتى فاضت روحه وكانت آخر كلماته لا إله إلا الله .

رحم الله عمرو بن العاص .. القائد والزعيم والرئيس الذى اعتبر السلطان بلاء .. والسلطة اختبار .. والنفوذ حقا .. فاستحق أن يموت واسم ربه آخر كلمة ينطقها لسانه .

المؤلف

كيف يؤثر المرض على حياة الإنسان وقراره؟!

اختلفت الآراء كثيراً حول المغزى من إصابة الإنسان بالأمراض، ولماذا لم يجعل الله سبحانه وتعالى الإنسان معافاً شافياً من بداية رحلته فى الحياة، وحتى نهايتها.. والبعض يقول أن المرض نتاج طبيعى للصراع البيولوجى الموجود بين الكائنات الحية، خاصة وأنه من المعروف علمياً أن هذا الصراع يخدم فكرة البقاء للأقوى، وإلا كانت الدنيا قد ازدحمت بمليارات الكائنات منذ بداية الحياة على الأرض وحتى يومنا، وما كنا نستعظنا أن نجد متنفساً للهواء فيما بيننا من زحام الكائنات التى تلد ولا تموت، وتنتظر أن تموت مرة واحدة ومجتمعة عندما يأذن الله بنهاية الحياة.. إذن فالأمراض يمكن أن تكون سبباً للموت.. ولا شك أن العلم قد أكد ذلك فى بعض الأحيان، فكل الناس يموتون بقدر الله وسلطانه العظيم وإرادته القوية، ولكن الله عز وجل يسبب الأسباب التى بمنطقها عقل الإنسان، فيكون الموت ناتجاً عن مرض أو لتوقف فجائى للوظائف الفسيولوجية التى يقوم بها أحد الأعضاء الهامة فى جسم الإنسان، فيختل ميزان الصحة، وتتوقف التروس الدائرة، فى حركة مدروسة ومنسجمة ومرتبطة واحداً تلو الآخر.. وسبحان الله فإنه يقدر أن يقبض الأرواح بلا سبب وبلا برهان وبلا منطق يفهمه الإنسان.. فهو القادر على كل شئ.

والبعض الآخر قال إن المرض وسيلة عقاب إلهية، وأنه المردود الطبيعى لأفعال الإنسان الغاشمة التى ينسى فيها ذكر ربه، فيبصق فى وجه الرحمة ويقهر الضعيف، ولا يحض على طعام المسكين، ويسير فى الأرض فساداً وفسقاً وفجوراً.

وآراء أخرى أكدت أن المرض ابتلاء واختبار لقدرة الإنسان المؤمن، وتحمله الأقدار الإلهية دون نقمة أو عصيان، أو الخروج من بوابة الإيمان إلى بوابة الكفر، وأنه وسيلة لزيادة ميزان الحسنات، وتطهير للنفس قبل أن تلقى وجه ربها، وإستندت هذه الآراء إلى قول الرسول عليه الصلاة والسلام فى حديثه الذى رواه أبو هريرة «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياها».

وأياً كان الدافع وراء المرض فإنه لا شك أن يكون مجالاً لإثبات إيمان الفرد وقدرته على تحمل الإبتلاء، وقياساً لدرجة الصدق فى عبوديته لله سبحانه وتعالى والذى قدر هذا

البلاء لحكمة يعلمها .. وبالتأكيد فإن المرض مهساً اختلفت شدته ودرجته، فإنه يؤثر على حياة الإنسان، ويعبث في طبيعتها، ويعد خرقاً للميزان الطبيعي، والانسحاب المعتاد بين أجهزة الجسم المختلفة في أداء عملها .. والمرض ببساطة معناه اختلال في الوظائف الفسيولوجية في جسم الإنسان بدون النظر إلى الأسباب التي قد تكون خارجية مثل هجوم الفيروسات والبكتيريا والطفيليات على الجسم، أو داخلية كفشل الأعضاء في أداء وظائفها الحيوية الهامة، أو تحول تركيب الخلية الشثرية إلى تركيب آخر خلوية صارمة مثل الخلايا السرطنة على سبيل المثال .

وإذا تناولنا مرضاً مثل تضخم الغدة الدرقية، وزيادة نسبة الإفراز في هرموناتها عن المعدلات الطبيعية، لعرفنا كيف يؤثر المرض بالفعل على سلوك وتصرفات الإنسان في حياته العامة، فالمعروف أن الغدة الدرقية موجودة في الجزء السفلي من الرقبة وهي تفرز هرمون الثيروكسين (T4) وكميات بسيطة من هرمون التراي أيووثيرونين (T3) ويتم صناعة ٨٥٪ من هرمون (T3) عن طريق عملية النزاع الأحادي للأيوودين الموجود في هرمون الثيروكسين (T4) وذلك في خلايا أعضاء أخرى مثل الكبد والكلية والعضلات .. وعادة فإن هرمون الثيروكسين يكون غير نشط قبل تحوله إلى هرمون (T3) ثم يدفع بالهرمونين (T3 & T4) إلى الدورة الدموية للإرتباط الكيمياءى ببعض مكونات الدم والقيام بأداء وظائفها المتعددة، في الحث على تصنيع البروتين بطريقة الاستنساخ، وفي تخضير جميع الوظائف الحيوية وإنتاج الطاقة ونمو الجسم والعظام، كما تقوم هرمونات الغدة الدرقية بدور هام في عملية التمثيل الغذائي للمواد الكربوهيدراتية والبروتينات والفيتامينات، وأيضاً تزيد من كفاءة عضلة القلب وترفع من قوة انقباضاته، وكذلك الجهاز التنفسي والهضمي والعصبي، كما تلعب هذه الهرمونات دوراً أساسياً في الكفاءة الجنسية عند الرجال والسيدات على حد سواء ..

وأى اختلال في نسبة هرمونات الغدة الدرقية في الدم يصيب الإنسان بأعراض مختلفة، منها فقدان الشديدي في الوزن وتكرار المرات التي يحتاج فيها الشخص إلى التبرز بصورة غير طبيعية، والقئ المستمر على فترات متباعدة والتلاحق السريع والمقلق في ضربات القلب وتورم الأقدام، وضيق التنفس مما يؤدي في النهاية إلى الشعور بعلامات قصور الشرايين التاجية، وفشل عضلة القلب في أداء وظائفها، هذا بالإضافة إلى الآثار السلبية لهذا المرض على الجهاز العصبي والحركي، فنجد مثلاً أن مريض تضخم الغدة يكون قلقاً ومتوتراً، وكثير الانفعال وذو عاطفة متغيرة، من وقت لآخر، ويشعر بارتعاشات ملحوظة في يده .. فلا يستطيع مثلاً أن يكتب بالقلم بثبات ودون أن تهتز يده، ونجده سريعاً في رد فعله، ضعيفاً في قوته العضلية، وهذا ما يحدث جسباً إلى جسب مع سلسلة أخرى من المضاعفات المؤثرة في الجلد والعيون والجهاز التناسلي وفروة الرأس، وأظافر اليدين والقدمين وقد يؤدي أيضاً إلى حدوث بعض الأورام السرطانية .

إذن فالإنسان المصاب بزيادة في إفراز هرمونات الغدة الدرقية، وفي حالة متأخرة يعتبر غير مؤهل لاتخاذ قرارات ذات حيوية هامة وهو يعاني من كل هذه الأثار الصحية السلبية وما ينتج عنها من إصرار نفسية بالغة.

والإنسان الذى يعاني من أمراض فى القلب، مثل قصور وانسداد الشرايين التاجية أو الاختلال فى ضربات القلب أو الضيق والارتجاج فى الصمامات الرابطة بين حجرات القلب أو فى شرايين القلب الرئيسية.. فإنه يعاني من مضاعفات جسيمة خاصة إذا تسبب المرض الأصلي مع طول الوقت وتكرار الأزمات فى حدوث فشل فى عضلة القلب (HEART FAILURE) ولا يخفى أن أمراض القلب تؤثر على كل أجهزة الجسم فى أداء وظائفها الحيوية، فلو تصورنا مثلاً أن مريضاً يعاني من تضخم شديد فى عضلة القلب مصحوب بفشل وهبوط فى وظائف القلب، فإن عضلة القلب لن تقوى على دفع الدماء إلى الشريان الأورطى ليقوم بتوزيعه على كافة أعضاء الجسم، محملاً بالأكسجين والغذاء اللازم لحياة هذه الأعضاء وقيامها بأعبائها الفسيولوجية، فنجد مثلاً أن الكليتين قد يصابا بقصور فى الدورة الدموية، ومن ثم يصبح المريض فى مواجهة جديدة مع الفشل الكلوى، وتقد تتوقف الكلى عن إفراز البول فيندفع نحو الدورة الدموية فى صورة بولينا سامة، قد تؤثر على تركيز المريض وحالة إدراكه، وقد يعقب الأمر دخوله فى غيبوبة تامة تهدد حياته.

ومريض فشل القلب المزمن تصبح كل همومه وكل مسؤولياته فى الحياة منحصرة فى كيفية الحصول على جرعة الهواء، والتي تخرجه من حالة الاختناق الشديد التي يشعر بها دائماً، ويتسبب فيها عدم قدرة القلب على أداء وظائفه والاحتقان فى الأوعية الدموية والرئتين والذي يجعل التنفس أمراً بالغاً فى الصعوبة، خاصة إذا فكر هذا المريض أن ينام ويلقى بجسده مفروداً على فراشه.. فلن يستطيع أن يأخذ نفسه مطلقاً.. ومريض القلب الذى يتعرض لأزمات قلبية متكررة مثل الذبحة الصدرية، أو جلطة القلب، يعيش فى حالة من الخوف والهلع خشية حدوث هذه الأزمات التي يعرف مدى قسوة آلامها التي تشبه طعنات السكين فى قلب المريض.. بالإضافة إلى إحساسه فى كل مرة تعاوده الأزمة بأنه بين الحياة والموت.. وأن القلب عضو واحد فى جسم الإنسان لا بديل له.. ولا مثيل.. وزراعته من جديد فى الجسم امراً فى غاية الصعوبة والتعقيد.

فالإنسان لا يستطيع أن يفكر أو يدرك أو يقرر وهو يعيش فى حالة حرب دائمة مع المرض الذى يحاول فى كل لحظة أن يغتاله إذا غفل عنه لحظة واحدة.

وهناك أمراض أخرى كثيرة تلقى بانعكاساتها على إدراك الإنسان، وحسن قراراته، خاصة إذا كانت هذه الأمراض تتعلق بالمخ ووظائفه.. مثل قصور الدورة الدموية بالمخ، والذى يتسبب فى عدم وصول الدم المحمل بالأكسجين إلى خلايا المخ بالصورة الطبيعية وهو الأمر الذى يؤثر بالفعل على الوظائف الفسيولوجية لمراكز المخ المتعددة فتتأثر بالتبعية أعضاء

الجسم المختلفة .

وقد يصاب الإنسان بمرض مثل «الزهايمر»، وهو مرض يفقد فيه الشخص ذاكرته، ولا يستطيع أن يعرف حتى أفراد أسرته .. أو أصدقائه أو أقرب المقربين إليه، وينسى تماماً تركيبهم الإنسانية وحوادثهم، ونفسياتهم، وإذا ما اتخذ قراراً بشأنهم فقد يشوبه الكثير من الخلل وتعيبه الدقة وتحيد عنه المسئولية .

والمرضى النفسيون .. هم أبعد ما يكونوا عن الصواب فى اتخاذ قراراتهم والسبب فى ذلك، أنهم يصيروا فى حالة عقلية غير سوية، تتدرج شدتها من مرض نفسى إلى آخر .. ومن حالة مرضية إلى حالة أخرى .. ومن تركيبة الشخصية إلى تركيبة أخرى .. ولكن الملفت للنظر أن المرضى النفسيين لا يلقوا الرعاية والعلاج السليم .. وليسوا كلهم نزلوا فى المصحات ومستشفيات الأمراض العقلية .. بل إن نسبة قليلة جداً منهم هى التى تعيش خلف أسوار هذه المستشفيات ،، ونسبة كبيرة من المرضى النفسيين تعيش بين الناس، ونراهم كل يوم فى مجتمعاتنا بشخصياتهم الغير سوية، وللأسف فإن بعضاً منهم يكون مسئولاً ومتحكماً فى مصائر العشرات والمئات .

نعم .. فهناك الكثير من المرضى النفسيين .. يتخذون القرارات ويوقعون على الأوامر .. وبالطبع تتحكم فى دوافعهم خلفيتهم النفسية المريضة وشخصيتهم البعيدة عن السواء الطبيعى .

وكثير من الناس الذين يعيشون معنا فى بيئة واحدة، ويزاملوننا فى العمل ويسيرون بجوارنا فى الطرق، مصابين بالإكتئاب الشديد .. ولكنهم يمارسون أعمالهم من خلف قضبان المرض النفسى حفاظاً على لقمة العيش وهم يعانون من آثار الإكتئاب البالغة فى تعقيدها وتركيبها .. فهم يشعرون بالإرهاق والصداع المستمر وآلام بالصدر والبطن ونقص شديد فى الوزن، ويشكون من الإمساك وقلة التركيز وفقدان الشهوة الجنسية والعجز الجنسي، وقلة النوم والإحباط العام طول اليوم .. وقد يصل بهم الأمر إلى حد الانتحار .. ومع ذلك نراهم يدورون فى الساقية، ويمارسون أعمالهم، ويأخذون قراراتهم النابعة من شخصيتهم المغبطة .. ولكن يبقى أن نقول إن كل منهم يؤثر فيه المرض حسب شدته ووفقاً لمعايير شخصيته وقوامها وبنيتها ..

هذا ما قد يحدث مع العامة ..!؟

ولكن ماذا لو كان الأمر مرتبطاً بالشخصيات العامة والزعماء والقادة ورؤساء الدول ..!؟

فالرئيس جمال عبد الناصر كان مصاباً بالقلب والسكر وفى أواخر أيامه لم يكن يستطيع الوقوف على قدمه، والرئيس الأمريكى فرانكلين روزفلت .. أحد أعظم ثلاثة رؤساء

حكمتوا أمريكا، كان مقعداً ومصاباً بالشلل، ويحكم هذه الدولة القوية من مقعده المتحرك، وشاه إيران محمد رضا بهلوى كان يعالج من السرطان، وكانت له تركيبة نفسية تحتاج كثيراً إلى التوقف أمامها بالفحص والدرس.. والعاهل الأردني الملك حسين بن طلال.. الذي أخذ أخطر قرارات حكمه على الإطلاق وهو في مرحلة الاحتضار معانياً من سرطان الغدد الليمفاوية.. وغيرهم وغيرهم كثيرون.. ولكن المشكلة أن هؤلاء ليسوا مثل العامة.. فالعامة من المرضى قراراتهم تؤثر في مجموعات بسيطة من الناس الذين يقعون تحت سيطرتهم في العمل أو في الحياة الاجتماعية، أما الزعماء والرؤساء فإن قراراتهم تؤثر في الشعوب والممالك والأمم، ترسم المستقبل بحلوه ومره..، وتصنع الأمجاد أو تؤند الأجلام.

ولا جدال في أن أمراض الزعماء قد شغلت حيزاً كبيراً من تفكيرهم.. بل أثرت على قوة تركيزهم وقدرتهم في اتخاذ القرارات، ولكن يبقى الوضع السياسي وظروف الحكم ورغبة الحكام والرؤساء في أن تظل أخبارهم الصحية طي الكتمان.. حائلاً دون الاعتراف بمدى تأثير المرض على قرارات الزعماء، ولكن التاريخ لا تقف أمامه حوائل وقوة العلم والبحث والدراسة لا تعادلها قوة.. وسيبقى الزعماء والقادة عرضة للتشريح السياسي والاجتماعي والاقتصادي والصحي حتى بعد موتهم، فهذه هي ضريبة الحكم والقيادة والزعامة.



الرئيس جمال عبدالناصر «الرجل الذي احترق»

جمال عبدالناصر.. زعيم وطني بكل ماتحملة الكلمة من معاني، قاد شعبه للثورة ضد قوى الاستعمار البريطاني الذي جثم على أنفاس البلاد مايقرب من سبعين عاما، وأطاح بملك مصر «فاروق الأول»، الذي ورث عن أبائه وأجداده قلبا يخشع للعلم البريطاني، ويتواطأ مع الاستعمار الذي يأكل ويسلب خيرات الشعب، وأعدى أعداء عبدالناصر لايعتريهم الشك ولايمكن أن ينكبروا إنجيازه الكامل للفقراء والمطحونين، بل كانوا يتهمونونه دائما بالحققد على الأغنياء، ويعززون سياساته إلى هذا الحققد الذي يتصورونه، ولم يكن عبدالناصر حاقدا، ولكنه كان ينظر إلى الغنى الفاحش وسط الفقر المدقع على أنه جريمة لاغتفر، وهذا ماجعله مصمما على تذويب الفوارق بين الطبقات، ولقد ألزم نفسه بمبادئ صارمة لاجدال فيها.. أن لايملك أرضا أو عقارا، لأنه كان يرى أن الملكية هي تجسيد عملي للامتياز الطبقي، ولم يكن ضد الملكية كمبدأ، ولكنه كان ضد تجارز الحدود فيها في مجتمع أغلبيته الساحقة من المعدمين، وكانت وجهة نظره أن الحاكم لايجوز له أن يملك الأفدنة والعقارات، لأنه بذلك يفقد قدرته على التعبير عن مصالح الأغلبية، ويجد نفسه - مهما حسنت نواياه - يعبر عن مصالح الأقلية.. وكل الذين خالطوا عبدالناصر، وكل ماكتب عنه في مصر أو في العالم، يؤكد أن الرجل لم تكن له شهوة في طعام أو شراب، وكان أفخر الطعام عنده لحما وأرزا وخضارا وكان الفول المدمس والجبنة القريش هي الأطباق المفضلة على مائدة إفطاره اليومية، وكان نهاره وليله عملاً متواصلاً، أما الترف في حياته فلم يكن أكثر من الاستماع لتسجيل أغنية من أغاني أم كلثوم في مكتبه أثناء قيامه بهام عمله، فيجعل صوتها يصدر خافتا كخلفية لجو العمل، وإذا شعر نشئ من الضيق ذهب إلى قاعة السينما في بيته ليشاهد فيلما قبل أن يأوى إلى فراشه..

والرئيس عبدالناصر كان يعيش عيشة تقليدية وبسيطة، ولم يكن يسمح لأحد من أبنائه أن يخرج عن أسلوبه ونمطه في الحياة، ويوم رحل عبدالناصر كان كل ما تركه أربعة آلاف جنيه فقط، ألف، وخمسمائة منها قسيمة بوليصة تأمين على حياته، عقدها قبل ذهابه إلى حرب فلسطين، وحسانا باسمه في سك مصر، كان رصيده ألفين وأربعمائة جنيه، وفي مقابل ذلك كان مدينا بما يقرب من ستة وعشرين ألف جنيه، نفيت عليه من تكاليف بناء بيتين لكل واحدة من نياته بيتا تسكن فيه عند زواجها، وكان قد تردد في هذا الأمر طويلا ثم عزم عليه مدفوعاً بعاطفة قوية نحو أسرته التي كان يشعر تجاهها بالتقصير، وكان يريد من زوجته

وأولاده أن يعرفوا أن انشغاله عنهم خارج عن إرادته .. وكانت ابنة عبدالناصر الكبرى هدى تعمل في سكرتاريته بمرتب قدره ستة وثلاثون جنيها، وكان قرينها حاتم صادق يعمل في مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام بمرتب قدره مائة جنيها، وكانت ابنته الثانية منى تعمل في دار المعارف المملوكة للأهرام بمرتب قدره ثلاثون جنيها وكان زوجها أشرف مروان يعمل في سكرتارية الرئيس للمعلومات موظفا في الدرجة السادسة بمرتب قدره اثنان وثلاثون جنيها في الشهر ..

وكان منطق سيادة القانون مبدءا هاما في شخصية عبدالناصر، فهو لم يتدخل في حياته في حكم من أحكام القضاء وكان لديه إحساس عميق بقدسية العدل، وهو إحساس أصيل في المجتمع المصري بحكم التكوين الحضارى لشعب استقرت حياته في بيئة زراعية، ترسخت فيها فكرة الاحتكام إلى قانون القضاء ..

ويذكر الكاتب الكبير محمد حسنين هيكل أن الرئيس عبدالناصر جاءه بخطاب مكتوب من «الملك سعود» يرجوه فيه أن يتدخل لكي تحصل السيدة «ناريمان» ملكة مصر السابقة على الطلاق من زوجها «الدكتور أدهم النقيب»، وكانت «ناريمان» قد لجأت إلى الملك، وكان النزاع بين الزوجين يدور في قضية أمام محاكم الأحوال الشخصية في مصر، وصلت إلى حد أن طلب الزوج زوجته في بيت الطاعة، واستصدر حكما قضائيا فيما طلب، وعرض الرئيس جمال عبدالناصر الخطاب الموقع من الملك سعود على الأستاذ هيكل وهو يقول له: إننى أريد أن أجامل الرجل في أى شئ يطلبه منى، ولكنه قصدنى حيث لا أستطيع أن أجيب طلبه، ولا أعرف كيف أرد عليه، وهل يصدقنى إذا قلت له أننى لا أستطيع أن أتدخل في أعمال محكمة شرعية؟ وكيف أتدخل؟ ..

كل ذلك يؤكد لنا كيف أن الرئيس جمال عبدالناصر كان شخصية إنسانية من الطراز الأول، ولها كل مقومات الزعامة والقيادة، وأنه كان بمثابة الرمز ليس فقط في مصر، ولكن لكل حركات التحرر في العالم العربي والشرق الأوسط، ان في العالم كله .. وسواء نتفق معه أو نختلف في بعض قراراته، فإن كثيرا من المحللين السياسيين والخبراء في الدوائر السياسية قد أعزوا سلبيات عبدالناصر في بعض فترات حكمه إلى الكثير من الضغوط السياسية الداخلية والخارجية، والتي كانت تحيط بحكم عبدالناصر .. إلا أننى أرجو من القارئ أن يتقبل وجهة النظر الجديدة في التحليل السياسى لفترات حكم الزعماء واتخاذهم قرارات مصيرية كثيرة ومعقدة سواء كانت هذه القرارات ضد أو مع مصالح ومشاعر الجماهير ومواطن الشعوب .. إذ يجب ألا نغفل بأى حال من الأحوال الحالة الصحية والمرضية للزعماء وقت استصدار قراراتهم الهامة وإدارتهم لشئون البلاد وهذا مااستعرض له بداية بالرئيس عبدالناصر ..

عبد الناصر مريضاً

عاش الرئيس جمال عبد الناصر صراعاً طويلاً مع المرض، والذي هاجمه فجأة في نهاية عام ١٩٥٨، حيث كان يجري الرئيس تحليلاً روتينياً للبول ولأول مرة تم اكتشاف وجود نسبة من السكر في بول الرئيس عبدالناصر، وأنه أصبح مصاباً بمرض السكر.. والمعروف أنه بين كل عشرة مصريين يوجد مصري مصاباً بمرض السكر، أو «السكري»، كما تصح تسميته العلمية، وعندما يتناول الإنسان العادى الطعام اليومي الذي يحتوي على مواد نشوية وسكرية وبروتينية فإن غدة البنكرياس تقوم بإفراز هرمون الإنسولين الذي يتعامل مع المواد السكرية في كافة أنواع الطعام، ويتولى إحراق الكمية الزائدة عن احتياج جسم الإنسان.. وفي حالة عدم وجود الإنسولين أو قلة إفرازه فإن هذه المواد السكرية تنطلق إلى الدم الذي يتشبع بها، فيطردها في البول، ويجد الإنسان نفسه كثير التبول، ويشعر بالعطش وجفاف الحلق مما يضطره لشرب كميات كبيرة من الماء لتعويض البول المفقود وهذا ما يعرف بمرض «البول السكري».

وقد اكتشف الدكتور أحمد ثروت الطبيب المرافق للرئيس عبدالناصر هذا الأمر في التحليلات المعملية الروتينية التي كانت تجرى للرئيس باستمرار، وقتها كان جمال عبد الناصر في الأربعين من عمره، وكان في قمة انتصاراته يعد معركة السويس عام ١٩٥٦، وبعد إعلان الوحدة مع سوريا وقيامه بالزيارة التاريخية إلى دمشق والتي استقبل فيها استقبالاً لم ولن يره أى زعيم آخر في أى بقعة من بقاع العالم، وفي أى حقبة من حقب التاريخ، وقد بلغ هذا الاستقبال مداً إلى الحد الذي حملت فيه الجماهير السورية السيارة التي كانت تقل عبدالناصر، وهو مشهد عاش طويلاً في فكره وذاكرته.. ورشح الفريق طبيب رفاعى كامل رئيس القسم الطبى للقوات الجوية والمسئول عن متابعة الحالة الصحية للمشير عبدالحكيم عامر الدكتور أنور المفتى أستاذ الأمراض الباطنية والسكر بالقصر العيني لمتابعة حالة الرئيس الصحية وضبط نسبة السكر في دمه، وبدأ الدكتور المفتى في بحث الأسباب التي أدت إلى إصابة الرئيس عبدالناصر بمرض السكر، ولم يجد أسباباً علمية وطبية واضحة، وربما أرجع الفريق الطبى المعالج للرئيس أسباب المرض إلى الوراثة.. ولم يكن والد عبدالناصر أو والدته من مرضى السكر، فقد مات الأب في ٣٠ سبتمبر عام ١٩٦٨، عن عمر يناهز الثمانين عاماً، وهو في حالة صحية جيدة إلى حد ما.. ولكن اكتشف أن أحد أعمام الرئيس عبدالناصر مصاب بمرض السكر، وأن عبدالناصر وأخيه الليثى كانا الوحيدين من بين أربعة أخوة أصيبا بالسكري.. ولم تنجح الأقراص المنشطة لغدة البنكرياس فى ضبط نسبة السكر، فمن الثابت علمياً أنه يصعب علاج مرض السكر بالأقراص لمن أصيبوا به دون سن الأربعين، فما كان من بد أمام الدكتور المفتى إلا باستخدام حقن الإنسولين فى محاولة للسيطرة على ارتفاع نسبة السكر.. وكان الدكتور أحمد ثروت يقوم بإعطاء الرئيس عبدالناصر حقنة

الإنسولين صباح كل يوم قبل الافطار، ونجح الدكتور أنور المفتي في ضبط نسبة السكر بالدم عند عبدالناصر، ومن أهم الملاحظات التي لاحظها على عبدالناصر أنه كان ملتزماً بتعليمات العلاج ولم يعانى من عدم التزام الرئيس بنظام غذائى معين خاص بمرض السكر، فقد كان عبدالناصر بطبيعته غير نهم ولا شره فى الطعام، وكانت أحب الأكلات إليه الجبنة البيضاء، القريش مع الخبز الناشف، وكان إفطاره عبارة عن الفول المدمس والخبز والجبنة البيضاء، وطعام الغذاء مكون من خضروات وقطعة صغيرة من اللحم إلى جانب الخبز والعشاء من الجبنة البيضاء والفاكهة واستمر الوضع هكذا قرابة العامين إلى أن جرت أحداث انفصال سوريا عن الوحدة مع مصر فى ٢٨ سبتمبر عام ١٩٦١، وشعر عبدالناصر بجرح الانفصال ينفذ إلى قلبه وروحه، وأن آمالا كثيرة قد تحطمت على صخرة هذا القرار السورى المنفرد، خاصة وأن سوريا هى التى سعت إلى هذه الوحدة مع مصر لتعالج كثيراً من المشاكل والصراعات التى كانت تتعرض لها فى هذا الوقت، وبالطبع ترك ذلك آثاراً نفسية سيئة لدى عبدالناصر ساعدت على تذبذب منحنى السكر.. وفكر المشير عبدالحكيم عامر فى استدعاء طبيب متخصص فى الأمراض النفسية من إحدى الدول الأوروبية ليخرج عبدالناصر من عزلته النفسية.. وحتى لا يتسرب هذا الخبر فقد رأى المشير عامر إحضار هذا الطبيب من إحدى الدول الصغيرة التى ليست لها اهتمامات أو قضايا خاصة مع مصر حتى لا يسهل تتبع هذه الأخبار من قبل أجهزة الخابرات الأمريكية والإسرائيلية، ووقع بالفعل الاختيار على طبيب نرويجى، وحسب كلام الدكتور رفاعى كامل للمؤرخ العسكرى جمال حماد فى أحد اللقاءات الصحفية، أن الرئيس عبدالناصر لم يكن يعلم تخصص الطبيب النرويجى، وأنه تم ترتيب عدة لقاءات له مع الرئيس، وبعدها كتب تقريراً مفصلاً وطويلاً عن حالة عبدالناصر النفسية، زعم فيه أنه مصاب «بالبارانويا» وهو مرض يتمسك المصاب به بأفكار خاطئة ضد المنطق وخارجة عن حدود العقل، ويصر على تنفيذها مهما كانت النتائج والعواقب وأنه يجب على الرئيس ان يقوم براحة تامة، وأن يبتعد عن إدارة شئون البلاد، وإصدار القرارات الهامة، وقد قرأ الدكتور أنور المفتي هذا التقرير ويقال أنه أدلى به لبعض زملائه من الأطباء مما أدى إلى تسرب أخبار زيارة الطبيب النرويجى، وتفاصيل تقريره، وهو ما كان متعلقاً بالأمن القومى المصرى.. وبعدها بفترة بسيطة مات الدكتور أنور المفتي، وقيل أنه مات مقتولاً بالسم الذى تم دسه فى أحد أكواب عصير الجوافة.. الذى شربه فى مكتب رئيس الخابرات.. ولكن هذه القصة ينفىها بشدة كثير من المحللين السياسيين والمؤرخين الذين تناولوا بالفحص والدرس حياة الرئيس جمال عبدالناصر، مستندين على عدة أسباب هامة يأتى فى مقدمتها أن إصابة الرئيس «بالبارانويا» لم يشير إليها أى مصدر من المصادر الأجنبية التى تناولت حياته، وأن الرئيس عندما شكوا من إتهاب حاد بالجيوب الأنفية قام بعلاجه الدكتور على المفتي شقيق الدكتور أنور المفتي، وليس من المعقول ولا البديهي أن يتم استدعاء شقيق طبيب تم قتله بالسم عقاباً له على إفشاء أسرار هامة تخص الرئيس، ليعالج الرئيس نفسه من شكوى

مرضية أخرى، وليس طبيعياً أن تصل سداجة أجهزة الخابرات إلى هذا الحد من البلاهة والتخلف في مسألة تأمين حياة الرئيس.. وسبب آخر يرجع إليه المخلون لإثبات ضعف حقيقة أن الرئيس كان مصاباً بالبارانوربا وهو أنه لم يحدث مطلقاً في قمة الصراع بين عبدالناصر وعبدالحكيم عامر أن الأخير قد استخدم تقرير الطبيب النرويجي، أو أشار إليه خاصة بعد سلسلة الاتهامات التي أحاطت بعبدالحكيم عامر بعد نكسة ١٩٦٧..

ولكن السبب الأخير لا يرقى من وجهة نظري الشخصية إلى مستوى الاعتداد به، إذ يمكن للرئيس عبدالناصر أن ينكر هذا التقرير تماماً خاصة وأن الاتجاه الشعبي والرأي العام كله كان ضد عبدالحكيم عامر الذي كان متهماً بالتقصير في إعداد القوة العسكرية المصرية لمثل هذه المواجهة التي نتجت عنها نكسة يونيو ٦٧، كما أنه لم يكن معتاداً أن يتداول القادة فيما بينهم من معارك شخصية الأسرار التي تمس كل منهم إذ أنها في النهاية ستعود على النظام كله بالوبال والسخط خاصة وأن الرئيس عبدالناصر كان رمزاً وزعيماً للثورة، التي كان المشير عامر أحد رجالها وقادتها..

وبعد ثلاثة شهور من وفاة الدكتور أنور المفتي استدعى الدكتور أحمد ثروت الطبيب المرافق للرئيس جمال عبدالناصر الأستاذ الدكتور منصور فايز أستاذ الأمراض الباطنية والسكر بالقصر العيني لمتابعة علاج الرئيس وحالته الصحية، والوقوف على أخبار منحنى السكر.. وكان الدكتور منصور يزور الرئيس من مرتين إلى ثلاثة في الأسبوع ما لم يتم استدعائه.. وحدث بعض التنظيم والتدقيق في متابعة التطور المرضي للرئيس عبدالناصر حيث ظل الدكتور أحمد ثروت مرافقاً للرئيس بصفة يومية، ويقوم باعطائه حقنة الإنسولين قبل الإفطار اليومي، ويقوم الدكتور صلاح جبر أخصائي التحاليل الطبية بعمل تحليل بول يومي لمتابعة تطورات السكر ومضاعفاته عند عبدالناصر.. ثم اتفق على أن يزور الدكتور ناصح أمين أستاذ التحاليل الطبية المعروف الرئيس عبدالناصر مرة كل أسبوع ليقوم بعمل تحليل شامل لوظائف أجهزة الجسم المختلفة.. وبذلك وضع الرئيس جمال عبدالناصر تحت السيطرة الطبية الكاملة..

ولكن المرض لم يترك وقتاً للراحة في حياة الزعيم الشائر جمال عبدالناصر، فقد اشتدت عليه أعراضه.. ودخل فصلاً جديداً وقاسياً من فصول المعاناة والألم.. خاصة بعد نكسة يونيو ٦٧ والتي شعر فيها بخيبة أمل شديدة وحالة من الإحباط العام الذي ساد الشارع المصري والعربي في ذلك الوقت، إلى الحد الذي رفض فيه الشعب المصري قرار عبدالناصر بالتنحي عن السلطة، وطالبه بتحمل المسؤولية وإعداد الجيش من جديد لمواجهة عسكرية حاسمة مع إسرائيل.. وقد أثر كل ذلك على الحالة الصحية للرئيس ففي ١٣ يوليو ١٩٦٧ شعر عبدالناصر لأول مرة بالألم شديدة في ساقه اليمنى إلى الحد الذي كان لا يستطيع معها أن يقف على ساقيه لفترات طويلة.. وظن الرئيس في البداية إنها نوع من الروماتيزم، وخضع

لعلاج مكثف من المسكنات، ومضادات الإلتهاب التي وصفها له الأطباء المصريون ولكن دون جدوى.. إلى أن تقرر استدعاء أحد الأطباء الأجانب المتخصصين لمناظرة الرئيس، ولكن الرئيس جمال عبدالناصر كان يضيق ذرعاً بالأطباء الأجانب، ويرى أنه من السهل عليهم تسريب أخبار مرضه إلى أجهزة المخابرات الأمريكية والإسرائيلية والتي يمكن أن يستغلوها لبث روح الإحباط في نفوس الشعب المصري حين يعرف أفراد الشعب أن رئيسهم الذي يعقدون عليه الآمال والأحلام مريضاً وضعيفاً.. ولكن آلام عبدالناصر جعلته يقتنع باستدعاء اثنين من الأطباء العالميين وهما الدانمركى بولسون والألماني الغربى فيشر، والإثنان من أفضل أخصائى علاج السكر ومضاعفاته فى العالم، وقد اتفقوا فى تشخيصهم مع آراء الأطباء المصريين وسياستهم العلاجية التى انتهجوها.. وكان من أبرز المهتمين بصحة الرئيس جمال عبدالناصر السفير حسن التهامى سفير مصر فى فيينا، والذى أرسل إلى الرئيس يؤكد ضرورة عرضه على طبيب نمساوى اسمه چيستر براند، وكان قد عالج الملك سعود من آلام شديدة فى الساقين.. ورغم معارضة عبدالناصر فى النهاية لنفس أسباب حساسيته من الأطباء الأجانب، فقد وافق على مضمض، وقام الدكتور منصور فايز بترتيب هذا اللقاء فى القاهرة وانتهى الدكتور چيستر إلى تشخيص مختلف تماماً عما توصل إليه الأطباء المصريون والأجانب من قبل، وهو أن أسباب آلام عبدالناصر تعود إلى التهاب شديد بالأعصاب كمضاعفات طبيعية لمرض السكر، وعلى الفور تم استدعاء أستاذ نرويجى وهو من أكبر أخصائى التهاب الأعصاب فى العالم لفحص عبدالناصر فى ضوء توصية النمساوى چيستر براند، ولكن المفاجأة كانت أكثر قسوة على الرئيس الذى كانت تطارده الآلام ليلاً ونهاراً بعد أن أكد له الأستاذ النرويجى أن الأعصاب سليمة وأنها بريئة من آلام الساقين التى تقلق راحته وتشتت تركيزه، وصار الأمر أكثر تعقيداً ولكن السفير حسن التهامى لم ييأس، وعاود الاتصال بعبدالناصر وأقنعه أن الملك سعود كان يتعرض لنفس الآلام التى تصيبه، وأن الفريق الطبى النمساوى هو الذى وضع حداً لشكوى الملك سعود الصحية، وأمام إصرار حسن التهامى طلب عبدالناصر من الدكتور منصور فايز أن يسافر بنفسه إلى فيينا ليدرس الأمر مع الأطباء المعالجين للملك سعود، وليضع حداً لما يتعرض إليه من معاناة وضغوط صحية.. ولكن لم تستطع كل هذه المحاولات أن توضع حداً أو نهاية لآلام الزعيم..

ومع بدايات عام ١٩٦٨، اقترب الرئيس عبدالناصر من الثانية والخمسين من عمره وتلاحظ عليه أنه كان يجر ساقبيه جراً إذا أقدم على السير لمسافات قصيرة أو طويلة، وفى هذه الفترة كانت حرب الاستنزاف على أشدها وإعادة ترتيب البيت العسكرى والقوة العسكرية المصرية هى الشغل الشاغل لعبدالناصر.. وكان لزاماً عليه أن يقوم بجولات كثيرة لزيارة الفرق العسكرية وكتائب الجنود ومواقع القتال فى ميدان المعركة.. وكانت آلام ساقيه المبرحة لاتفارق له ولكن جسارة عبدالناصر كانت أقوى من أى آلام.. وقوة احتماله فوق حدود

تصور العقل .. إلى أن جاء اليوم الذى شعر فيه عبدالناصر برصاصات من اللهب فى ساقه اليمنى .. وبالفعل بدأ يعجز عن السير .. وكان القرار الحاسم بالسفر إلى الاتحاد السوفييتى للعلاج ..

عبدالناصر يُعالج فى الاتحاد السوفييتى

كان عبدالناصر قد بدأ يشعر بالآلام حتى لدى الجلوس بلا حركة، وكانت الآلام فى باطن القدمين، ثم بدأت تظهر فى الفخذين أيضا مع شعور بالتنميل فى القدمين، وظهرت على الأصابع بوادر الفرغرينا وعلامات الأصابات فى البشرة وبدأت الاستعدادات للسفر إلى الاتحاد السوفييتى بعد أن تأكد الرئيس أنه لا بد وأن ينتقل للعلاج فى الخارج، حيث تتوفر إمكانات أدق وأكثر للتشخيص والعلاج السليم، ولم يكن عبدالناصر يميل بالقطع - كما ذكرت من قبل - إلى الأطباء الأمريكيين أو الأوروبين فى نفس الوقت الذى كانت تربطه بالاتحاد السوفييتى علاقات وثيقة وقوية .. ولذا تقرر السفر إلى الاتحاد السوفييتى ..

وفى يوليو ١٩٦٨، اتصل الرئيس السوفييتى بريجنيف برئيس الخبايا السوفيتية «كى. جى. بى» يورى أندروبوف يطلب منه التحدث مع وزير الصحة البروفسور يفجينى تشازوف كبير أطباء الكرملين وطبيب القلب العالمى ذائع الصيت لبحث علاج الرئيس جمال عبدالناصر فى الاتحاد السوفييتى مع المحافظة على إبقاء الأمر فى طى الكتمان، وعلى الفور تحدث أندروبوف مع البروفسور تشازوف ليطلب منه بحث علاج شخصية صديقه أصبحت فى وضع صحى مترد للغاية، ولم يذكر له حقيقة هذه الشخصية، أو يكشف الستار عنها، ولكنه ألمح له إلى وجود أورام بالمسالك البولية، وأن هناك وفد من الأطباء المعالجين لهذه الشخصية سيصل إلى موسكو عاجلاً لدراسة إمكانية علاجها فى الاتحاد السوفييتى . ولم تمر أيام قليلة حتى كان هناك اجتماعاً يضم كبار الأطباء المعالجين لعبدالناصر فى مصر والبروفسور تشازوف وزير الصحة والجراح السوفييتى «مايات» وأخصائى المسالك البولية «ابراميان» بالإضافة إلى أندروبوف وبعد خمس دقائق فقط تأكد أن الأمر لا يتعلق بأورام فى المسالك البولية وانسحب الطبيبان مايات وابراميان وبدأ الأطباء المصريون فى وصف الحالة المرضية والأعراض التى يشكو منها الرئيس عبدالناصر فى قدميه بالإضافة إلى أنه فقد أكثر من ١٥ كجم من وزنه وبدأ يجر ساقه أثناء سيره، وثبت معاناته من اختلال فسيولوجى فى تمثيل الشحوم والسكريات وأنه واصل على مدى أعوام طويلة وكثيرة تدخين أنواع من السجائر قوية المفعول مثل «كاميل» و«كرافن» و«كنت» و«إل. إم»، كما أكد الأطباء المصريون أنه لم تظهر على الرئيس بوادر الإصابة بقصور فى الشرايين التاجية بالقلب .

وبعد فترة بسيطة من فحص الملف الصحى للرئيس ثبت بالفعل كما ذكرت عدم الاشتباه فى وجود أى أورام، وإنما هناك احتمال قوى بأن الأعراض التى يشكو منها عبدالناصر تتفق مع أعراض الإصابة بتجلط الأوعية الدموية مع بدء اختلال الدورة الدموية فيها. . وطلب تشازوف أن يفحص الرئيس عبدالناصر بنفسه ولكن الأطباء المصريين رفضوا هذه الفكرة خوفاً من تسرب أى نبأ عن مرض الرئيس وأمام إصرار تشازوف، الذى صمم على فحص المريض بنفسه كان لابد من إبلاغ ذلك إلى الرئيس عبدالناصر شخصياً الذى وافق على الفور وطار فى رحلته العلاجية إلى موسكو وسط تكتم شديد بأخبار هذه الرحلة وأسبابها .

وفى صباح ٦ يوليو ١٩٦٨، كان لقاء يفجيني تشازوف كبير أطباء الكرملين مع الرئيس عبدالناصر الذى كان يافقه أنور السادات، وقد بدا الرئيس متعباً وعليلاً وليس فى وزنه الطبيعى ويقول تشازوف فى مذكراته: «أن عبدالناصر كان رجلاً بسيطاً ولكن هيئته غير عادية وبعد ١٥ دقيقة فقط من الجلوس معه والتحدث إليه عرفت أنه غير متكلف ويبدو كشخص عادى، وبدأ يشكو إلى تشازوف آلامه الفظيعة فى الساقين والفخذين التى كانت تعذبه طوال الساعات الخمس التى قضاها محلقاً فى الجو من القاهرة إلى موسكو وأنه تحمل الكثير على نفسه ليستطيع أن يتفقد بعض الوحدات العسكرية فى أرض المعركة، ولكنه لم يكن قادراً على المشى بصورة طبيعية، ورفض أن يتعلل بأى أسباب لينهى زيارته للوحدات العسكرية مبكراً حتى لا يشتبه أحد فى أنه مريض. . وشرح الرئيس عبدالناصر إلى تشازوف كيف كانت معاناته فى الطائرة إلى الحد الذى لم يجعله يناقش أى قضية مع ياسر عرفات الذى كان يطير إلى موسكو لأول مرة على طائرة عبدالناصر بهدف الاجتماع مع القادة السوفييت .

ويقول يفجيني تشازوف بعد أن فحص عبدالناصر فحوصاً إكلينيكية: «كان أول طلب أطلبه منه هو إمتناعه عن التدخين، فاستدعى مرافقه على الفور وأعطاه علبة السجائر التى كانت ملقاة على الطاولة والولاعة وأمره قائلًا: يجب ألا تبقى قريباً منى وتذكر أننى لا أدخن منذ اليوم، وقال لى: لو كان الأمر يتعلق بى فقط لتحملت لكن المسألة تمس مصر أيضاً» .

وتم عمل الفحوص والأبحاث والتحليل اللازمة، وتأكد بعد ظهور نتائجها أن هناك تجلطاً فى الأوعية الدموية فى الساقين، ونوقش الخيار الجراحى كعلاج سريع وحاسم لإزالة الجلطة، ولكن بعد مداوات الأطباء المصريون والسوفييت تأكدوا أن الجراحة لن تؤتى ثمارها لأن التجلط يشمل الأوعية الطرفية للساقين وأن التدخل الجراحى لن يعطى التأثير المطلوب وبقيت أمام الأطباء الأساليب العادية والتقليدية فى العلاج، وأجرى للرئيس عبدالناصر مزيداً من الأبحاث الطبية وفى نهاية المطاف تم الموافقة على أن تعالج جلطة الساقين باستخدام المياه المعدنية فى مدينة «سخالطوبو» بجورجيا التى اعطت فى بعض الحالات المماثلة تأثيراً طيباً، ووافق الرئيس جمال عبدالناصر على هذا الاقتراح ووعده تشازوف بأنه بعد عودته إلى

مصر سيبحث مع قيادة البلاد ومجلس الشعب مسألة الاستحمام ثم العودة إلى «سخالطوبو» للعلاج، وأمر الرئيس بريجينيف بأنه يجب عمل كل شئ من أجل استعادة صحة عبدالناصر، إذ لا توجد في الشرق الأوسط شخصية أخرى قادرة على أن ترحد العرب في مواجهة الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل، وإذا ما غادر عبدالناصر المسرح السياسي، فإن هذا سيسشكل ضربة كبيرة لمصالح الاتحاد السوفييتي والدول العربية مجتمعة.

وعاد عبدالناصر إلى مصر.. ومالبت أن قضى فترة بسيطة وبعدها توجه إلى «سخالطوبو» للعلاج بالمياه المعدنية.. وكان يقضى وقته إما في العلاج بالاستحمام في حوض كبير، يرجع وجوده إلى عهد ستالين أو بقضاء النزوات البسيطة في المكان المخصص لإقامته..

واحتفى به بريجينيف بما يليق بمكانة عبدالناصر وأهميته كزعيم عربي وقومي لدى الاتحاد السوفييتي، فكانت تقام له يوماً في مقر إقامته الحفلات الموسيقية الراقية وتقدم له أشهى الوجبات، كما كان يتردد على صالونه كبار الفنانين والمثقفين السوفييت، وحدث تقدم في حالته الصحية وشفى باستخدام حمامات الرادون، وتفتحت الأوعية الدموية في سيقانه، وكان هذا أمر مستحيلاً لإصابته بالسكر الذي يتسبب في تصلب الشرايين وتجلط الدم بداخلها.. وكان تشازوف يعلم أن تجلط الدم سيتواصل، وربما يصل إلى القلب والدماغ، لذا أعطى تعليماته المشددة للرئيس عبدالناصر بضرورة الالتزام بنظام غذائي معين والإبتعاد عن الإجهاد المفرط والهزات الانفعالية والعصبية.. واتفق تشازوف مع الرئيس على زيارة مصر بعد ٣ أشهر بحجة السياحة والاستحمام على رأس وفد طبي رفيع لتقييم الآثار اللاحقة للعلاج والوضع الصحي وارتباطه بأى تطورات مرضية جديدة، وإعطاء توجيهات بشأن مواصلة العلاج.. واقترح وزير الصحة السوفييتي على الرئيس أن يراقب حالته الصحية في القاهرة إلى جانب الأطباء المصريين طبيب سوفييتي يدعى «تولبين» الذي كان ينال ثقة الرئيس عبدالناصر، ولكن الرئيس رفض ذلك لأنه خشى أن يؤخذ ذلك على أنه عدم ثقة في الأطباء المصريين، وهذا غير صحيح وأنه يحترم كثيراً الذين يعالجوه في مصر.

الرئيس يمارس مهامه بعيداً عن نصائح تشازوف

عاد الرئيس جمال عبدالناصر إلى القاهرة، ولكنه لم يكن ملتزماً بتعاليم الفريق الطبي السوفييتي برئاسة تشازوف كبير أطباء الكرملين، والذي نصحه بالراحة وعدم الانخراط في الانفعالات.. ولكن عبدالناصر كان يحلم بتلقين إسرائيل درس عمرها، وكان يعد العدة العسكرية لمواجهة حاسمة يسترد بها الأراضي المحتلة في سيناء منذ نكسة ٦٧،

غير أنه كان يشعر أنه بدأ فى الوقوف على أقدامه وأنه قطع أشواطاً كبيرة على طريق الاستعداد لايجب أن تضيق بسبب مرض ، فلم يستطع أن يتمالك نفسه ، وبدأ يمارس نشاطه العادى دون حذر أو تروى إلى الحد الذى جعل الرئيس بريجينيف يتصل به من موسكو ليقول له : إن ما نراه على شاشات التليفزيون وما نسمعه من أخبار من خلال وكالات الأنباء لا يجعلنا نظمن على صحة عبدالناصر وحذره كثيراً من مغبة ذلك على حالته الصحية وقال له إن تشازوف قلق جداً عليك ... ، ولكن حماس الرئيس عبدالناصر للقضية كان أقوى من خوفه على حياته .. وسارت حياته كالمعتاد .. وأيضاً سارت الأوجاع فى طريقها المتوقع ..

وأول مرة أصيب فيها الرئيس بأزمة قلبية كانت بعد زيارة كان يقوم بها فى الثامنة صباح يوم ١٠ سبتمبر ١٩٦٩ لمشاهدة تدريب عملى لفرقة مدرعة حديثة التكوين ، انضمت مؤخراً إلى الخدمة ، ووصلت إليه الأخبار تقول إن الإسرائيليين قد قاموا بعمليات إنزال فى الشاطئ الغربى للقناة على شاطئ خليج السويس فى منطقة الزعفرانة ، وأنه تم إنزال ١٦ دبابة هاجمت نقطة خفر السواحل ، وقتلت خمسة من الجنود ودمرت عدداً من السيارات المدنية التى تصادف مرورها وقتلت بعض المدنيين ، وأسرت البعض الآخر ، ولم يستطع الرئيس عبدالناصر بعد سماع هذه الأخبار إكمال التدريب العسكري ، وأمر بإلغائه ، وطلب رفع حالة الاستعداد القصوى ، وعاد فوراً إلى القاهرة ، واتصل تليفونياً بالأستاذ هيكل يطلب منه أن يقرأ له ما نقلته وكالات الأنباء ، خاصة وأن إسرائيل قد حاولت أن تصور للمراسلين الصحفيين الذين صحبتهم فى العمليات العسكرية أن الأمر كما لو كان غزواً لمصر لدرجة أن بعض برقيات هذه الوكالات كانت تبدأ بعبارة «مصر المحتلة» .. وجن جنون عبدالناصر الذى كان يرى أن المعلومات التى يحصل عليها من وكالات الأنباء العالمية كانت أخطر وأكثر من المعلومات التى كانت تنقلها إليه الخبايا المصرية ، وبعد قليل شعر بآلام فى صدره ، أشبه بطعنات السكين فاستدعى طبيبه الخاص الدكتور الصاوى حبيب الذى كان قد تسلم عمله كطبيب مرافق للرئيس بعد مرض الدكتور أحمد ثروت الذى منعه عن مرافقة عبد الناصر .. وقام الدكتور الصاوى بالكشف الطبى ، وأحس أن الرئيس يواجه حالة غير عادية فاتصل على الفور بالدكتور منصور فايز الذى أجرى له عدة رسوم للقلب وأكد بعدها إصابة عبدالناصر بجلطة بالشريان التاجى بالقلب ، وفى نفس الوقت كان الدكتور ناصح أمين أستاذ التحاليل الطبية المعروف قد وصل إلى منزل الرئيس وقام بإجراء التحاليل التى أكدت الإصابة بجلطة القلب .

وبدا لأول مرة الخوف والقلق على عبدالناصر الذى سأل الدكتور منصور فايز قائلاً :
إيه الحكاية؟ . ورد عليه : أبداً شوية تقلصات فى الشرايين بسبب الإرهاق ولازم الراحة .. فقال عبد الناصر منزحاً : يعنى إيه راحة؟ ورد عليه الدكتور منصور : مش لمدة طويلة وبإذن الله ينتهى كل شىء بأمان .. وطلب الدكتور منصور استدعاء أحد أساتذة القلب بجامعة

القاهرة ولكن الرئيس نظر إليه بطريقة قاطعة وهو ساخطاً وقال له: كلام إيه اللي بتقوله؟! أنا مش عساوز حد يعرف حكاية القلب دى أبداً.. أنا بأقول كدة علشان معركتنا مع إسرائيل.. ورد الدكتور منصور بأنه يقدر كل شىء، ومع اكتشاف الأطباء وجود احتشاء فى عضلة قلب عبد الناصر واضطراب بضربات القلب، كان لابد أن يصاحب ذلك تصرف فوري للسيطرة على جلطة القلب ومضاعفاتها.. واجتمعت أسرة الرئيس عبدالناصر والسادات وشعراوى جمعة والفريق محمد فوزى، واستقر رأى على تشكيل لجنة طبية عليا لإبعاد المسئولية، وبالفعل تم تشكيل هيئة طبية موسعة ضمت أطباء الرئيس إلى جانب الدكتور زكى الرملى أستاذ أمراض القلب بجامعة القاهرة والدكتور محمود صلاح الدين إخصائى القلب وكان لابد من استدعاء «تشاروف» الذى يثق فيه عبد الناصر كثيراً ولكن بطريقة سرية حتى لا يستغل الإسرائيليون ذلك للتشكيك فى قدرة عبد الناصر كقائد للبلاد.

وفى الساعة ٨،٣٠ صباح اليوم التالى كان الوزير «تشاروف» جالساً فى مكتبه حين حدثه بريجينيف، وطلب منه الذهاب إلى القاهرة لأن عبدالناصر يمر بحالة صحية حرجية، ولا بد من التصرف بحذر شديد والحفاظة على سرية المهمة، ويقول تشاروف فى مذكراته عن هذه المهمة:

«كانت هناك رحلة طيران إلى القاهرة ستقوم الساعة ١٢ ظهراً ولن نضمن طي الكتمان إذا قمنا برحلة خاصة، ونحن نعلم أن المخابرات الصهيونية لها نشاط ملحوظ فى القاهرة هذه الأيام، وحين تهبط الطائرة الخاصة ستكون موضع الشكوك.. وبالفعل طرت إلى القاهرة فى رحلة ١٢ ظهراً ونصحنى أندروبوف بأن أضع نظارة سوداء وقبعة على رأسى عند هبوطى من الطائرة فى مطار القاهرة حتى لايتعرف على أحد فى حالة التقاط صورة لى وشعرت بأننى مقدم على دور البطولة فى فيلم من أفلام جيمس بوند، وحينما وصلت إلى المطار أحاط بى رجال عبدالناصر، ووجدت نفسى فى سيارة تقلنى إلى فندق شبرد حيث دخلته من الباب الخلفى، وطلب منى رجال المخابرات أن أبقى فى جناحى الخاص ولا أقوم بأى اتصالات ولا استقبال زواراً، وبعد ٢٠ دقيقة فقط جاء سكرتير عبدالناصر الخاص واصطحبنى إليه».

ووصل «تشاروف» إلى بيت عبدالناصر، واستقبلته زوجته ورجالها، وفور وصوله انفردت به السيدة «تحية» زوجة الرئيس وطلبت منه أن يقنع الرئيس بضرورة الاستجمام والراحة، لمدة شهر على الأقل.. وعندما دخل «تشاروف» لعبد الناصر ورآه سارع بالاعتذار له عن استدعائه، وابتسم فى وجهه ببشاشة ولكن هذه التحية البشوشة، كانت تكسوها الرهبة، والقلق ونوع من الخوف، واكتشف تشاروف بمجرد كشفه على الرئيس أن الاحتشاء بعضلة القلب متوسط.. ولكن عبد الناصر كان قلقاً وعيناه زائغتين وتساءل: ماذا سيقول لى تشاروف عن المستقبل؟ ولكن الطبيب السوفيتى الشهير طمانه وسأله الرئيس: متى يمكن

التطلع إلى المستقبل باطمئنان نهائياً؟ .. فأجابه: بعد ١٠ أيام، فقال عبدالناصر له «لقد بدأت أقف على أقدامى وقمت بتعزيز قدراتي الدفاعية وبنيت جيشاً قوياً وقد يؤدي غيابي لفترة طويلة إلى إبعاد الجهود وإضعافها»، وكان مقرراً أن يدخل الرئيس في إجازة إجبارية لمدة ستة أسابيع ولكن أمام إصراره اختصرت إلى أسبوعين.. وتقرر إعلان أن الرئيس مصاب، بإنفلونزا حادة، وكانت منتشرة في ذلك الوقت.

وتم تكثيف الرعاية الطبية الكاملة للرئيس عبدالناصر، وإعداد الترتيبات والاستعدادات اللازمة لمواجهة أى أحداث صحية طارئة قد تدق ناقوس الخطر في أى وقت.. وعاد الدكتور منصور فايز وفريقه الطبي لمتابعة الرئيس متابعة كاملة ودقيقة، وأشرك الدكتور منصور معه الدكتور على البدرى فى ضبط منحنى السكر لدى الرئيس وكان الدكتور البدرى واحداً من المشهود لهم فى علاج السكر ومضاعفاته، وفى إحدى المرات اقترح الدكتور على البدرى على الرئيس جمال عبد الناصر تجربة دواء جديد، كان يتابع نجاح تأثيره ونتائجه المتقدمة على الحيوانات، وفى محاولة من الدكتور البدرى لتشجيع عبدالناصر على تناول هذا الدواء الجيد قال له بعفوية شديدة: يا سيادة الرئيس كل الكلاب اللى استخدمت الدواء ده نفع معاها وحالتها اتمسنت كثير!!.. ولم يفطن الدكتور البدرى إلى ما قاله إلا بعد أن وجد عبد الناصر ينفجر ضاحكاً ويستغرق طويلاً فى الضحك ويقول له: خليك أنت يا بدرى فى كلابك وسيبنى مع الدكتور منصور.

وكانت هناك سيارة إسعاف رابطة أمام منزل عبدالناصر، وتم تجهيزها بكافة المعدات والأجهزة الطبية اللازمة للتعامل مع أى أحداث طارئة على صحة الرئيس وكان يتناوب عليها اثنان من أطباء رئاسة الجمهورية يومياً وكانوا مدرّبين تدريباً عالياً على التعامل مع الطوارئ والحالات الحرجة، وكانت هذه السيارة تتابع الرئيس فى كل تحركاته، وتسير خلف موكبه بصفة دائمة، كما تم تجهيز وحدة أكسجين متنقلة ترافق سيارة الإسعاف خاصة بعد أن اكتشف الدكتور منصور فايز أن الرئة اليمنى لعبدالناصر قد بدأت تتأثر بشدة ولا تؤدى وظيفتها كما يجب أن يكون.

وفى أواخر عام ١٩٧٠ أصيب عبدالناصر باحتشاء جديد فى عضلة القلب نتيجة جهوده المضنية فى ضم العرب بعد أن أحل الصراع بين الملك حسين والفلسطينيين بميزان التضامن العربى، ويقول تشازوف عن هذا الحدث: «أدركت أن حياته المتوترة، لا تناسب رجالاً شديداً المرض مثله، مصاباً بجلطات متفرقة فى الأوعية الدموية وشرابين القلب التاجية». وأودعه نوبات من احتشاء القلب ويقال فى بلادنا: إن الرجل قد احترق.

وفاته محمد الناصر واحتمالات إنقاذه

وفي ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ تان الرئيس عبد الناصر يقرم بتوديع أمير الكويت في مطار القاهرة بعد انتهاء أعمال القمة الربية.. وقام بمصافحة أمير الكويت وعساقه ولكنسه شعر بوخذ شديد في قلبه جعله يستند بأرعاة اليسرى على كتف الأمير.. ثم تبع ذلك سقوط العرق بغزارة من جميع مسام جسده.. وبدأ يشعر بنبضات قلبه تتلاحق في سرعة غريبة.. وكان عبد الناصر قد أجهده نفسه بشدة في أعمال القمة العربية حتى يستطيع أن يحل الخلافات بين الأتقاء، ويزيل الغيوم من على الأحداث والمواقف العربية.. ولم يحتمل الرئيس أن يقف دقيقة واحدة بعد أن قام بتوديع أمير الكويت وطلب أن تأتي السيارة له في مكانه، واستقلها فوراً إلى منزله، حيث تم استدعاء كل أطبائه، وكان بادياً وواضحاً أن هذه المرة ليست مثل كل مرة، فقد كان عبد الناصر يصرخ من آلام القلب ووخزاته الشديدة التي كان يشعر بصداها في زراعه الأيسر ورفته وفكه السفلى، وعلى الفور وصل الدكتور منصور فايز والدكتور زكي الرملى وكافة أطباء الرئاسة إلى منزل الرئيس عبد الناصر الذى كان في حالة احتضار شديدة، نتيجة احتشاء جديد في عضلة القلب بعتمده أنه ناتج عن انسداد في الشريان التاجى الرئيسى الأيسر، وإصابته بجلطة حادة، وحدث ارتباك بين الأطباء المعالجين للرئيس الذى كان يبدو عليه أنه مهتم ومنشغل بشىء هام فى نفس الوقت الذى بدأت فيه روحه تفيض إلى خالقها.. وهنا قال له طبيبه المرافق الدكتور الصاوى حبيب: «إن شاء الله هستريح يا ريس» فمد عبد الناصر، يده فى بظء إلى المذيع الموجود بجوار فراشه واستمع لنشرة الأخبار، وعندما انتهى من سماعها قال: أنا استريحت دلوقتى.. وكانت آخر كلمات ينطقها.. فقد فاضت روحه الكريمة إلى خالقها..

وبعد وفاة عبد الناصر أثير جدلاً كبيراً حول وفاته وحالته الصحية واحتمالات إنقاذه فى احتضاره الأخير.. وقد قيل مثلاً أن الرئيس عبد الناصر مات مسموماً عند طريق دهان جسده بمراهم سامة عندما كان على العطفى عميد معهد العلاج الطبيعى والجاسوس الإسرائيلى الذى اتهم بعد ذلك فى قضية تخابر على مصر، يقوم بعمل العلاج الطبيعى للرئيس بعد عودته من سخالطوبو من الاتحاد السوفىيتى، وأن هذه المراهم كانت تعمل على تجلط الدم فى الأوعية الدموية والشرايين لدى عبد الناصر، ولكن هذه القضية لم يتم تأكيدها إلى يومنا هذا، وإن كانت أوساط الخللبيين تتناولها بصفة مستمرة، ولكن ينبغى هنا الإشارة إلى أن الرئيس عبد الناصر لم يكن محتاجاً لأى مسببات لتحت دمايه على التجلط فقد كان مريضاً بالسكر فى درجة متقدمة ويعانى من «السكر البرونزى أو المعدنى» وفيه تحدث تغيرات جلدية شديدة فى لون البشرة وترسب لكميات من الحديد فى كبد المريض بالإضافة إلى مضاعفات أخرى تناسلية وعصبية.. والمعروف علمياً أن مريض السكر يكون أكثر عرضة من غيره للإصابة بتجلطات الأوعية الدموية، وخاصة شرايين القلب التاجية

وبالتحديد إذا بدأ في مرحلة مبكرة من العمر، بالإضافة إلى أن الرئيس عبدالناصر كان ينطبق عليه الكثير من عوامل الخطورة التي تنذر بحدوث جلطات القلب، فهو مريض بالسكر، وكان يدخن أكثر من ٥٠ سيجارة يومياً وحياته مليئة بالانفعالات والتوترات بالإضافة إلى أن جلطات القلب تنتشر في الذكور أكثر منها في الإناث.. ولذلك كان طبيعياً وعادياً جداً أن يصاب عبدالناصر بأكثر من جلطة في أوعيته الدموية وشرايين القلب التاجية.

ولكن الذى أثار الجدل أيضاً هو مدار حول أن الرئيس عبدالناصر كان يمكن إنقاذه وأنه حدثت بعض الأخطاء من أطبائه ومعاونيه يمكن أن تكون قد أودت بحياته إلى الحد الذى اتهم فيه البعض طبيبه المرافق الدكتور الصاوى حبيب بتأخره فى إنقاذ الرئيس وعدم استدعائه للطبيب المختص فى التعامل مع الطوارئ والحالات الحرجة، والذى كان مرابطاً فى سيارة الإسعاف أمام منزل الرئيس باستمرار، مما اضطر الدكتور الصاوى إلى الاحتكام إلى القضاء حتى يصدر قراراً وحكماً قضائياً بعدم مسؤليته عن وفاة عبدالناصر وبالفعل استصدر هذا الحكم ليسجله فى التاريخ ويبرئ طبيباً مخلصاً أمضى فترات طويلة فى خدمة عبدالناصر.. ورعايته الصحية.

وقد حكى الأستاذ الدكتور حمدى السيد نقيب أطباء مصر وجراح القلب الشهير، ذكرياته عن وفاة عبدالناصر، وأدلى بدلوه فى هذا الأمر فى حديثه المنشور فى مجلة آخر ساعة فى يوم ٧ يونيو ٢٠٠٠ حين أكد أن عبدالناصر لم يمى مقتولاً، ولكنه لم يأخذ الفرصة كاملة لإسعافه وعلاجه، وقال: إنه تم استدعاه بعد ساعة كاملة من وفاة الرئيس نتيجة لاتصال هاتفى به من سكرتير عبد الناصر الخاص، ولما ذهب إلى منزل عبدالناصر وجد الدكتور منصور فايز والدكتور زكى الرملى والدكتور الصاوى حبيب وحشد آخر من أطباء الرئاسة، وأنهم وقفوا مكتوفى الأيدى وفى حالة ذهول شديد.. وأكد الدكتور حمدى السيد أن كل هؤلاء من الأطباء المخلصين لعبدالناصر، وأن وفاته أحدثت لهم صدمة شديدة إلى الحد الذى ذهب عن أذهانهم استدعاء الطبيب المرابط فى سيارة الإسعاف بجهاز الصدمات الكهربائية، لأنه من المعروف طبياً أن النوبة القلبية قد تهدد صاحبها بالوفاة وأن ٢٠٪ يموتون بسبب اختلال فى كهرباء القلب، ولكن لو تم إسعاف المريض فى نفس اللحظة بوسائل الإنعاش وهى التنفس الصناعى والتدليك وإعطاءه صعقة كهربائية لأمكن إعادة النبض إلى القلب واستمرار الحياة، وهذا ما لم يحدث مع عبدالناصر بسبب حالة الارتباك التى سادت الجو العام فى منزله وقت الوفاة، وعدم التصديق بأن عبدالناصر يحتضر وإصابة الجميع بحالة من الذهول والتجهم نتيجة جهم الشديد وإخلاصهم لعبدالناصر وإحساسهم بأن موته هو موت لهم بل موت لآمال كثيرة للشعب المصرى.

ولكن لكل أجل كتاب ..

ومن خلال بحثي المضني وإطلاعي على كثير من الأمور المتعلقة بقضية مرض وعلاج الرئيس عبد الناصر خلال رحلتي في تأليف هذا الكتاب، أستطيع أن أؤكد أن كل الأطباء المصريين الذي شكلوا الفريق الطبي الذي أشرف على علاج الرئيس منذ بداية مهمتهم وحتى وفاته كانوا من الأطباء النبهاء العظام، المخلصين لمصر ولعبد الناصر وأنهم تحملوا مسؤولية ضخمة على عاتقهم، إذ أن قراراتهم لا تخص مريضاً عادياً ولكنها تخص زعيم تاريخي بحجم وثقل عبد الناصر وسوف يتوقف عندهم التاريخ كثيراً وطويلاً نظراً لأنهم كانوا أبطالاً في المهمة وعظماً في الأمانة ورجالاً في المسؤولية.

قرارات عبد الناصر ورحلة المرض

قبل أن أخوض في التحليل الطبي لقرارات عبد الناصر أثناء رحلة المرض، وجدت نفسي أتوقف كثيراً أمام العبارات التي انطلقت على لسان الزعيم الراحل والتي لها دلالات قوية ومؤثرة قد تفيد في الإجابة عن التساؤل الهام الذي يدور في الأذهان وهو: هل قرارات الرئيس عبد الناصر تأثرت برحلة مرضه؟

يقول يفجينى تشازوف في مذكراته: «بعد أن اتممت الكشف على الرئيس عبد الناصر فور استدعائي من الاتحاد السوفييتي وأخبرته أنه مصاب باحتشاء متوسط في عضلة القلب، سألتني بنوع من الخوف من المستقبل: متي يمكن أن أطمئن نهائياً.. لقد بدأت أقف على أقدامى وأعزز قدراتي الدفاعية وابني جيشاً جديداً، وسيؤدي غيابي إلى إبعاد الجهود وإضعافها؟»

ويستكمل تشازوف: «حينما طلبت من عبد الناصر الالتزام بمجموعة من التعليمات الهامة قال لي: حين أنفذ هذه التوصيات سيكون من الصعب على البقاء في منصب الرئيس بينما أنا أريد أن أبقى فلا يمكنني أن أترك شعبي ببساطة وهو في محنة.»

ويذكر الدكتور عبد الوهاب البرلسي وزير التعليم العالي في عهد عبد الناصر أنه في مستهل سنة ١٩٧٠ ذهب إلى الرئيس في منزله ليعرض عليه بعض الأمور العاجلة التي تستوجب موافقته في اجتماع مجلس الوزراء في اليوم التالي بصفته رئيساً لمجلس الوزراء ورئيساً للجمهورية، وعرض عليه إنشاء صندوق لكل جامعة تكون حصيلته من دخل بيع أنقاض مباني الجامعة الأيلة للسقوط وينفق منه على المنشآت الجامعية الجديدة، تخفيفاً على الموازنة العامة، ووافق الرئيس وانتظر وزير التعليم أن يطلب منه الرئيس عرض الأمر عليه في اجتماع مجلس الوزراء في اليوم التالي، ولكن عبد الناصر نظر إليه نظرة تحدى وثبات وكان المرض قد تمكن منه تمكناً شديداً وقال: بكره ليه.. هو حد عارف إيه هيحصل بكره؟ معاك قلم.. ووقع عبد الناصر على قرارات الصندوق.

وفى سبتمبر عام ١٩٦٦ طلب الرئيس عبدالناصر من وزير الأوقاف الدكتور أحمد خليفة أن يسرع فى بناء مسجده فوراً والذي دُفن فيه بعد ذلك وكان يقول له : خلص يا أحمد خللى الناس تصلى !! .

ويذكر الأستاذ محمد حسنين هيكل أن عبدالناصر كان يعرف أنه لن يعيش طويلاً، وأن أول مرة سمعه يعبر فيها عن هذا الشعور كان أثناء المرور بأزمة كبيرة من الأزمات الشديدة التي كان يمر بها واحدة بعد واحدة، حين سأله الأستاذ هيكل : «هل ستتاح لنا الفرصة يوماً لكي نجلس ونكتب معاً قصة ما حدث وحقيقته»... فرد ببساطة : سوف تكتبها وحدك.. فما أظن أن العمر سيطول بى !! ولما سأله هيكل : لماذا تقول ذلك ؟ كان رده : لنكن عمليين .. فالذى يعيش نوع الحياة التي أعيشها إذا طال به الزمن فسوف يخرف فى إشارة إلى المرض والعجز .

وأجدنى هنا أقف أمام نقطة هامة جداً فى تحليلي لقرارات الرئيس عبد الناصر، والذي استند فيه إلى ظروفه الصحية .. وحالته المرضية التي كانت تسوء يوماً بعد يوم، وهذه النقطة هى أن قرارات الزعماء فى فترة المرض تنبع من خلفيتين أساسيتين الأولى : الخلفية النفسية لشخصية الزعيم والتي تكون مصاحبة لسوء الحالة الصحية .. والثانية : القرارات التي تصدر من عقل فى جسد مريض .. تشكو أعضائه من الفشل فى أداء وظائفها الحيوية والتي تؤثر بالطبع على قوة الإدراك والفهم واتخاذ القرار .

وأعتقد أن الحالة الثانية لا تتكرر كثيراً لأن الشعوب وحكومات الدول لن تترك الرؤساء على مقاعد الحكم إذا ما وصل بهم المرض للهديان والتخريف وفقد السيطرة على التصرفات .. وقد رأينا ذلك مع الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة الذي عزله رئيس وزرائه زين العابدين بن علي وتولى مقاليد الحكم بموافقة الشعب ومجلس النواب التونسي حينما وصل الحبيب بورقيبة إلى مرحلة لم يكن يعرف فيها أفراد أسرته .

أما النقطة الأولى فهي التي تشيع ولا يسهل كشفها لأن الحالة النفسية تكون أمراً خافياً عن الأنظار ولا تستطيع أن تدركه الأبصار أو تسجله التحليلات، وهذا ما حدث فعلاً مع الرئيس جمال عبدالناصر .. وكان لابد أن أسرد تاريخه المرضى إلى القارئ، كى يستطيع أن يعيش معنى الحالة النفسية التي كان عليها عبدالناصر وهو يمر برحلة مرضه أثناء توليه مقاليد الحكم، والثابت من العبارات التي ذكرتها سالفاً على لسان عبدالناصر، والتي قالها لتشارزوف والبرلسي والدكتور خليفة وهيكل فى مواقف مختلفة أن المرض وسوء الحالة الصحية للرئيس وتطورها إلى الأسوأ يوماً بعد يوم قد جعله يشعر بأنه قصير الأجل وهو ما ذكره صراحة إلى الأستاذ هيكل .. أو على الأقل فإن المرض سيصل به إلى مرحلة من الشيخوخة ستجعله يعتزل الحكم والعمل السياسى، مع أنه كان يستبعد ذلك ويتوقع الموت .. وهذا انعكس بالفعل على قراراته خاصة بعد أن أصيب بالجلطة الأولى فى القلب

وطلب منه تشاروف أن يعمل فقط خمسة ساعات في اليوم وخمسة أيام في الأسبوع، وثلاثة أسابيع في الشهر وثلاثة أشهر كل أربعة أشهر فشعر عبدالناصر بأن المرض وحش كاسر يطارده ولا يجب أن يلحق به، فخلق ذلك لديه على ما اعتقد.. نوعاً من الحالة النفسية المتصلة بقوة العزيمة ورباطة الجأش وهذا ما يفسر السبب الحقيقي الذي جعل عبدالناصر يحاول تحقيق الكثير من المنجزات في أقل فسحة زمنية ممكنة.. والدلائل على هذا كثيرة وموجودة.. فقد أعاد عبدالناصر بناء جزء كبير من قوته العسكرية في خلال فترة وجيزة بدأت من نهاية عام ١٩٦٧ وحتى منتصف عام ١٩٧٠، وسنعرف حجم الإنجاز إذا عرفنا أن خسائر القوات المسلحة المصرية بعد نكسة ١٩٦٧، قد بلغت مليارات الدولارات بخلاف الخسائر البشرية والمدنية.. كما أنه بدأ حرب الاستنزاف فوراً بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ وفتحها قيل إن عبدالناصر يقطع من اللحم الحى، وعبدالناصر قام بتعديل الكثير من القوانين التي تهدف إلى الصالح العام.. وأرسى الكثير من المؤسسات والجامعات والمصانع في أوقات قياسية.. يسابق بها الزمن.. وكل هذا معناه الوحيد أن هناك إحساساً داخلياً لديه يجعله متعجل الأحداث لأنه كان يخشى أن يترك مصر في محنة من بعده.

وعندما تقدمت أيضاً الحالة المرضية للرئيس.. كان لزاماً عليه أن يمارس مهامه الرئاسية لفترات طويلة من منزله وهذا ما استدعاه إلى اتخاذ قرار بتعيين ابنته الكبرى هدى عبدالناصر سكرتيرة له.. تدير شئون والدها من غرفة بجانب غرفة نوم الرئيس.. وكانت هدى عبدالناصر تقوم بقراءة كل الأوراق والملفات المطلوب عرضها على عبدالناصر.. وتعرض عليه فقط أهمها وأكثرها سرعة في اتخاذ القرار.. بينما كانت تعرض الأشياء الأقل أهمية على أشخاص آخرين يثق فيهم عبدالناصر مثل أنور السادات، ويعتبر قرار الرئيس عبدالناصر بتعيين ابنته سكرتيرة له.. قرار خاص جداً ومن النادر تكراره في أى دولة من دول العالم.. وهذا الأمر كان غريباً لأن عبد الناصر كان يفضل أن ينأى بأولاده عن الاشتراك في الحياة العامة أو السياسية، ولكن مبرره القوي في هذا الأمر أنه كان يحتاج لسكرتير له يرافقه حتى باب غرفة نومه ليرفع عنه أعباء كثيرة وصعبة ولم يكن هذا ليتوفر إلا في ابنته هدى وبالطبع هذا القرار له جذوره المرتبطة بمرض الرئيس عبد الناصر.

ومن القرارات الهامة التي أصدرها عبدالناصر وتسبب فيها مرضه.. هو تكليف أنور السادات بتشكيل لجنة لإدارة شئون البلاد عندما اشتد عليه المرض ونصحته طبيبه السوفييتي بالراحة وبأجازات إجبارية متكررة.. على أن يكون أنور السادات همزة الوصل بين عبدالناصر وهذه اللجنة ولم يكن السادات قد أصبح نائباً للرئيس في ذلك الوقت.. وهذا القرار أيضاً له دوافعه النفسية التي ارتبطت بمدى رسوخ فكرة المرض في ذهن وعقل جمال عبد الناصر، وقد كان هذا الأمر خطيراً.. لأنه في حالة وفاة الرئيس في أى وقت سينشأ صراعاً شديداً على السلطة خاصة لو أن هذه اللجنة كانت تضم أشخاصاً من ذوى النفوذ من خارج مجلس قيادة الثورة.. بالإضافة إلى أعضاء مجلس قيادة الثورة الذي كان هناك أصلاً

خلاف دائم بينهم .

ولا شك أن ترك عبدالناصر كثيراً من الأمور في السنوات الأخيرة له في أيدي أعضاء مجلس قيادة الثورة بعد رغبته في الاستجمام والراحة بعض الشيء .. كان له بعض الأثر السيئ على الأجدات العامة إلى الحد الذي نشأت معه سلبيات كثيرة مازالت تحسب على عصر عبد الناصر حتى الآن ومن أمثلة هذه السلبيات كما يقول الأستاذ هيكل هو ترك إدارة المعركة عام ١٩٦٧ إلى المشير عبد الحكيم عامر الذي كان غير مؤهل علمياً لقيادة المعركة لتوقف خبرته العسكرية عند رتبة الرائد وتحوله بعد ذلك للعمل السياسي .

ويجب الإشارة إلى أن الأعراض المضنية التي كان يعاني منها عبدالناصر كانت كفيلة بأن تجعله في حالة توتر بصفة دائمة، ففي السنوات الأخيرة كان عبد الناصر كتلة من التوتر والانفعال المستمر، نتيجة إصابته بكل الأمراض التي تناولناها بالعرض والشرح الدقيق .. فمرض السكر له تأثيراته على الجهاز العصبي للإنسان، بالإضافة إلى آلام الجلطات المنتشرة في سيقان عبدالناصر، ونوبات احتشاء القلب التي كانت تعاوده من حين لآخر كانت تسبب له نوعاً من الاضطرابات والمعاناة .. وهذا بالطبع كان ينعكس على سرعة اتخاذه للكثير من القرارات بعد أن كان قراره ذكياً ومدروساً .. ولنا أن نتصور كيف كان عبدالناصر شديد المعاناة أثناء تنفسه .. فكان يشعر بأن الهواء يدخل في رئتيه بصعوبة خاصة بعد أن تأثرت رئته اليمنى وأصبح معدل الأكسجين في تذبذب مستمر .. وكل هذه العوامل بالتأكيد تخلق نوعاً من الضيق والتوتر خاصة إذا كان المريض شخصاً يحمل على كتفه أعباء أمة بأكملها .

وفي أواخر عام ١٩٦٩ قرر عبد الناصر تعيين محمد أنور السادات نائباً لرئيس الجمهورية، وفي إعتقادي أن هذا هو أخطر القرارات على الإطلاق والتي أصدرها عبد الناصر متأثر بنسبة كبيرة بأحواله وظروفه المرضية وحتى يتحمل السادات جزء من الأعباء التي كانت ملقاه على عاتق الرئيس .. وحتى يتبين لنا كم كان هذا القرار خطيراً علينا أن نجيب على سؤال هام .. هل كان من السهل على أنور السادات أن يصبح رئيساً للجمهورية لو مات عبدالناصر ولم يعينه نائباً له ؟ .

أغلب الظن أن الأمر كان سيصبح صعباً للغاية إذ أن وضع السادات كنائب للرئيس جعله يسيطر سريعاً على مقاليد السلطة بعد وفاة عبدالناصر مما نزع فتيل الصراع على السلطة ولو من وراء القلوب وهنا .. أسأل سؤالاً آخر .. ماذا لو لم يصبح السادات رئيساً لمصر ؟! ويدفعني هذا لسؤال آخر .. ماذا عن حرب أكتوبر بدون أنور السادات ؟ .

من أجل كل هذا .. أؤكد .. أن واحداً من أخطر قرارات الزعيم عبد الناصر اتخاذه متأثراً بمرضه وإحساسه الدائم بدنو أجله ؟ .. وهذا القرار قد غير وجه مصر كثيراً بعد ذلك .. وأعاد إليها الكرامة المسلوقة .. وسد الجروح النافذة على قلبها !! .

حقاً لحظات الضعف .. تصنع أحياناً القوة وكم من أمراض .. تصنع القرارات .

فرانكلين روزفلت

« الإرادة ترحف على بطنها »

اتفق كل المؤرخين والسياسيين على أن الرئيس الأمريكي الثاني والثلاثين فرانكلين ديلاانو روزفلت هو واحد من أعظم ثلاثة رؤساء في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية والآخران هما جورج واشنطن وإبراهام لينكولن، وبالرغم من هذا المجد التاريخي الذي حظى به فرانكلين روزفلت إلا أنه أكثر رئيس أمريكي نال حب شعبه في القرن العشرين، وفي نفس الوقت فهو أكثر رئيس تعرض للكراهية والحقد والاضطهاد في ذات الوقت.

وقد ولد فرانكلين روزفلت في عام ١٨٨٢ بقرية كان اسمها سبرنج وود والمعروفة الآن بهايد بارك وهي ضيعة تطل على نهر هارسون بولاية نيويورك بالولايات المتحدة الأمريكية وفي فترة الطفولة والمراهقة تلقى العلم ما بين المنزل ومدرسة جرتون حتى سن الرابعة عشر ثم درس بجامعة هارفارد وتخرج منها عام ١٩٠٤ ثم التحق بجامعة كولومبيا ليدرس القانون وانضم لنقابة المحامين في نيويورك عام ١٩٠٧ وانتظم في المحاماة وعمل في عدة مكاتب لمشاهير المحامين ثم اشترك بعد ذلك مع زميل له في إدارة مكتب قضائي.

والمعروف عن روزفلت أنه كان نبيلاً بالوراثة وأنيقاً، ومع ذلك فقد تمسك للبسطاء وآمن بهم، وناضل من أجل الدفاع عن حقوق الطبقات الدنيا في المجتمع الأمريكي الذين يفتقرون إلى الحد الأدنى من المعيشة، فلا يملكون المسكن أو الملابس أو الطعام المناسب.. ولقد عشق العالم كله فرانكلين روزفلت لأنه كان يتمتع بشخصية جذابة، ولها قدرة ساحرة على التأثير في من حوله وكان مرحاً في عمله ومتفائلاً بالمستقبل لدرجة أن تشارل ديغول كان يعلم تماماً أن روزفلت لا يطيقه ومع ذلك فإنه أكد أنه يستسلم لروزفلت ولشخصيته البراقة، وعلق ونستون تشرشل على فرانكلين روزفلت يوماً قائلاً: اللقاء مع روزفلت أشبه بنزع غطاء زجاجة شمبانيا!!

ومعجزة هذا الرجل أنه استحوذ على قلوب الجماهير من فوق مقعده المتحرك.. واستطاع أن يخوض المعارك الشرسة وسيقانه لا تقوى على حمله.. وكان نموذجاً لإرادة المعوق حين تتفجر وتكشف الستار عن قوى كامنة في تلك النفس البشرية والتي تستطيع أن تحول العجز إلى قوة والفشل إلى نجاح وتملأ الفراغ القاتل رسوماً وألواناً.. بل أكثر من ذلك أن تستطيع تلك الشخصية العاجزة في جسدها أن تحقق الأحلام، وتعبر بها من بوابة الحلم إلى

حيز الواقع، ورغم كل هذا الحب .. فقد تعرض روزفلت للحقد والكراهية لجرد أنه دعا للتغيير وتطلب التغيير الذى طلبه فى مشروعه (العقد الجديد) تقليص سلطة وموارد الأرسقراطيين الذين كانوا يستغلون المجتمع ويعيشون على رقاب الفقراء والمكدودين والمطحونين من أبناء الشعب الأمريكى، ولكن ما أسرع ما انهزمت هذه الكراهية أمام الحب الأسطورى الذى حشدته شخصية فرانكلين روزفلت فى قلوب الملايين من أبناء الشعب .. وكان هؤلاء الأشخاص الذين دعوا إلى كراهية روزفلت يجلسون فى الأندية والمقاهى والحانات، يلعنون ذلك الرجل الجالس على كرسى الرئاسة ويتهمونه بأنه خائن لطبقته الاجتماعية، ولكنهم ماتوا وذهبوا عن العالم وبقي روزفلت محلماً فى تاريخ البشرية وفى أذهان مئات الأجيال من أبناء أمريكا ..

ولم يقتصر الإعجاب بروزفلت على فئته السياسية من الديمقراطيين ولكنه أيضاً نال إعجاب الجمهوريين، لدرجة أن الرئيس الأمريكى الأسبق رونالد ريجان ذو الانتماء السياسى الجمهورى قد أدلى بصوته أربعة مرات لصالح فرانكلين روزفلت وذلك فى المرات الأربعة التى انتخب فيها رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية .. كما أن ينوت جنجريتش الرئيس الجمهورى السابق لمجلس النواب الأمريكى وصف روزفلت بأنه أعظم رئيس لأمريكا على الإطلاق فى القرن العشرين .

وفى عام ١٩٠٥ تزوج فرنكلين روزفلت من إليانور التى ولدت فى ولاية نيويورك عام ١٨٨٤ وفى سن السابعة فقدت أباهما فانتقلت مع جدها إلى إنجلترا، ثم عادت مرة أخرى إلى نيويورك، والتقت بفرانكلين روزفلت عندما كان طالباً فى هارفارد فأعجب بها من أول مرة وكتب لها العشرات من رسائل الغرام التى أحرقتها إليانور جميعاً، ولم يكن أمام روزفلت بد من أن يتقدم لخطبتها عام ١٩٠٣ وهو فى الحادية والعشرين من عمره ثم تزوجها بعد عامين وأنجبت له ستة أطفال، مات أحدهم وكانت كل مشكلة روزفلت هى أمه «سارة» التى تعترض على علاقته مع الفتيات فى سن الشباب، والمراهقة ولكنها كانت تتدخل بشدة إذا وصل الأمر إلى حد الزواج وقد اعترضت الأم أكثر من مرة على فتيات كان يرغب روزفلت فى الزواج منهن للمرة الأولى عندما هم بالزواج من فتاة تدعى فرانسيس دانا وكانت إحدى عشيقاته ولكن الأم اعترضت بشدة على الفتاة لأنها كاثوليكية، والمرة الثانية عندما خطب إليانور، فقامت الأم بصحبتة فى رحلة بحرية لمدة خمسة أسابيع فى بحر الكاريبى حتى ينسى إليانور التى أحبها من كل قلبه، ولكن أمه فوجئت به يقيم علاقة جنسية مع سيدة فرنسية على ظهر السفينة مما جعل الأم تستسلم فى النهاية لما يريد .. وقبلت زواجه من إليانور الأمريكية .

وفى عام ١٩١٠ بدأت حياته السياسية تأخذ أولى خطواتها العملية بعد أن أعد نفسه الإعداد السياسى الجيد منذ أن كان طالباً بكلية الحقوق، وقد تأثر فرانكلين روزفلت كثيراً

وإلى حد كبير بعميد عائلته الرئيس الأمريكي الأسبق تيودور روزفلت، والذي تولى الحكم في الولايات المتحدة الأمريكية في الفترة من عام ١٩٠١ وحتى عام ١٩٠٩. وفي هذا العام بدأ يخطط لدخول مجلس الشيوخ ممثلاً للحزب الديمقراطي في نيويورك وهو ما تحقق فعلاً، ثم عين عام ١٩١٣ مساعداً لوزير البحرية الأمريكية وظل يشغل هذا المنصب حتى عام ١٩٢٠.

وقد أصيب فرانكلين روزفلت بالشلل عام ١٩٢١، وذكر أنه كان يقوم بنزهة بحرية بالقرب من غابة كامبويللو، فإذا به يشاهد حريقاً يشب في الغابة، فأسرع بيخته «سبالو» حتى وصل إلى منطقة الحريق فترك اليخت وكان مرتدياً لیس، البحر، وأخذ يعمل مع من معه من أفراد أسرته على حصر النيران والحيلولة دون امتدادها حتى تمكن بعد كفاح عنيف من إخمادها، ولكن الجهد الذي بذله وهو لا يلبس سوى ثوب الاستحمام وتنقله بين البرودة تارة والحرارة تارة أخرى وهو يحاول محاصرة النيران بالمياه سبب له مرضاً تفاقم بعد ذلك حتى بدا في شكل شلل بأطرافه السفلية. وأقعدته ذلك عن الحركة قبل أن يتم الأربعين من عمره بعام واحد.. فأثر ذلك على نفسيته لفترة، وقاسى كثيراً من جراء هذا المرض الذي قيده فجأة وهو يعد نفسه للعودة على سلم الأحلام.. ولكن زوجته المؤمنة إنيانور روزفلت خففت عنه آلامه النفسية، وجندت نفسها لخدمة زوجها القعيد، وكانت تخرج إلى الحفلات والندوات ثم تعود فتنقل له أحداث المجتمع وأخبار السياسيين والفنانين ورجال الدولة.. وكانت تلتطف عليه عزلته فتقضى الوقت معه، تلاعبه إحدى الألعاب المسلية أو ألعاب الذكاء، وكان يعتبرها بمثابة الرادار الذي يرى ويسمع به كل شيء في العالم من حوله.. وساهمت هذه الظروف المرضية في تعميق الحب الرائع بين فرانكلين وإنيانور.. وعندما أقنعته الزوجة الجميلة بأن يخرج إلى الناس ويواجههم بمحنته الجديدة، إشترت له سيارة يمكن أن يقودها دون استخدام قدميه.. واستطاعت إنيانور بشجاعة المرأة المحبة أن تزيل مركب النقص في حياة فرانكلين، وتدفعه لأن يظهر في المجتمعات وهو يسير مستنداً على عكازين، بل أكثر من ذلك فقد صممت على أن يكمل زوجها مخططة الطموح لمستقبله السياسي وعانى فرانكلين روزفلت كثيراً من التردد وهو مقدم على تلبية رغبة إنيانور.. لكنها منحتة بحبها وعطائها من الثقة في النفس ما لم يستطع أمامها أن يتوقف عن الإندفاع نحو تحقيق أمل زوجته العاشقة فيه.

وفي عام ١٩٢٠ قرر أن يخوض محاولته الأولى لشغل منصب نائب الرئيس الأمريكي، ولكنه فشل بعد خسارة جيمس كوكس أمام وارين هاردينج.. ولكنه لم ييأس ولم تتوقف زوجته عن دفعه إلى الأمام نحو المقدمة ليأخذ مكانه في الصفوف الأولى، فقررا سوياً أن يخوض فرانكلين الانتخابات على منصب حاكم نيويورك عام ١٩٢٨، والمعروف أن هذا المنصب يعد ثاني أكبر منصب في أمريكا بعد منصب الرئيس، وذهب فرانكلين إلى مؤتمره

الانتخابى مع الناخبين فى ولاية نيويورك الأمريكية، وهناك هم الرجال مندفعين نحوه ليحملوه إلى المنصة الرئيسية قبل حضور الناخبين حتى لا يروه وهو كسيحاً، ولكن زوجته إليانور رفضت ذلك وأصرت أن يصعد زوجها إلى المنصة فى وجود جميع الناخبين، وحملوا روزفلت على نقالة إلى مكان الاجتماع وأدخلوه من أحد أبواب القاعة، ثم بدأوا ينقلونه إلى المنصة الرئيسية التى توجد فوق المسرح، ولهت جموع الناخبين وهم يرون الإرادة ترحف على بطنها فى مشهد من أروع المشاهد المؤثرة فى تاريخ الأمم، وعندما صعد إلى المسرح استند إلى ذراع أحد الرجال ثم استند إلى المنصة ورتب شعره المنكوش، وابتسم ابتسامة بطعم الحرية والإرادة، وكان شيئاً لم يحدث.. وهنا دوت القاعة بالتصفيق الذى لم يتوقف.. فقد اقتنع الناخبون بأن الرجل الذى يلقي كل هذا الهوان والضعف بابتسامة لا بد وأنه رجل عظيم.. وشعر كل أمريكى فتير فى ولاية نيويورك بأنه هو هذا المرشح.. وأحس كل ضعيف ومشلول ومريض بأن هذا الرجل منهم فانتخبوه.. وغاز روزفلت بالمنصب فوزاً ساحقاً.. وكل هذا بفضل زوجة محبة ومؤمنة سيدكرها التاريخ كثيراً...

ولم يتوقف دور إليانور عند هذا فقط، بل طالبت بحقوق المرأة وحاربت من أجلها حتى أطلق عليها نساء أمريكا لقب «البطلة»... وتعتبر إليانور روزفلت من أوائل النساء اللاتى حصلن على تعليم راقٍ لعد تخرجها من الجامعة كما أنها من عائلة ثرية جداً، بالإضافة إلى مكانتها المرموقة فى دفع حركة الإصلاح والمساهمة فى الجمعيات النسائية دفاعاً عن حقوق المجتمع بصفة عامة والمرأة بصفة خاصة..

وقرر فرانكلين روزفلت أن يخوض انتخابات الرئاسة الأمريكية وأن يخترق الطريق بكرسيه المتحرك إلى الصقوف الأولى.. واقترح الانتخابات مثلاً للحزب الديمقراطي وحصل على أكثر من ١٢ مليون صوت عام ١٩٣٢ فى أغلبية ساحقة فاز بها على منافسه الرئيس هيربرت هوفر خاصة بعد أن طرح برنامج المعروف باسم «العقد الجديد» الذى عبر به وجه الحياة فى أمريكا وأغار بفكره الجديد على الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية فحقق آمال الجماهير وحفر صورته فى أذهانهم مدى الحياة.. وكان روزفلت يجيد العمل السياسى ببراعة فقد كان ذكياً وماكراً ومراوفاً ومخادعاً وقاسياً إذا احتاج الأمر ولكن تاريخه يشهد بأنه كان يقف بحانب القضايا الإنسانية أكثر من الأيديولوجية السياسية كما أنه نجح فى إخراج أمريكا من حالة الركود الاقتصادى الذى كانت تعانى منه.. وكان لروزفلت نشاطه السياسى الملحوظ ولم تقعه إصابته بالشلل عن ممارسة دوره على الساحة كما أقعدته عن السير إلا باستخدام الكرسى المتحرك.. فعندما قامت الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٨ كان روزفلت يجوب العالم على كرسىه المتحرك ثم اتخذ قراره بالاشتراك فى الحرب عام ١٩٤١ فى صفوف الحلفاء ضد قوات المحور المكونة من جيوش ألمانيا واليابان وإيطاليا وذلك عقب غرق الأسطول الأمريكى فى قاعدة بيرل هاربور التى دمرها اليابانيون...

وفي نفس هذا العام كانت الفترة الثانية في ولاية فرانكلين روزفلت قد انتهت ورفض الشعب الأمريكي أن يتركهم روزفلت في هذه الظروف الصعبة التي تتعرض لها أمريكا في ظل الحرب العالمية الثانية... الأمريكيون الذي خرجوا من الظلام إلى النور ومن قيد الفتر إلى روعة الرخاء على يد فرانكلين روزفلت أن تكون هذه هي نهاية حكمه.. وصمموا أن لا يترك البيت الأبيض.. وخرج الملايين من أبناء الشعب الأمريكي يطالبون بتعديل الدستور حتى يتمكنوا من انتخاب روزفلت للمرة الثانية وخضعت إرادة السلطات الشعبية والتشريعية والتنفيذية لإرادة الشعب وقاموا بتعديل الدستور لينتخب روزفلت فترة ثالثة ورابعة أيضاً ولكنه مات بعد شهر واحد من انتخابه لفترة ولاية رابعة وكان ذلك في شهر أبريل عام ١٩٤٥.

وقد أحب الأمريكيون روزفلت لتاريخه المشرف وإحساسه بالمسؤولية نحو طبقات الشعب الكادحة وتمسكه بالمبادئ والتراث التي لا تحيد عن الحق والحرية ولأنه كان إنساناً بسيطاً وعادياً وقريباً من قلوب الناس.. والتاريخ يشهد أن روزفلت لم يفرق في الحقوق بين طائفة وأخرى أو مذهب وآخر أو مؤيد ومعارض ففي ٢١ مارس عام ١٩٥٥ أذاعت لجنة الأمن الداخلي بالكونغرس الأمريكي تقريراً أكدت فيه أن فرانكلين روزفلت كان يحمي الشيوعيين الأمريكيين وأن اللجنة تأكدت من ذلك عندما قرأت رسالة سرية كانت متداولة بين روزفلت ووزير البحرية الأمريكي فرانك نو كس حول السماح لعمال اللاسلكي الشيوعيين بالعمل على ظهر السفن الأمريكية التجارية وقالت اللجنة أن روزفلت ونوكس قد ألحقا أضراراً كبيرة بالبحرية الأمريكية خاصة بعد أن رفض روزفلت إعادتهم وفصلهم من العمل إذا كانت كل جريعتهم هي الشيوعية.

رأى روزفلت العديد من الإصلاحات في الولايات المتحدة الأمريكية فقد رفع الحد الأدنى للأجور في أمريكا عام ١٩٤٠ وكان وقتها ٤٠ سنتاً في الساعة كما أصدر قوانين الاستشارات والتأمينات والمعونة الزراعية وأعاد تقسيم الدولار بما يساهم في تدعيم الاقتصاد الأمريكي وضاعف المنح الحكومية.. وواجه أكبر أزمة بطالة تشهدها أمريكا حتى عصره عندما كان عدد العاطلين يزيد عن ١٠ ملايين شاب وفتاة وقال لا تخافوا.. فليس أمامنا ما نخافه سوى الخوف نفسه وأقام بعدها سلسلة من المشروعات العملاقة لاستيعاب المتعطلين من شباب أمريكا.

وكان روزفلت متأثراً جداً بالإعاقة وشديد الاهتمام بالمعوقين وخاصة مرض شلل الأطفال، وقد أمر بتخصيص كل إيرادات حفلاته التي تقام في أعياد ميلاده لمعالجة المرضى المصابين بالشلل في العيون المعدنية بجورجيا وجمع في السنة الأولى من رئاسته ما يزيد عن مليون دولار ولما زاد ما جمع عن الحاجة أمر بتخصيص جزء من الأموال لمعهد الأبحاث الأهلى لكساح الأطفال وجزء آخر للأبحاث التي يقوم بها العالم الأمريكي ادوارد سولك لاكتشاف

مصل للرقاية من شلل الأطفال والتي أكملها بعد وقاته العالم بروس سابين مكتشف مصل شلل الأطفال بالتنقيط عن طريق القم ومن مواقفه الشهيرة.. ما حدث بينه وبين المستر ميرفى رئيس الحزب الديمقراطي الذى ينتمى إليه وذلك بسبب ترشيح ميرفى لرجل لخوض الانتخابات النيابية فى أمريكا وقد رآه روزفلت فى هذا الحين غير جدير بكرسى النيابة.. وعندما رفض رئيس الحزب الأخذ برأيه أعلن روزفلت كراهيته للحزبية والأحزاب وقال فى خطاب استقالته من الحزب :

«إن احترام الرجل لضميره خير له ولأمته من الانقياد لرئيس حزب»

ثم كان أن انتصر الناس لروزفلت وحذلوا مرشح الحزب .

ولا ينكر أحد أن روزفلت كان مخططاً ذكياً وقائداً حربيماً ممتازاً رغم أنه لم يمارس فنون القتال أو يدرسها أو يتخصص فيها.. والمعروف أنه تقدم بخطة عظيمة وقت أن كان وكيلاً للبحرية الأمريكية والتي تمكن بها الأسطول الأمريكى فى عملية عرفت باسم «الحصار البحرى» باستخدام الطارادات الخفيفة من مطاردى الغواصات الألمانية حتى غرقت وتبدد الأسطول الألمانى تماماً.. والمعروف أيضاً أن هتلر كان لا يطيق روزفلت ويضيق ذرعاً به خاصة بعد تولى الأخير حكم أمريكا واشتراكه فى الحرب العالمية ضد قوات اخور وقد قال هتلر يوماً كنوع من السخرية من أمريكا ورئيسها «إن الجهل الثقافى منتشر فى الولايات المتحدة، وأوضح ما تكون هذه الظاهرة فى تمجيد الشعب الأمريكى لنجوم ونجمات السينما ولذلك فإننا لن نسمح لروزفلت وهو بهذه العقلية أن يحكم على ألمانيا ولعل التصريحات التى يدلى بها للصحف تكشف عن مرض عقلى فهو بسبب الهستيريا التى يعانىها يقود الشعب الأمريكى كله إلى الهستيريا وهل هناك دليل على هذه الهستيريا أقوى من إذاعة تمثيلية فى الراديو عن أشخاص حبطوا من المريخ فى شيكاغو.. وروزفلت أمريكانى يشغل نفسه بهذه التفاهات»...

وروزفلت كان مغرباً بالمغامرات والإثارة فقد كان أول رئيس أمريكى يطير عبر المحيط الأطلنطى.. فقد سافر جواً فى يناير عام ١٩٤٣ لحضور مؤتمر الدار البيضاء الذى اجتمع فيه مع تشرشل رئيس وزراء بريطانيا.. كما أنه أول من فكر فى استخدام الإذاعة للوصول إلى الشعب والتواصل معه من خلال البيانات والخطب التى كان يلقيها إلى الشعب الأمريكى طوال فترة حكمه.. وتقول المؤلفة الأمريكية «فرانسيس بيركنز» فى كتابها «روزفلت كما عرفته» والذى نشر عام ١٩٥٣ أن روزفلت كان يريد أن يفجر مفاجأة بعد نهاية حكمه.. فقد فكر فى الإقامة بالملكة العربية السعودية لأنه كان متألماً لهذا الكم الشاسع والمساحات الهائلة من الأراضى الصحراوية التى لا تجد من يزرعها.. وفى إحدى زيارته إلى السعودية سأل الملك الراحل عبد العزيز آل سعود : لماذا لا تزرعون هذه الأراضى وتستفيدون من إنتاجها.. فرد الملك عبد العزيز : لدينا مشكلة فى الرى.. وستواجهنا هذه المشكلة إذا فكرنا فى

الزراعة .. فاقترح روزفلت على الملك أنه يمكنه أن يحفر آباراً لعمق ٥٠ قدم ويستخدم الطلمبات ومضخات المياه لرفع المياه الجوفية وزراعة الأرض .. وهز الملك رأسه موافقاً .. وهنا قال روزفلت للملك عبد العزيز آل سعود: أريد أن أقيم في السعودية أنا وزوجتي إليانور بعد نهاية فترة الحكم لأزرع لك هذه الأرض .. ورحب الملك باقتراح روزفلت وقال له: «البلاد بلادك ومرحباً بك في أي وقت» .. ومات روزفلت قبل أن يحقق رغبته ولكن الملك عبد العزيز لم يلبث أن استخدم فكرة روزفلت في زراعة بعض الأماكن في الصحراء السعودية ..

روزفلت وعلاقاته النسائية

كان فرانكلين روزفلت في شبابه كثير الشراب لدرجة إدمانه للكحوليات كما أنه كان شديد الغرام بالنساء وقد تعرف على فتيات أمريكيات وأوروبيات جميلات منهن موريل روبنز وابنة عمه هيلين روزفلت وماري نيوبولر وفرانسيس بل وأليس سومير وكان يحب الجنس لدرجة شديدة والمعروف أن إصابته بالشلل عام ١٩٢١ لم تعوقه عن ممارسة الجنس ولم يصاب بأي نوع من أنواع العجز الجنسي أو ضعف في أداء قدراته الجنسية ..

ولقد كانت هناك نقطة تحول شديدة في علاقة الحب الجميلة بين فرانكلين روزفلت وزوجته إليانور حينما اكتشفت أن زوجها يخونها مع سكرتيرتها الخاصة لوس ميرسر ابنة العشرين، واستطاعت أن تؤكد ذلك عندما عاد فرانكلين من رحلته إلى أوروبا مصاباً بالتهاب رئوي حاد فقامت إليانور بفتح حقائب زوجها فاكشفت رسائل غرامية بينه وبين لوس ميرسر .. وكانت لوسى كاثوليكية ولم يكن ممكناً لفرانكلين أن يتزوجها حتى لو طلق إليانور التي وضعت في مأزق صعب حينما طلبت الطلاق بالفعل وكان ذلك قبل أن يصل فرانكلين إلى البيت الأبيض ووجد أن في مطلب إليانور تدميراً لحياته السياسية والشخصية معاً وأنه من رابع المستحيلات أن يصل إلى البيت الأبيض إذا استغل خصومه هذه الفضيحة .. ولكن والدته سارة تدخلت في الأمر وحاولت أن تقنع إليانور بالصفح عن زوجها خاصة بعد أن أكدت الأم لها أن فرانكلين سيترك لوس نهائياً ووافقت إليانور في مقابل أن تهجر فراشه .. ولكن فرانكلين الذي كان يشغل وقتها بعض مساعد وزير البحرية الأمريكية نقل لوسى من نيويورك إلى مقر البحرية في واشنطن واستأنفا علاقتهما بعيداً عن سطوة ونفوذ إليانور واستعان روزفلت وقتها بدبلوماسي بريطاني من أصدقائه ليظهر معهما في الأماكن العامة حتى يتمكن أن يبرر روزفلت لزوجته إذا ما وصلت إليها أخبار بأن لوسى كانت بصحبة صديقه وليس بصحبه وزاد الأمر تعقيداً خاصة بعد أن اكتشفت إليانور بعض الرسائل الجديدة بين روزفيلت ولوسى والتي عرفت من خلالها أنهما نزلتا معاً أكثر من مرة في أحد فنادق شاطئ فرجينا وكانا يقضيان الليل معاً كالأزواج .

وأمام ثورة إيليانور اضطرت روزفلت هذه المرة أن يتخلى بالفعل عن لوسى والتي أصيبت بإحباط شديد جعلها تقبل الزواج من أرمل فى ضعف عمرها ..

ولكن روزفلت لم يأخذ عبرة من الماضى .. فعلى الفور عين سكرتيرة جديدة له اسمها ميسى وأشرف بنفسه على اختيارها وبدأت قصة حب جديدة بين روزفلت وميسى فى صفحة جديدة من صفحات علاقاته النسائية .. وكانت ميسى مسئولة عن صحة فرانكلين الذى كان يطبق برنامجاً للعلاج الطبيعى بالسباحة لتقوية ساقيه بعد إصابتها بالشلل .. وكان يقضى مع ميسى أياماً كثيرة فى ولاية فلوريدا وهو يتدرب معها على تقوية ساقيه بالسباحة .. وكانت لها غرفة نوم خاصة لكن حمامها كان ملحقاً بغرفة روزفلت . ولم تمنعه إصابته بالشلل من ممارسة الجنس أو الغرق فى علاقة غير شرعية مع سكرتيرته ميسى .. ومن العجيب أنه بلغت درجة تعلق روزفلت بميسى أنه عندما أسس مركزاً لرعاية المعوقين خصص لنفسه جناحاً يقضى فيه وقته مع ميسى حتى أن زوجته كانت عندما تزوره تبدو هى الضيفة وميسى صاحبة البيت .

ورغم كل ذلك فقدت إيليانور خلف زوجها وكانت بمثابة المدفع الذى أطلق فرانكلين روزفلت على الشعب الأمريكى فدوت قبلة الحرية والرخاء وكانت أجل قبلة تسقط على أمريكا فى تاريخها .

ويذكر بنجل كاوثودن مؤلف كتاب الحياة الجنسية لرؤساء الولايات المتحدة الأمريكية أن فرانكلين روزفلت خرق كل القواعد الجنسية وأباح لنفسه المحذورات داخل البيت الأبيض على مدى تاريخه فى الحكم وأنه عرف بأنه الرئيس المغرم لعشق السكرتيرات .. فهو لم يترك سكرتيرة فى البيت الأبيض إلا وأقام معها علاقة جنسية كاملة رغم ساقية المشلولتين ... ويذكر مؤلف الكتاب أن هذه اللامبالاة من جانب فرانكلين تجاه مشاعر زوجته إيليانور جعلتها تصاب بعقدة شديدة ورغبة فى الانتقام من زوجها فأقامت علاقة جنسية مع حارسها الشاب الذى غرقت معه فى الغرام ولما أبعد روزفلت مارسى الشذوذ مع صديقة لها كانت تعمل مراسلة لوكالة الأسوشيتيدبرس فى البيت الأبيض ولما طرد روزفلت المراسلة أقامت إيليانور علاقة مع شاب اسمه (جوزيف لاشى) واتضح بعد ذلك أنه يخضع لمراقبة أمنية مكثفة وكانت النتيجة هى قيام هذه الأجهزة الأمنية بتسجيل أشرطة لسيدة أمريكا الأولى وهى فى أوضاع جنسية فى فراش هذا الشاب المحذور أمنياً .

هكذا كان انتقام إيليانور روزفلت ... من زوجها الذى راوغ كثيراً محاولاتها المتكررة لإعادته إلى قلبها وحدها ..

فرانكلين روزفلت ورحلة المرض

المعلومات المتوفرة عن رحلة الرئيس الأمريكي فرانكلين روزفلت مع المرض غير وافية وليست بالدقة التي تجعلنا نشق في أن نكتب تاريخاً مرضياً لهذا الزعيم .. والعجيب أن كثير من الكتاب والمؤلفين قالوا أن فرانكلين روزفلت أصيب بشلل الأطفال وهو في التاسعة والثلاثين من عمره!!! ولم يتورعوا في أن يذكروا ذلك صراحة!! بل إن بعضهم كتب يؤكد أن العالم الشاب إدوارد سولك كان يراقب بعينه دائماً فرانكلين روزفلت ويسأل وفي عينه حيرة بالغة:

«ما الذى أقعد الرئيس وجعله كسيحاً غير قادر على الوقوف على قدميه؟»

وأن هذا العالم مدفوعاً بحبه لفرانكلين روزفلت اكتشف أنه أصيب بشلل الأطفال وأنه راح يجرى تجاربه العلمية والعملية لإنتاج مصل جديد ينقذ به البشرية من وباء شلل الأطفال الذى أصاب الرئيس ... وهذا بالطبع له مردوده العلمى الذى سيأتى لاحقاً!!

والمعروف أن روزفلت أصيب بالشلل فى ساقيه عام ١٩٢١ وأنه خضع لعلاج طبيعى مكشوف عن طريق تقوية ساقية بتدريبات السباحة المستمرة وبالفعل بدأت تظهر بعض نتائج هذا العلاج واستطاع روزفلت أن يستعيد بعضاً من قوة ساقيه ..

وقد أكد أحد الأطباء الأمريكيين أن روزفلت كان يعانى من السرطان عندما أعاد ترشيح نفسه للرئاسة لفترة رابعة .. كما يذكر الدكتور هارى جولد سميث أن روزفلت كان مصاباً بنوع من سرطان الجلد وأكد أن جميع الصور الفوتوغرافية التى التقطت له عام ١٩٤٤ كانت تظهر هالة داكنة اللون حول عينه اليسرى .

وبالتطبع لا يمكننا الجزم بصحة هذه المعلومات .. فعندما مات روزفلت فى أبريل عام ١٩٤٥ كانت بالطبع الوسائل الطبية التشخيصية غير مؤهلة لتشخيص هذه الأمراض الدقيقة ولم يكن العلم قد قفز القفزات القوية التى قفزها فى تشخيص الأمراض وعلاجهما .. لا نرى الآن .. بالإضافة إلى أن فرانكلين روزفلت نفسه لم يشكو من أى أعراض تشير إلى إصابته بالسرطان .. ولكن الثابت تاريخياً أنه قد مات معانياً من إصابته بنزيف حاد فى المخ بعد إعادة انتخابه للرئاسة لفترة حكم رابعة وقد أكمل نائبه هارى ترومان هذه الفترة كما ينص الدستور الأمريكى بعد أن قضى فرانكلين روزفلت قرابة ١٢ عاماً و ٣٩ يوماً رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية .

ويجب أن نأخذ فى الاعتبار أن شخصية فرانكلين روزفلت، كانت شخصية عظيمة تقبل التحدى وتؤمن بالتصميم وقوة الإرادة .. ولا شك أن إعاقته أعطته نوع من الإرادة الصلبة والرغبة فى تحقيق وإثبات الذات مهما كانت النتائج والمضاعفات .. ونفسية المعوق

تأخذ كثير من البحث والدراسة خاصة إذا أصبح هذا المعوق بطلاً قومياً أو زعيماً شعبياً أو نجماً من نجوم المجتمع وعادة ما تبعث الإعاقة نوعاً من التصميم فى رغبة صاحبها فى التفوق حتى يدفع الناس عن النظر إلى إعاقته بالنظر إلى أمجاده وقراراته وإنجازاته المؤثرة فى من حوله . . وقد يدفع الأمر إلى القيام ببعض التصرفات التى ربما تكون خاطئة ليقول للناس أو لنفسه على الأقل أنه مازال كما هو . . وأن شيئاً لا يتأثر أو يتغير بتأثر حالته الصحية .

حقيقة المرض الذى أصاب فرانكلين روزفلت

أسرف المؤلفون والباحثون فى حياة روزفلت فى الاعتقاد بأنه قد أصيب بمرض شلل الأطفال POLIOMYELITIS والذى لم يكن منتشرًا فى هذا الوقت ولم يكن العلماء قد توصلوا بعد إلى مصل للوقاية من هذا المرض . . وبمراجعة التاريخ المرضى للرئيس الأمريكى فرانكلين روزفلت أستطيع أن أجزم بأن المرض لم يكن له علاقة من قريب أو بعيد بمرض شلل الأطفال وهذا لأسباب علمية واضحة . . وأول هذه الأسباب أن فرانكلين روزفلت أصيب بالمرض الذى أقعده عن الحركة وهو بالغ من العمر ٣٩ عاماً وهذه العمر لا يمكن أن يصاب فيها أى إنسان بمرض شلل الأطفال . . لأنه ببساطة شديدة نوع من الشلل الذى يهاجم الإنسان فى سن الطفولة ولا يتعدى سن الإصابة به ١٥ عاماً . . كما أن شلل الأطفال يمكن أن يصيب أجزاء أخرى كثيرة من جسم الإنسان بخلاف الساقين مثل جزع البطن والذراعين والرقبة ويمكن أن يصيب أيضاً عضلات الجهاز التنفسى والحجاب الحاجز فيعجز الإنسان عن التنفس ويكون مصيره الموت . . وبالطبع هذا لم يكن موجوداً فى حالة فرانكلين روزفلت . . والمتفحص فى الحياة الخاصة للرئيس روزفلت يعرف أنه لم يتأثر جنسياً وأنه كان يمارس حياته الجنسية بنهم شديد وهذا ما يؤكد أن الأمر بعيد كل البعد عن شلل الأطفال الذى يمكن أن يؤثر على القدرة الجنسية للرجل وخاصة إذا أصاب الحبل الشوكى وهو ما يعرف باسم SPINAL POLIOMYELITIS كما أن شلل الأطفال يمكن أن يؤدي إلى ضعف فى بعض مهام أجهزة الجسم الفسيولوجية فمثلاً يمكن أن يؤدي إلى ضعف فى القدرة على السعال وارتجاع المخاط فى الأنف وضعفاً فى العضلات التى تحتضن الغدد الدمعية عند البكاء . . فيبدو الإنسان كما لو كان غير قادر على البكاء كما أنه يمكن أن يؤدي إلى حالة من عدم التركيز والنوبات التشنجية المتكررة وهذا النوع من الشلل يعرف باسم SPINOBUULAR POLIOMYELITIS وبالطبع فإن كل هذه الأعراض لم تكن متوفرة لدى فرانكلين روزفلت ، ولكن يمكن القول بأن ما وقع فيه المحللون والمؤرخون الذين تناولوا حياة روزفلت من خطأ يعود إلى نوع من عدم توافر المعلومات عن مرض شلل الأطفال أو عن هذه الأمراض التى تعوق حركة الإنسان بصفة مهمة وهذا بالطبع لاختلاف طبيعتهم المهنية التى تبعد تماماً عن مهنة الطب بالإضافة إلى أن معظم هذا

الخطأ قد تناولته الصحف والمجلات إلى حد ما عن المصادر العلمية ..

وفي اعتقادي أن فرانكلين روزفلت كان مصاباً بنوع من الوهن والضمور الشديد في عضلات الساقين وهو ما يعرف باسم MUSCULAR DYSTROPHY وأنه قد أصيب فجأة بحالة من الوهن الشديد في العضلات الذي يمكن أن يتبعه ضمور في شكل وحجم هذه العضلات بالساقين .. وهذا الضعف والضمور له أنواع كثيرة منها ما يمكن أن يصيب الإنسان في سن متقدم مثل السن التي أصيب فيها روزفلت بالمرض (حوالي ٤٠ عاماً) وفي هذه الحالة يصبح الإنسان غير قادر على الوقوف على ساقيه ولا يستطيع السير باستخدامها . وتصبح كل تنقلاته إما على عكازين أو باستخدام الكرسي المتحرك ..

وأغلب الظن أن المرض الذي عانى منه فرانكلين روزفلت لن يخرج عن كونه واحداً .. عدة أمراض .. أهمها مرض بيكر BECKER'S MUSCULAR DYSTROPHY وهو مرض عادة ما يكون جذور متعلقة بالوراثة .. ويجعل الإنسان لا يستطيع الاعتماد على ساقيه أثناء السير نظراً لأصابهما من وهن وضمور شديدين .. إلا أنه يمكن للإنسان المريض أن يلقي بعد التحسن إداً قام ببعض تدريبات العلاج الطبيعي المستمر ..

غير أن هناك نوع آخر من ضعف وضمور العضلات يعرف باسم وهن العضلات التسممي أو TOXIC MYOPATHY والذي يتسبب في ضعف أداء العضلة وتوقفها عن العمل مما قد يؤدي إلى ضمورها وهذا نتيجة تناول بعض العقاقير التي تؤخذ بصورة مزمنة أو للإسراف الشديد في تناول الكحوليات كما كان الأمر في حالة فرانكلين روزفلت .

وهناك أيضاً ما يعرف بوهن العضلات الفيروسي أو VIRAL MYOPATHY والذي يصيب الإنسان نتيجة تعرضه لهجوم فيروسي صاحبه بعض المضاعفات وربما هذا يتمشى مع القصة المذكورة عن إصابة روزفلت بالمرض بعد قيامه بإطفاء حريق بإحدى الغابات وهو بلباس البحر وأنه تنقل مراراً بين البرودة والحرارة، ومن الممكن أن يؤدي ذلك بالقطع إلى حالة من التعرض لعدوى فيروسية مثل الأنفلونزا مثلاً والتي تطورت مضاعفاتها إلى الحد الذي أصاب العضلات بهذا الوهن والضمور الفيروسي وعموماً فإن هناك أنواع كثيرة من وهن وضعف العضلات الذي يمكن أن يصيب عضلات الساقين ويمنع الإنسان عن السير والتحرك .. وغالباً ففي كل هذه الحالات قد لا تتأثر الحالة الجنسية كما يمكن أن يحدث في حالة الإصابة بشلل الأطفال ..

وليس أدل علي صحة هذا الاعتقاد من ذكر حقيقة مهمة وهي أن روزفلت كان يتبع نظاماً علاجياً خاصاً يعتمد على العلاج الطبيعي عن طريق تقوية ساقيه بتدريبات السباحة وبالفعل فقد ذكر أن هذا العلاج أثمر عن نتائج جديدة أدت إلى أن تقوى عضلات الساقين بصورة طيبة وهذا ما لا يمكن حدوثه مطلقاً في حالة الإصابة بشلل الأطفال إذ لا يفيد العلاج الطبيعي في شفاء مثل هذه الحالات .

الدوافع المرضية لقرارات روزفلت

كما ذكرت من قبل فإن شخصية الإنسان المصاب بإعاقة ما فى جسده تخلق داخله نوعاً من التحدى والتصميم على القيام بأعمال غير تادية يمكن أن تصنع له المجد والاحترام فى عيون الآخرين وتجعلهم يقدرونه حق التقدير ويشغلوا بشخصيته وأعماله عن إعاقته وعندما يتكلمون عنه لا يقولوا الشخص المعاق فلان.... بل يقولوا البطل بغض النظر عن إعاقته.

ويحضرنى هنا ما ذكرته لى يوماً زميلة صحفية تعمل صحفية فى جريدة كبرى عندما كانت تشكو من رئيسها وأعماله وتصرفاته الغريبة البعيدة عن المنطق وحدود العقل كانت تقول لى.. أنه كان ينتظر ما تقوله ليقول عكسه تماماً.. فمثلاً إذا طلبت منه إجازة رفض بدون إبداء الأسباب.. وإذا ظلت شهوراً طويلة تعمل.. سألتها لماذا لا تأخذ إجازة؟! وفى يوم من الأيام طلبت منه أن يأذن لها بسيارة الجريدة حتى تتمكن من الإسراع بتغطية حدث مهم من أرض واقع.. وفوجئت به يسألها ما اسم السائق؟.. فقالت له: مش شغلى؟ فقال لها: مش شغلك إزاي إعرفى اسم السواق.. وخرجت تسأل هنا وهناك ولما عادت له باسم السائق سألتها: مين المصور.. فقالت: هاشوف الفاضى وهأخذه.. فقال لها: إزاي لازم أعرّف اسم المصور.. ودارت الدورة السابقة مرة أخرى وعندما عادت إليه باسم المصور أعطاها التصريح دون أن يكتب فيه اسم السائق أو المصور وللأسف لم تستطع أن تلحق الحدث المهم الذى كانت تريد تغطيته.. ومرت الأيام وكان لى طلب ما عند هذه الشخصية.. ولما حاولت مقابلته تركنى على باب مكتبه مدة كافية يمكن أن أفهم منها أنه لا يريد أن يرى وجهي وعندما دخلت عليه اكتشفت الصدمة.. لقد كان هذا الرئيس قزماً.. كما أنه كان رفيعاً جداً.. وشعرت أنني أريد أن أضحك، فأول مرة أرى قزماً بهذه النحافة.. وهنا أدركت أن هذا الرجل يعاني نفسياً من مركب نقص بسبب شكله المثير.. وأنه يحاول أن يدفع بشخصيته القاسية والمعقدة كل الناس لكى لا ينظروا إلى إعاقته ولكن ينشغلوا فى هيبته..

ويعظم هذا الإحساس بالذات لدى شخصية المعاق الذى يخجل من إعاقته ويريد أن يخفيها عن الناس.. فلا يظهر فى المجتمعات ولا يشترك فى الأنشطة المختلفة إلا إذا كان هناك ما يدفع عنه خجله أمام جموع الناس..

وهذه هي حالة فرانكلين روزفلت تماماً.. فقد كان يعاني من مركب نقص شديد بعد إصابته بضمور العضلات الذى سبب له حالة من الشلل جعلته أسيراً للكرسى المتحرك وصديقاً لكلبه الشهير «فلا» الذى كان يصاحبه فى كل مكان.. وكان روزفلت يرفض بشدة أن تلتقط له صوراً فوتوغرافية يظهر فيها الكرسى المتحرك الذى يجلس عليه وهذا جعلنا نفسر وجود صورتين له فقط فى أرشيفه وهو جالس على الكرسى المتحرك.. رغم أن هذا الكرسى لم يفارقه أبداً وقد حاولت زوجته إلبانور كثيراً أن تقضى على مركب النقص فى حياة روزفلت واستطاعت بالحلب والشفافية والعلاقة الصادقة أن تخرج زوجها من عزلته ولكن بعد أن تعلم كيف يواجه مركب النقص فى شخصيته ليصبح مركب من الإعجاب

والبطولة والتفاف الملايين من حوله ..

ولا شك أن إصابة روزفلت بنوع من الشلل قلب حياته رأساً على عقب لأنه كان عظيماً من البداية وقوياً في صفاته الشخصية وبدا أنه صاحب مبدأ وقرار وفكر .. وكان صعباً عليه أن يرى عظيمته تستند على عكازين وقوته تتحرك فوق كرسي بعجلات .. وكان لزاماً عليه أن يغير الصورة في نفوس المحيطين به ويخلع من ذاكرته صورة فرانكلين العاجز المسكين ليزرع مكانها صورة فرانكلين القوي الشجاع .. وينشغل الناس بالصورة الثانية على حساب الصورة الأولى ..

وأول الدوافع التي يمكن أن نرجعها إلى التركيبية الشخصية لروزفلت بعد محنة مرضه هو قراره والتزامه الشخص بالتعاطف مع الفقراء والمطحونين من أبناء الشعب الأمريكي والثورة على الأرسقراطيين والنبلاء والذي كان بنفسه واحداً منهم وينتمى إليهم وأي إضرار بمصالحهم يضر بمصالحه مباشرة .. كما لا يخفى أن زوجته إيلانور كانت من عائلة ثرية وأرسقراطية هي الأخرى وبالتالي فإن تقرب روزفلت من الطبقة الكادحة من الشعب الأمريكي وهو ليس منهم على حساب الطبقة الأرسقراطية التي خرج منها هو أمر يهدفنا إلى الدهشة . والتعجب خاصة وأنه لم يشعر بالآلام الطبقة الكادحة ولا بمعاناتها الشخصية ومشاكلها اليومية والحياتية وهذا يجعلنا نؤكد أن شخصية روزفلت تأثرت كثيراً بعد مرضه فأصبح نصيراً للضعفاء وفي نفس الوقت حقق محاده الشخصي وقضى على مركب النقص في حياته وأصبح الشعب الأمريكي ينظر إليه نظرة احترام على أنه الشخص القوي الذي يحسى الضعفاء من بطش الأقوياء والفقراء من سيطرة الأغنياء ولا ينظر إليه كشخص معوق وضعيف لا حول له ولا قوة .

وإحساس فرانكلين روزفلت بأنه موضع اختيار للقدرة بصفة دائمة جعله يقدم على فعل أي شيء وكل شيء ... وفي اعتقادي أنه كان يتصرف بطاقة عشر رجال معاً .. وكان يتحرك على مقعده أو بعكازين حركات كثيرة غير معتادة ولا مبرر لها ..

ومغامرات فرانكلين الجنسية تعتبر من الأحداث التي يجب التوقف عندها طويلاً .. فبالرغم من أن مغامراته الجنسية كادت أن تفقده أعلامه في الوصول إلى البيت الأبيض إلا أنه أصبر عليها بل إنه تمادى فيها أكثر مما كان عليه ومارس الجنس بكل أشكاله وألوانه في علاقات غير شرعية وهو الرجل القعيد المريض . ولم يترك امرأة جميلة في البيت الأبيض إلا وصنع معها علاقة ارتقت بعد ذلك إلى الغرام المحرم .. إلى الدرجة التي دفعت زوجته إلى الإصانة بعقدة نفسية وهي ترى زوجها الذي وقفت بجواره يتخلى عنها ويتركها إلى أحضان أخرى وهذه العقدة أدت إلى فضيحة كبرى في نهاية حكم روزفلت عندما سجلت إيلانور أشرطة وهي في أوضاع جنسية مع عشيقها .. والسؤال لماذا كل هذا الهم الجنسي لرجل عاجز في أوقات كان العالم يضح فيها بنيران الحرب العالمية الثانية ؟!

ولماذا الإسراف في خيانة الزوجة والتي بدونها ما كنا سنسمع عن فرانكلين روزفلت في كتب التاريخ ... وتاريخ الولايات المتحدة بالتحديد ؟!

الأغلب أن السبب في ذلك هو إثبات الذات والاستمرار في محو مركب النقص من ذاكرة كل المحيطين به وأنه رجل طبيعي مثل كل الرجال...!!!

وروزفلت كان عاشقاً للتحديات ومستمراً في خوضها.. فقد فشل في انتخابات نائب الرئيس وهو سليم ومعافى فقرر أن يدخل الانتخابات على منصب الرئيس وهو مشلولاً وحصل وقتها على أكثر من ٥٣٠ صوتاً من أصوات المجمع الانتخابي في حين حصل منافسه على ٨ أصوات فقط.. والرئيس روزفلت كان كما ذكرت أول رئيس لأمريكا يغامر بعبور الأطلنطي جواً للقاء تشرشل في الدار البيضاء عام ١٩٤٣ من خلال هذه الرحلة الجوية المثيرة.. والمعروف عن فرانكلين روزفلت أنه يصنع بمرحه نوعاً آخر من أنواع دفع الأنظار عن إعاقته والتركيز على شخصيته وقد حدث يوماً أن التقى بتشرشل رئيس وزراء بريطانيا في ذلك الوقت وبعد الاجتماع ذهب تشرشل لحجرته وعندما سأل عليه روزفلت قالوا له إنه يستحم.. فسابق روزفلت الريح على كرسيه المتحرك كالأطفال ودخل على تشرشل وهو يستحم.. وفوجئ تشرشل العارى بروزفلت أمامه وهو يضحك ويقول له: جئت لأرى ما تخفيه عني فرد تشرشل: أتراني أخفى الآن شيئاً عن رئيس أمريكا.

وربما كان في هذه المرحه رسالة إلى تشرشل هذا السياسي العجوز..

والرئيس فرانكلين هو أيضاً الذي قرر الاهتمام بمرض الشلل وكساح الأطفال وأمر بإقامة دور لرعايتهم الصحية والنفسية والعلمية كما أنه شجع الأبحاث العلمية التي يقوم بها العلماء للتوصل إلى علاج لكساح الأطفال والبحث عن مصل وقائي ضد هذا المرض وبالطبع فإن نظرة الرئيس إلى هذه النوعية الخاصة من المرضى يرجع إلى إحساسه بأنه واحد منهم.. واعتقد أن قراره بدعم البحث العلمي الطبي يعود بالقطع إلى إصابته بمرض كان مجهولاً أمام الأطباء في هذا الوقت... ولكن البحث العلمي الطبي في أمريكا لم يتوقف بعد ذلك عند المرض الذي أصاب روزفلت.. ولكنه تخطى ذلك بكثير وانطلقت أمريكا في مجال الطب انطلاقات مدوية إلى أن أصبحت هي مدرسة الطب والبحث العلمي في العالم الآن..

وفي الحرب العالمية الثانية جاب روزفلت العالم شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً فوق كرسيه المتحرك ليقول لكل القوى العالمية أنني موجود.. وعندما حانت لحظة التدخل لم يتورع دقيقة في إعلان اشتراكه في الحرب ليثبت للعالم كله أن الرئيس القعيد يمكنه أن يحطم أسنان الأعداء ويقذف الرعب في قلوبهم.. والجدير بالذكر أن الولايات المتحدة الأمريكية هي التي أنهت الحرب العالمية بعد وفاة روزفلت..

ونستطيع أن نجزم الآن بأن فرانكلين روزفلت كان يستمد قوته وقدراته على إعطاء القرار من إعاقته ذاتها.. لأنه كان يرغب أن يعلن للناس بأنه ليس ضعيفاً وأنه قوياً وعظيماً.. لذلك أحبه العالم قبل أن يحبه الأمريكيون لأنه لم يكن يؤمن مطلقاً بالفشل الذي قال عنه يوماً: «إن الإخفاق مهما جعل المستقبل في عيني المرء أسوداً حالكاً.. فإن خير وسيلة للتغلب على الفشل أن ننساه، ثم نستأنف الجهاد مصرين على النجاح بثقة وعزم»..

هذه كلمة رجل معوق.. أذهل البشرية.. حقاً... إن كل ذى عاهة جبار.

محمد رضا بهلوى «وكفن.....بلا جيوب»

توقفت كثيراً أمام شخصية الشاه محمد رضا بهلوى التى أصابتنى بالذهول والدهشة وأنا أستخلص المعلومات عن حياته من مصادر مختلفة فى مصر والعالم .. وكنت إذا وقع فى يدى كتاب يحكى قصة حياته، أو يتعرض لسياساته داخل إيران أو خارجها .. ما استطعت أن أتركه قبل أن أحصد كلماته حصداً مهما بلغ عددها أو عدد صفحات الكتاب الذى يحتويها فى سطره الهامة والمؤثرة ..

وقد يسألنى البعض . لماذا هذا التأثير بما قرأت عن الشاه !!؟ .

والإجابة ببساطة أننى وجدت فى شخصيته كثيراً من المتناقضات التى يستحيل أن تجتمع فى شخصية إنسان واحد .. بل فى شخصية قائد عرف معنى الحكم منذ نعومة أظفاره .. هذه المتناقضات تجمعت بكل صراحة فى شخصية الشاه !! وبكل قوة وبأس استطاع أن يتحمل الصراع الداخلى الذى يدور فى عقله بين القوى المتناقضة التى جمعتها شخصيته ..

ولد محمد رضا بهلوى فى السادس والعشرين من أكتوبر عام ١٩١٩ وقد تربي الشاه تربية قاسية على يد أبويه الضابط القديم «رضا شاه» وقيل أن يتم الشاه عامه السادس، كان أبوه قد أحكم قبضته على فارس فى انقلاب عسكري ناجح ونصب نفسه «شاه فارس» بعد أن خلع السلطان أحمد ميرزا عن الحكم ليقبض رضا شاه على العرش الفارسى وليصبح محمد رضا نفسه ولياً للعهد .

وكان للشاه اختاً توأماً تدعى «أشرف»، وقيل أنها كانت صاحبة شخصية شديدة ومتسلطة، وأن شقيقها الشاه قد تأثر كثيراً بعلاقته بشقيقته التوأم، وقد جلس محمد رضا بهلوى على العرش فى ١٦ سبتمبر عام ١٩٤١ عندما تحالف السوفييت والبريطانيون الذين كانوا يحتلون إيران وقتها على والده رضا شاه وأرغموه على التنازل عن العرش الفارسى لابنه الذى كان يبلغ من العمر وقتها اثنين وعشرين عاماً .. وقد هبت عواصف كثيرة على الفترة التى حكم فيها محمد رضا بهلوى إيران والتي إمتدت إلى ما يقرب من ٣٨ عاماً من الحكم ..

والعاصفة الأولى التى هبت على تاجه كان وراءها السوفييت، وبسبب البترول فى عام ١٩٤١، حيث احتل السوفييت إقليم أذربيجان الشمالى تنفيذاً لمعاهدة ١٨٢١، وانتهت الحرب العالمية الثانية دون أن تفكر موسكو فى سحب قواتها من الإقليم الذى أعلن انفصاله بتحريض من حزب «توده» الشيوعى القوي .. وكان السوفييت يحاولون إبقاء أصابعهم فى

تلك المنطقة البترولية، القوية ولكن الشاه محمد رضا كان قد خطط لعملية عسكرية مفاجئة نجح في تنفيذها عام ١٩٤٦ واستطاع على أثرها أن يخرج السوفييت من أذربيجان وأن يخمد تمرد الانفصاليين .

ولم يستطع الشاه أن يتمتع بالهدوء الذي كان يرجوه خلف أسوار قصر «جولستان» الأسطوري والذي يعد أعظم القصور الملكية على وجه الأرض .. لأن سياسته أثارت سخط جميع فئات المواطنين من رجال الدين والإقطاعيين والشيوعيين مدعمين بمساندة قوية من طوائف الشعب، وقد نجحوا في تشكيل معارضة ساخنة وقوية ضده .. ولم يمر سوى أعوام بسيطة حتى غرق الشاه في المتاعب، والسبب البترول أيضاً .. بعد أن دخل في مواجهة مع رئيس وزرائه الدكتور محمد مصدق في ٨ مارس ١٩٥١ الذي قرر تأمين بترول إيران مما أدى إلى تصاعد النزاع بينه وبين الشاه .. وساعدت المخبرات المركزية الأمريكية شاه إيران على استعادة الزمام في وجه مصدق وأنصاره، ليعود من جديد محمد رضا بهلوي الرجل الأول والوحيد في إيران .

وكان الشاه قد تزوج من الأميرة «فوزية» شقيقة الملك فاروق ملك مصر السابق وذلك بعد تلقيه الأمر من والده بالسفر إلى مصر والتقدم لخطبة الأميرة فوزية من شقيقها الملك فاروق، وبالفعل سافر الشاه إلى مصر، وأمضى فيها أياماً بسيطة تزوج خلالها الأميرة فوزية، وعاد بها إلى إيران لتكون زوجته الأولى التي سرعان ما طلقها في ١٩ نوفمبر عام ١٩٤٨ لأنها لم تنجب له وريثاً للعرش .. وفي ١٦ فبراير ١٩٥١ تزوج الشاه من الأميرة ثريا اصفندياري، وكانت رائعة الجمال .. وقد كان الشاه يعاني من عقدة الاختيار بعد أن طلق الأميرة فوزية لأنها كانت شديدة الحسن والجمال .. ولم يكن الشاه قد رأى قبلها فتاة في روعتها وسحرها .. لذلك ظل ثلاثة سنوات بدون زواج إلى أن تزوج من الأميرة ثريا التي كانت هي الأخرى شديدة الفتنة والجمال، واستطاعت أن ترضى غرور الشاه .. وخلال هذا الزواج تعرض الشاه لعاصفة جديدة .. فقد أعد عدته للقضاء على رئيس وزرائه محمد مصدق نهائياً عن طريق محاولة للانقلاب والإطاحة به على يد مجموعة من الضباط المؤيدين للشاه .. ولكن باءت هذه المحاولة بالفشل .. وقام مصدق بالقبض على رجال الشاه الذي أصبح وضعه حرجاً للغاية، فليجأ إلى بغداد في ١٦ أغسطس ١٩٥٣ ثم إلى روما، حتى استطاع الجنرال زاهدي الذي يدين بالولاء لشاه إيران الإطاحة برئيس الوزراء في ١٩ أغسطس ١٩٥٣ وعاد الشاه إلى إيران منتصراً في الثاني والعشرين من نفس الشهر ..

وفي ٦ أبريل ١٩٥٨ طلق الشاه الأميرة ثريا .. والتقى لأول مرة بفرح ديبا حين كانت من بين مجموعة من الطالبات اللاتي نلن منحة السفر والدراسة في باريس وجاءت تبعاً للبروتوكول تنتظر دورها لتحية الشاه وتشكره، أما اللقاء الثاني فقد تم عندما دعته الأميرة إلى زيارة القصر بصفتها صديقة شاهيناز ابنة الشاه من الأميرة فوزية، ولكن الشاه لم يهتم بها أما الأميرة الأم فقد كان لها رأياً آخر .. واستطاعت أن تلفت انظار

الشاه إلى فرح ديبا، والتي تزوجها بالفعل في ٢١ ديسمبر عام ١٩٥٩ .. وبعد تسعة أشهر فقط أنجبت له ولى عهده الأمير رضا .. كما أنجبت له تباعا الأميرة فرح ناز والأمير على رضا والأميرة ليلى والتي كانت تبلغ من عمرها ٩ سنوات وقت وفاة الشاه ورحيله عن العالم.

وكان الشاه قد انتهج سياسة في حكمه أثارت حالة من السخط العام من جماهير الشعب واستياءً شديداً من رجال الدين، خاصة وأنه بدأ يمتنح حرمة الإسلام، ويعيش حياة من الترف والبذخ والإسراف الذي لاحدود له، في نفس الوقت الذي كان شعبه فيه معدماً وفقيراً .. ويعانى من أزمات اقتصادية واجتماعية طاحنة ترجع إلى انعدام العدالة الاجتماعية، وسوء توزيع ثروات البلاد على أبناء الشعب الإيراني، وعدم سيطرة إيران على انتاجها من البترول، وكل ذلك جعله يواجه اضطرابات شديدة في عام ١٩٦٣ أثارها آية الله الخميني الزعيم الإسلامي المتشدد .. ولم يكن أمام الشاه إلا أن يطرده من إيران عقاباً له، فلجأ الخميني إلى تركيا ثم إلى العراق .. ولكنه لم يتهاون يوماً واحداً في الإعداد للثورة الإسلامية والإطاحة بشاه إيران .. فأستمر الخميني في دعم وتخطيط الحركة الثورية داخل إيران من منفاه إلى الحد الذي أشعل المظاهرات العمالية ضد الشاه في نوفمبر ١٩٧٧، وأعقبها اضطرابات شديدة في مدينة «قم»، والتي سقط ضحيتها ٦٠ قتيل، واضطر الجيش للتدخل لوقف الاضطرابات والحفاظة على عرش الشاه بعيداً عن الأنواء .. ولكن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد فبلغ عنف الثوار ذروته، وبلغ عنف الشاه مدى لم يصل إليه من قبل، فقد أطلق النار على المتظاهرين في سبتمبر ١٩٧٨ وأردى سبعمائة قتيل، وعرف ذلك اليوم بيوم الجمعة الأسود .. كما أطاح الشاه بأرواح ستين ألف من الشباب والفتيات في أحداث القمع التي استخدم فيها كل وسائله لاختماد الثورة مهما اختلفت شرعية هذه الوسائل .. ومهما فاقت حرمتها حدود الوحشية والحيوانية .. وكل هذا اضطر الخوميني ان يكثف ضغوطه في التخطيط ويدعو من منفاه إلى الاطاحة بالشاه حتى أن العراق قرر طرده من البلاد في أكتوبر عام ١٩٧٨ خشية حدوث مزيد من الشروخ مع الحكومة الإيرانية .. وخرج الخميني من منفاه في العراق إلى باريس واستطاع في أول عام ١٩٧٩ أن يؤسس مجلساً للثورة الإسلامية ليهيئ بها ٢٥٠٠ عاما كاملة من عمر واحدة من أقدم امبراطوريات العالم.

وكان شاه إيران يحلم بأن يرى إيران مع مطلع عام ٢٠٠٠ الدولة الخامسة في العالم من حيث القوة والمكانة وذلك بعد الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا وإنجلترا .. وحاول وضع خطة إصلاح في ثورة بيضاء يحارب بها الأمية والتخلف والجهل ويحرر المرأة من قيد العبودية لتأخذ دورها على الساحة وتشارك الرجل جنبا إلى جنب في رحلة البناء والكفاح .. وكان الشاه يفكر أن يوجه كل دولار يحصل عليه من بتترول بلاده إلى تحقيق أحلامه ... ولكن الأحلام تحولت إلى سراب ... واستفز الثراء الفاحش الذي كان يعيش فيه الشاه رجال الدين والملاك وطوائف الشعب العامة ... وكانت هذه هي بداية النهاية في حكم الشاه.

وعن بذخ الشاه وتطرفه فى انفاق الأموال .. يمكن أن ندون عشرات المراجع التي تدفعنا إلى تحليل الشخصية النفسية لهذا الرجل، والذي أعتقد أنه وصل إلى درجة لم يكن يعرف معها كيف ينفق أمواله !! فقد أشارت جريدة «نيويورك تايمز» أن ثروة الشاه بلغت ٢٠ مليار دولار نقداً وعداً فى بنوك سويسرا، وأنه يمتلك أكوماً لاتعد ولا تحصى من السجاد الإيراني الثمين ... بالإضافة إلى ١٥ قصراً منيفاً من القصور الملكية الأسطورية المنتشرة فى كافة بقاع الأرض ... وكان للشاه أسهماً لأحد لها فى ٢٧ بنك عامل وشركات تأمين فى دول وقارات العالم .. ويمتلك ملكية مطلقة وخاصة ٢٥ شركة لصناعة المعادن، و٨ شركات للتنقيب والبحث فى المناجم، و٤٥ شركة للأشغال العامة، و١٠ شركات لمواد البناء، و٤٣ شركة لصناعة وتجارة المواد الغذائية فى مختلف دول العالم، و٢٦ شركة تجارية أخرى تزاوّل أنشطة متعددة هذا بالإضافة إلى استحواده على ٧٠٪ من دخل المشاريع الفندقية فى إيران.

والشاه بهلوى كان موهوباً فى صرف الأموال وفى إقامة حفلات البذخ التي تفوق فى تصورها الأحلام، والتي خلقت إحساساً بالثورة داخل كل مواطن إيراني يعيش فوق أرض إيران أو خارجها ... وقد كان للشاه سقطتين كما يذكر المحللون السياسيون لهما الأثر الشديد فى إطلاق شرارة الثورة ضده، وأول سقطاته كانت فى تنظيمه لحفل كبير بمناسبة مرور ٢٥٠٠ عام على تأسيس إمبراطورية الفرس والتي أسسها قورش عام ٥٥٩ قبل الميلاد، وقد دعا إليها الشاه ٩ ملوك و٥ ملكات و١٣ أمير و٨ أميرات و١٦ رئيس دولة و٣ رؤساء للحكومات المختلفة و٩ شيوخ وسلاطين ... وأستطاع أن ينفق فى هذا الحفل ٥٠٠ مليون دولار على مدى ثلاثة أيام فقط !! ..

أما السقطه الثانية، فقد كانت فى إقامته لحفل آخر عام ١٩٧٦ بمناسبة احتفاله بالذكرى الخمسين لتأسيس أسرة بهلوى ... وقد أنفق فيه ٥٠٠ مليون دولار أخرى !! وأعلن وقتها إلغاء التقويم الإيراني المعتمد على هجرة الرسول واعتماده للتاريخ الذى يوافق تأسيس الأسرة الهخامنشية المالكة قبل الإسلام وهو تاريخ تنويج قورش العظيم ... ليكون تقويماً رسمياً للبلاد .. وقد أثار ذلك إستياء الشعب وغضب رجال الدين، وعمت حالة من السخط العام الذى لم يعد بعده واجبا أن تترك أى فرصة للشاه لعله يستطيع أن يصلح ما كسره بيده .. وقد أزداد الطين بله أن الشاه بهلوى كان صديقاً حميماً لإسرائيل ومتمسكاً بوجودها ... ولا يحيد عن اعترافه بهذه الصداقة .. كما أنه فى الفترة الأخيرة لحكمه أهان تعاليم الإسلام .. كما هو ثابت فيما كتب عنه قبل وبعد وفاته ..

واشتدت الثورة ضد شاه إيران .. وأصبح مهدداً بالإطاحة بحكمه، وربما بالإغتيال .. وهنا أعلن بكل غرور وتكبر أن من يريد أن يتحداه عليه أن يخترق سداً من ٧٠٠ ألف جندي يحمون عرشه .. وعندما كان مستشاروه يحذرونه من إندلاع الثورة والإطاحة كان يقول: الثورة يمكن أن تقوم فى إيران ولكن أنا الذى سأقودها !!!

ولكن الخناق ضاق عليه فى عام ١٩٧٨ ونصحته المخابرات الأمريكية بأن يترك البلاد

ولو مؤقتاً كما حدث أثناء ثورة مصدق عام ١٩٥٣ .. وبالفعل جمع الشاه كل مقتنياته وأمواله وخرج مع أسرته في ١٦ يناير ١٩٧٩ إلى أسوان وأعلن أنه سيقضى أجازة سنوية .. ثم قضى بها ستة أيام ومالبت أن تركها متوجهاً إلى الرباط عاصمة المملكة المغربية .. وفي ١ فبراير ١٩٧٩ عاد آية الله الخميني زعيم الثورة الإسلامية إلى طهران ليقود الثورة ضد شاه إيران ولينتهي قرابة ٣٨ عاماً من حكم الشاه .. الذي كان مازال خارج البلاد .. ولم يمضى شهر حتى بدأ الضيق يظهر على الأفق من استضافة المغرب لشاه إيران .. وكانت الدول تخشى على مصالحها في مختلف أنحاء العالم من جراء تهديد الخميني لضرب مصالح الدول التي كانت تفكر في استضافة الشاه في ذلك الوقت ومطالبتها للمجتمع الدولي بأن يقوم بتسليم الشاه للثورة الإسلامية حتى يمكن محاكمته .. وكانت تهديدات الخميني جادة ولا تحتل القيل والقال، فقد احتلت السفارة الأمريكية في طهران في ٤ نوفمبر ١٩٧٩ من قبل رجال الثورة والطلبة، وتم احتجاز ٥٠ رهينة في الوقت الذي سافر فيه الشاه إلى الولايات المتحدة الأمريكية للعلاج في خضم سلسلة البحث عن مكان يأويه ودولة تحميه .

وأمام إصرار الرباط على مغادرة الشاه لأراضيها وصل إلى جزر الباهاما في ٢٩ مارس عام ١٩٧٩، ثم إلى المكسيك من يونيو في نفس العام، ثم إلى بنما حيث أقام في جزر كونتا دورا، وعندما ساءت حالته الصحية معانينا من مضاعفات مرض السرطان لبي دعوة الرئيس أنور السادات التي كان قد أرسلها له مع أشرف غربال سفير مصر في الولايات المتحدة الأمريكية في الوقت الذي كان يعالج فيه الشاه في أمريكا، وفيها دعا السادات إلى العلاج والإقامة الدائمة في مصر .. وقد وصل الشاه محمد رضا بهلوي شاه إيران إلى مصر في ٢٥ مارس عام ١٩٨٠ لبدأ الفصل الأخير من فصول حياته في أقوى مواجهة في تاريخه .. مواجهته مع المرض ..

الشاه على فراش المرض

لهذا الرجل قصة طويلة ودامية مع المرض، استمرت ما يقرب من ٢٦ عاماً .. وتنوعت فيها الأحداث المرضية التي تعرض لها الشاه .. فقد عرف آلام البطن والجراحات منذ أمد بعيد .. كما أنه تعرض للإصابة بالفشل في وظائف بعض الأعضاء الهامة في الجسم .. وأصيب أيضاً بأمراض واضطرابات نفسية بالغة الصعوبة وأنهت حياته متأثراً بمرض السرطان .

فقد ذكرت بعض المراجع والمؤلفات العالمية التي تخصصت في التاريخ والتعليق على حكم الشاه، أنه قد أصيب بانفصام بالشخصية منذ مرحلة المراهقة، ولذلك فهو يقوم بتصرفات في غاية التناقض، ولا يمكن أن تصدر عن شخصية واحدة .. وقد دللوا على ذلك

بأن الشاه كان يتمسك دائماً بتراب إيران إلى حد التعصب الشديد الذي لا هوادة فيه ، وفي الوقت نفسه نجده مبهوراً بالحضارة الأوروبية ويريد أن ينقلها بحذافيرها لبلاده .. كما أنه كان يتكلم كثيراً عن الهوية والحضارة والتراث ووقنته إلى جانب الحق العربي والإسلامي ، واستعداده للدفاع عن المقدسات الإسلامية في الأراضى المحتلة .. حتى أنه يعد إيران لتصبح القوى الخامسة على مستوى العالم مع مطلع عام ٢٠٠٠ ، وفي نفس الوقت فإنه يعترف بصداقته لإسرائيل ، ويهين تعاليم الدين الإسلامي .. ويسرف في إنفاق موارد إيران في حفلات البذخ والترف ، في نفس الوقت الذي كان يعيش فيه الشعب الإيراني في حالة من الفقر والضياع قبل سيطرته على موارده وبخاصة من البترول .. ويذكر أيضا أنه عندما جاءت التحذيرات إلى الشاه من اندلاع الثورة ضده .. أكد أنه يعرف أن الشعب الإيراني مطحون ومكدرور ويعيش حالة من الاستفزاز وأنه بنفسه سيقود الشعب للثورة .!

والسؤال .. هل يقود الشاه الشعب للثورة ضد الشاه؟.

وهل يتزعم محمد بهلوى الثوار للإطاحة بمحمد بهلوى؟.

والثابت أن محمد رضا كان قد تعرض في صغره لتربية قاسية من والده كما أن شقيقته التوأم «أشرف» كانت تتسم بالغلظة وردود الأفعال العنيفة والقوية ويبدو أنه قد حدثت شروخ كثيرة في شخصية الشاه في فترة المراهقة ، جعلته يصبح عرضة لبعض الخلل النفسى والذي انعكست آثاره بالطبع على فترة حكمه .

وفي عام ١٩٥٤ .. كانت البداية الحقيقية لعاناة الشاه مع المرض ، فقد شعر ببعض التورمات فى الرقبة وفى منطقة الإبط ، وعلى الفور سافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، ودخل الشاه مستشفى نيويورك ، وبعد إجراء الفحوصات اللازمة تبين أن هذه التورمات هي عبارة عن تضخم فى الغدد الليمفاوية وذكر وقتها أن هذا التضخم يعود إلى بعض الالتهابات فى الغدد الليمفاوية ، وفى ٢٧ مارس ١٩٥٨ .. تعرض الشاه لظروف مرضية حرجة ، حيث لاحظ تكرار التضخم فى الغدد الليمفاوية فى أماكن متفرقة بالجسم .. كما أنه بدأ يشكو من آلام بالصدر والرقبة والذراع الأيسر .. وأصيب الشاه بانهيار عصبى حاد ، وبدأ الأمر يأخذ ستار من السرية ، ومنعت صدور أى نشرات طبية عن حالة الشاه .. وقد استدعى القصر البروفيسور «فلينجر» أخصائى الأمراض الباطنية بمدينة فيينا والذي أكد أصابة الشاه بأورام خبيثة ، وقصور شديد بالدورة الدموية التاجية للقلب ، وتصلب بالشرايين ..

وفى ٢٥ يناير ١٩٦٦ وصل شاه إيران إلى فيينا للاستجمام والعلاج وإجراء بعض الفحوص الطبية للوقوف على حالته الصحية .. وفى عام ١٩٦٧ أصيب الشاه ببعض الفشل فى أداء وظائف الكلى .. مع تكرار حدوث الآلام بمنطقة الحوض والجانب الأيمن .. وقد تم استدعاء أطبائه المعالجين ، وقد تمكنوا من السيطرة على هذه الآلام ، إلا أنهم قرروا بعد فحص الشاه أكلينيكيًا أنه مصاب أيضا بالتهاب بالزائدة الدودية .. جنباً إلى جنب مع آلام الكلى ،

وتم إجراء جراحة عاجلة له تم فيها استئصال الزائدة الدودية...، وفي ٢٤ نوفمبر ١٩٦٧ شهدت صحة الشاه تدهورا ملحوظاً، وتم نقله فوراً إلى مستشفى كورنيل ميديكال سنتر بولاية نيويورك بالولايات المتحدة الأمريكية.. وأعلن وقتها القصر أن التحليلات أثبتت احتمال إصابة الشاه بالسرطان، ولكن حدث نوعاً من التعتيم الإعلامي على التفاصيل الخاصة بحالة الشاه بعد ذلك..

وفي أواخر عام ١٩٧٣ تأكد أن الشاه مصاب بسرطان الدم «اللوكيميا» وقد شخص المرض الطبيب الفرنسي «جورج فلاندرين» أخصائي أمراض الأورام والغدد الليمفاوية واللوكيميا.. وظل يعالج الشاه في صمت ولا يعلم أحد شيئاً عن تطور حالته المرضية سوى أسرته وأقرب المقربين إليه..

واستمرت الحرب دائرة بين الشاه وبين المرض اللعين الذي يسيطر عليه، وهو يحاول أن يتغلب عليه بالعلاج الكيميائي والأشعاع واستخدام العقاقير الطبية ونقل كميات من الدم من نفس فصيلته، وكانت الأمور تتحسن حيناً وتسوء في أحيان كثيرة، حتى اشتدت المعارضة الداخلية والخارجية ضد الشاه.. ووجد نفسه محاصراً بين فلول الغاضبين والثائرين من أبناء الشعب الإيراني من جهة وبين مضاعفات المرض التي بدأت تشتد وتكشر عن أنيابها بعنف، حتى خرج الشاه من إيران مجبراً في عام ١٩٧٩، وهنا بدأت تسوء حالته النفسية جداً.. وأصيب باكتئاب حاد خاصة في الفترة التي قضاها متنقلاً ما بين المغرب وجزر الباهاما والمكسيك، حيث كان يعيش الرجل كالمجنون، وتشعر الدول والحكومات بكثير من الحرج لوجود الشاه على أرضها وأحس الرجل لأول مرة بأن كل ملياراته في بنوك العالم لا يمكن أن تعطيه في هذه الفترة العصبية شيئاً من الأمان.. وأنه لا يستطيع أن يطمأ بقدمه أرض أى قصر من قصوره المنيقة الترامية في كل أنحاء العالم.. وكان طبيعياً أن ينهار، ويرى الدنيا مظلمة في وجهه وبالذات وهو مستهدف من شعب كامل لم يكفه أنه خلع قائده وانقلب عليه.. ولكنه يريد حياً ليثار لنفسه من فترة حكم طويلة عاشها الشعب تحت سيف القهر والبطش والطغيان.. وهذه الحالة النفسية جعلت الشاه يصاب بحساسية شديدة للنزف، كما ظهرت أورام جديدة على جانبي الرقبة مما اضطر أطباءه إلى استئصالها جراحياً، ولم تمضى شهور بسيطة في منفاه المتنقل حتى اكتشف أطباء الشاه وجود التهاب شديد بالمرارة مع تكون حصوات بكيس المرارة والقناة المرارية.. وطلب الشاه أن يذهب إلى الولايات المتحدة لإجراء الفحوصات الطبية.. ووافقت الولايات المتحدة على إعطائه تأشيرة الدخول حيث دخل مستشفى نيويورك في ٢٢ أكتوبر ١٩٧٩، وبعد يومين من دخوله أجرى له الجراحون بالمستشفى جراحة لاستئصال المرارة، كما أثبتت نتائج التحاليل الطبية والمعملية أن الشاه يعاني من مرحلة متأخرة للغاية من السرطان في الجهاز الليمفاوي.. وبعد أسبوعين اندلعت في طهران المظاهرات لتندد بأمريكا التي تستضيف الشاه على أراضيها، وقام الطلاب الإيرانيون باحتلال السفارة الأمريكية في طهران واحتجاز خمسين رهينة في أسوأ أزمة

سياسية شهدتها الولايات المتحدة الأمريكية .. واضطرت الإدارة الأمريكية إلى تغيير سياستها تجاه الشاه الذى أصبح بالنسبة لها ورقة خاسرة تهدد مصالحها فى مختلف أنحاء العالم ..

وغادر الشاه مستشفى نيويورك فى ٢ ديسمبر ١٩٧٩ متوجهاً إلى مستشفى لاكلاند بولاية تكساس لقضاء فترة نقاهة، ثم غادر الولايات المتحدة بناء على إلحاح أمريكى فى ١٥ ديسمبر من نفس العام ليقيم فى جزيرة كونتا ودورا فى بنما .. وهناك واجه الشاه أسوء مراحل المرض وكان نزلياً فى مستشفيات بنما .. وحاول كثيراً أن يعود للولايات المتحدة لإنقاذ مايمكن إنقاذه من ويلات المرض التى يتعرض لها فى كل لحظة من لحظات حياته .. ولكن هذه المرة رفضت أمريكا ان تمنحه تأشيرة الدخول لأراضيها وشعر الشاه بآلام نفسية لأن صديق الأوس تخلى عنه اليوم وهو فى أشد الحاجة وأمسها إليه .. ولكن الولايات المتحدة أرسلت أطباءها إلى بنما لمباشرة علاج الشاه .. ورفض حاكم بنما عمر تريجوس السماح لأى طبيب أجنبى بفحص الشاه وهو لا يحمل ترخيصاً من حكومة بنما كما رفض استضافة أطباء أمريكيين بعد أن نمت إليه معلومات دقيقة عن الإعداد لمحاولة اغتيال الشاه عن طريق جراح أمريكى كان سيجرى له جراحة عاجلة لاستئصال الطحال .. وصرح عمر تريجوس بأن ما فعله ليس قيماً على الشاه ولكن حفاظاً عليه، وأنه حر فى التوجه إلى أى مكان فى العالم ..

وفى هذا الوقت كانت الدلائل والأبحاث تشير إلى أن الطحال فى جسد الشاه قد بدأ يتحول إلى غول مفترس يلتهم الصفائح الدموية ويهدد صحة الشاه بالاعتلال خاصة وقد أصابه هزال شديد .. وكانت جراحة استئصال الطحال أمراً حتمياً وطارقاً فى سبيل إنقاذ حياته، وأن إجراءها كان ضرورياً فى خلال ساعات وإلا فإن حياة الشاه ستصبح مهددة بالخطر .. وهنا تذكر الشاه الدعوة التى تلقاها من الرئيس الراحل أنور السادات للعلاج والإقامة فى مصر .. وقرر أن يحزم حقائبه ويغادر بنما مع أسرته إلى القاهرة .

الشاه مريضاً فى مصر

وصل الشاه إلى مصر بصحبة أسرته فى ٢٢ مارس ١٩٨٠ .. وكان فى استقباله بمطار القاهرة الرئيس الراحل أنور السادات والسيدة قرينته .. وفور هبوط الشاه من الطائرة لاحظ السادات أنه أصبح هزيلاً غائر العينين، وأنه فقد كثيراً من وزنه وبدا فى حالة صحية متأخرة للغاية .. فلم ينتظر السادات حتى يصل إليه الشاه ولكنه أسرع بمقابلته أمام سلم الطائرة، واحتضنه وبكى الشاه أمام السادات .. وكان أول ما تحدث فيه مع السادات هو شكواه من الولايات المتحدة التى رفضت إعطاءه تأشيرة الدخول للعلاج مرة أخرى .. وهنا خفف السادات عنه وقال له : المهم صحتك .. وسأله عن رحلته وكيف قضاه من بنما إلى القاهرة ولكن الشاه كان مرهقاً، ولم يعد قادراً على الاستفاضة فى الحديث، وأراد أن ينتقل فوراً إلى

المستشفى .. ولكن السادات أصر على استقباله استقبال الرؤساء والزعماء وقادة الدول ، فاصطحبه إلى قصر القبة ، وأقام له استقبالاً رسمياً كنوع من التكريم للشاه .. وبعد ذلك توجه الشاه إلى مستشفى القوات المسلحة بالمعادى بصحبة الرئيس السادات وقرينته السيدة جيهان السادات .. وقامت إدارة المستشفى بتخصيص الدور الثانى والغرف من ٢٠١ إلى ٢١٥ لإقامة الشاه حتى يستريح بعض الوقت بعد رحلته الشاقة من بنما إلى القاهرة ، وبدأ الأطباء على الفور فى فحص الشاه ، وعمل الأبحاث الطبية والتحليل المعملية اللازمة كنوع من الاستعداد لإجراء جراحة استئصال الطحال ، وعلى الفور تم تشكيل فريق طبي مصرى أمريكى فرنسى وذلك بعد استدعاء الدكتور فلاندران والأمريكى مايكل ديبكى والذى وصل إلى القاهرة على رأس فريق طبي مكون من ستة أطباء واشترك فى الفريق من الأطباء المصريين الدكتور طه عبدالعزيز والدكتور زكريا الباز والدكتور محمد عفيفى .

وفى هذا الوقت قامت الدنيا ولم تقعد ، لأن السادات تحدى إيران والعالم العربى والإسلامى ، بل لا أبالغ إذا قلت أنه تحدى حالة الاستياء الشديدة التى كان ينظر بها إلى الشاه فى معظم دول العالم .. وقرر أن يستقبل الشاه فى مصر .. وعندما استقبله فى مطار القاهرة أسرع أحد الصحفيين يسأل الشاه :- هل ستقيم فى مصر؟ ولم يترك السادات فرصة للشاه كى يجيب وقال : نعم سيقوم إقامة دائمة .. ، وقتها عقد السادات مؤتمراً صحفياً عالمياً ألقى فيه كلمة قصيرة قال فيها : «أهلى وشعبى فى مصر .. أنا فخور بكم .. فخور أننى كبير العائلة المصرية التى وقفت أمام العالم كله ، لتقول أن هناك قيماً ، وهناك عيباً وهناك حدوداً لكل مايمكن أن يقوم به البشر .. أنا فخور بكم أهلى وشعبى ولو لم يتحقق فى فترة حكمى إلا موقفكم معى من شاه إيران لاعتبرت هذا أروع إنجاز ممكن أن ينتهى به حكمى ..»

هكذا كان يرى الرئيس أنور السادات أن وقفته فى هذا الخنة جنباً إلى جنب مع شاه إيران وأسرته أمراً يمكن أن يختتم به حياته ، وهو مطمئن ، وقد كان السادات يعزى ذلك إلى أخلاق الإسلام الذى علمنا الرحمة ، وإغاثة الملهوف والوقوف بجانب الضعفاء فى أوقات المحن ، وأخذ السادات يشحن الرموز الدينية والوطنية فى مصر لتأييد موقف مصر من الشاه ، وانه برر وقفته مع الشاه كنوع من رد الجميل له وقال السادات : أن الشاه كان يمد مصر بالبتروى فى حرب أكتوبر بلا مقابل .. وأنه أول من أصر على الحضور إلى القاهرة عندما قررت مصر فتح صفحة جديدة مع إسرائيل ليسارع بموافقتة على مبادرة السلام التى قام بها الرئيس السادات .. وسئل السادات فى المؤتمر الصحفى : ماراكم على النقد الموجه لسيادتكم من الملوك والرؤساء العرب ؟ فقال السادات وهو يكتم غيظه : إنى صائم وأخشى أن أقول ما هو غير ملائم ..

وفى اليوم التالى لوصول الشاه إلى مصر أجريت له عملية نقل دم وكانت هناك مشكلة فى العثور على فصيلة دمه «ب سالب» وهى من الفصائل النادرة جداً والمعروف طبيياً أن هذه الفصيلة تمثل نسبة ١٤% فقط من فصيلة دم «ب» وقد تم التغلب على هذه المشكلة فى

أول مرة بعد أن تم العثور على متطوعين من نفس الفصيلة، وفي مساء يوم ٢٨ مارس ١٩٨٠ أجريت للشاه جراحة إستئصال الطحال بمستشفى المعادى بعد أن تمكن منه السرطان بدرجة مخيفة، وأجرى العملية أطباء مصريين وأجانب برئاسة الدكتور مايكل ديبكى واستغرقت الجراحة ساعة وعشرين دقيقة، وظل الشاه تحت الرعاية الطبية حتى يوم ١٩ إبريل ١٩٨٠ ..

وساءت حالة الشاه بعد إجراء الجراحة، وتدهورت تدهوراً شديداً، وبدأ يشعر بارتفاع فى درجة الحرارة وهبوط فى الوزن حتى أصبح وزنه ٥٠ كيلو جراماً فقط . وفى مستشفى المعادى أكتشف وجود خراج أسفل الحجاب الحاجز من الناحية اليسرى نتيجة التهاب بالبنكرياس .. وقيل وقتها أن الدكتور ديبكى أخطأ فى إجراء الجراحة الأولى . فقد لظ الجراح الأمريكى ذيل البنكرياس عند استئصاله للطحال فحدث بعض النزيف، ولكن الجراح ضغط على مكان النزف مما أدى إلى تكوين حويصلة تحولت فيما بعد إلى كيس حدث عليه التهاب، ثم أصبح بؤرة صديدية، وللأسف فقد كانت هذه البؤرة قرب قاع الرئة اليسرى وسبب ذلك إرتشاحاً فيها .. وقيل وقتها أن المخابرات المركزية الأمريكية استطاعت أن تنفذ مخططاتها لاغتتيال الشاه ببضع عن طريق الجراح الأمريكى مايكل ديبكى وأنه تعمد إحداث هذه الإصابة بغدة البنكرياس ثم رفض بعد ذلك وضع خرطوم جانبي وهو ما يعرف طبيياً «بالدرنقة» فى مكان الجرح لسحب التجمعات الصديدية .. وقد أذهل ذلك الأطباء المصريين المشاركين فى الجراحة وحاولوا إقناع ديبكى بوضع الخرطوم ولكن دون فائدة، فقد كان الجراح الأمريكى هو رئيس الفريق وأقدمهم وأكثرهم خبرة، وتعلل بأنه ينتهج أسلوب المدرسة الأمريكية فى الجراحة فلم يضع خرطوماً مكان الجرح ليسحب به التجمعات الصديدية وأى دماء ملوثة من آثار النزف ..

وبالطبع كان الشاه مصاباً بسرطان الغدد الليمفاوية ومعنى ذلك أن جهازه المناعى معطل ويعانى من هبوط فى وظائفه ومن السهل أن تكون هذه البؤرة الصديدية كفيفة بالقضاء على حياة الشاه، وسواء كان ديبكى قاصداً من عدمه فإن خطأه هذا عجل بحياة الشاه .. وأدخله فى سلسلة من المضاعفات التى لم يستطع الأطباء إيقاف مضاعفاتها فارتفعت درجة حرارته إلى ٤٠ درجة ولم تفلح أجيال المضادات الحيوية المختلفة فى إيقاف ارتفاع درجة الحرارة، وكان هذا الارتفاع فى الحرارة يعاوده قرابة ٦ مرات فى اليوم، وتستمر المرة الواحدة حوالى ٣ ساعات . ثم أصبح ارتفاع الحرارة مستمراً طوال اليوم تقريباً ..

وأنكر مايكل ديبكى مسئوليته عن ما حدث وقال : «إننا فى أمريكا لانضع هذا الخرطوم الذى تتكلمون عنه !!؟ وأننى نجحت فى استئصال الطحال الذى كان مصاباً بالسرطان وانتشر منه إلى الكبد» .. وسافر ديبكى إلى أمريكا تاركاً الشاه يواجه المحنة بمفرده .. وقيل أن يسافر منحه السادات نيشان الجمهورية من الطبقة الأولى ومنح فريقه المعاون نفس النيشان من الطبقة الثانية .. وقتها وقف مايكل ديبكى يقول للسادات : عندما يكتبون تاريخ القرن العشرين سوف يجدون هرمين بارزين : تشرشل والسادات، وعندما

سمع شاه إيران هذا التعليق ضحك وقال : كيف يجتمع تشرشل والسادات فالأول هو الذى وضع الثانى فى السجن ..

ولم يتوقف علاج الشاه بالعقاقير الكيميائية ولا بالمضادات الحيوية .. ولم يتوقف أيضاً الارتفاع الشديد فى درجة الحرارة .. وفى ٣٠ يونيو ١٩٨٠ أدخل الشاه لغرفة العمليات مرة أخرى لإزالة البؤرة الصديدية الملتهبة بغدة البنكرياس ، كما تم سحب الإنسكاب البلورى تحت الرئة اليسرى . وقد أجرى الجراحة فريق طبي مصرى فرنسى وفى هذه المرة تم تركيب خرطوم لسحب الإفرازات والمواد والسوائل الضارة من مكان الجراحة .. ولم تمضى أيام حتى عاد الإنسكاب البلورى مرة أخرى وتجمعت السوائل تحت الرئة اليسرى ، ولكن هذه المرة كانت مختلطة بالدماء ، وفى ٤ يونيو ١٩٨٠ أصيب الشاه بحالة تلوث عام فى دمائه ، وأعلنت درجة الحرارة عصيانها بصورة غير عادية إلى الدرجة التى اضطر عندها الأطباء إلى استيراد مضاد حيوى من فرنسا للقضاء على التلوث مع استمرار تغذية الشاه بالمحاليل المختلفة عن طريق الوريد .. وأصدر مدير مستشفى المعادى نشرة طبية أكد فيها ان استعادة الشاه لصحته لن يكون بسهولة .. وكان الشاه لا يستطيع النوم رغم مايتناوله من عقاقير مهدئة ، وأرجع الأطباء ذلك إلى إصابته بأزمة نفسية طاحنة ، وبالرغم من ذلك فقد حدث هبوط تدريجى فى درجة الحرارة فبلغت ٣٨ درجة وتم نقل صفائح الدم المركزة لرفع مقاومة الجسم مع الاستمرار فى متابعة الجراح والتشفيط وسحب الإرتشاحات المتكررة مع تدريبات التنفس والقفص الصدرى المستمرة لمحاولة علاج مضاعفات الإرتشاح ، والتى نجم عنها إلتصاقات عديدة .. وبدأت الكلى تعمل لأول مرة بكفاءة منذ دخول الشاه إلى مستشفى المعادى ، وأفرزت ٢ لتر من البول وبدأ الإقلال من المحاليل التى تم الاستعاضة عنها بتناول الطعام والشراب عن طريق الفم .. وليس خافياً أن الشاه أيضاً كان مصاباً بقصور حاد فى شرايين القلب ، وأن آلام القلب عاودته كثيراً أثناء رحلة علاجه بالعقاقير الكيميائية ، ولكن أطباؤه كانوا يسيطرون على الموقف بصورة طبيعية وسريعة وكان همهم الأكبر هو محاولة محاصرة السرطان حتى لا ينتشر فى كافة أجزاء وأعضاء الجسم .. ولكن باءت محاولاتهم كلها بالفشل ..

وفى يوم ١٢ يوليو ١٩٨٠ غادر الشاه فراشه لأول مرة خوفاً من إصابته بقرح الفراش ، وخاصة بعد أن تبين وجود خراج جديد فى عنق الفخذ الأيمن من المنطقة الأربية وهى منطقة مليئة بالغدد الليمفاوية المصابة ، وهنا أدرك الفريق الطبى المعالج أنه لا أمل فى العلاج بالمضادات الحيوية ، وقرروا على الفور إيقاف العلاج بالمضادات الحيوية ، ربما ترتفع مقاومة الجسم الطبيعية ، وتستطيع التغلب على التلوث البكتيرى الذى تتعرض له الدورة الدموية فى جسد الشاه .. ورأى الأطباء بعد ذلك استئصال خراج الفخذ بالفعل تم إجراء الجراحة فى يوم ١٦ يوليو ١٩٨٠ بمستشفى المعادى للقوات المسلحة ، وكان الخراج فى حجم البرتقالة ، ولكن بالرغم من ذلك لم تنخفض درجة الحرارة ، بل واصلت ارتفاعها المستمر فى نفس الوقت الذى

كانت فيه مقاومة الجسم قد وصلت لدرجة الصفر، مما اضطر الأطباء للعودة مرة أخرى للعلاج بمضاد البنسلين المائي بمعدل ٢ مليون وحدة كل ٦ ساعات في محاولة منهم للسيطرة على درجة الحرارة.. ولكن كانت الأمور تسوء دائماً على عكس المخطط لها.. وساءت حالة الشاه بصورة قاسية.. ودخل في حالة أشبه بالغيبوبة، ولما وصلت هذه المعلومات عن صحة الشاه إلى الرئيس السادات وجه دعوة لجموع الشعب المصري للصلاة من أجل شاه إيران..

ومنذ وصول الشاه إلى مصر أجريت له ٤٠ صورة أشعة من نوع إكس و ٥٢ تحليلاً لدم وبول الشاه و ٢٢ عملية نقل دم، وأشرف على علاجه في المرحلة ما بعد إجراء استئصال الطحال ٢١ طبيباً منهم ١٥ طبيب مصري و ٥ أطباء فرنسيين وطبيب أمريكي متخصص في طب الأورام..

وأصيب الشاه بصدمة في الدورة الدموية وتوفى على أثرها في ٢٧ يوليو ١٩٨٠ ووقف السادات يعنى الشاه ويكيه وهو يقول: أن الرجل اختار وهو يعانى أخطر مضاعفات المرض أن يحضر إلى مصر لأنه يطمئن ويثق في كلمة مصر، وشرف مصر.. وكان له ما أراد بل لعله يستشف الغيب عندما ردد أنه يرجو أن يموت على أرض مصر، عندما تحين الساعة ولقد كانت رغبة الشاه أن تكون جنازته بسيطة بعيدة عن الإجراءات..

ورفض السادات دعوة الرؤساء والملوك للاشتراك في الجنازة ولكن حرص أن تكون رسمية وعسكرية بما يليق بمكانة الشاه كرئيس سابق لإيران.. وبدأت الاستعدادات على قدم وساق ليُدفن الشاه إلى جانب والده بجوار الملك أحمد فؤاد في مسجد الرفاعي.. وقد حضر الجنازة الرئيس الأمريكى الأسبق نيكسون وقسطنطين ملك اليونان السابق وممثل عن المغرب..

وصدر تقرير طبي عن وفاة الشاه ذيله اللواء طبيب أحمد سامى كريم مدير مستشفى المعادى للقوات المسلحة وقيل فيه: أنه نفذت إرادة الله ومشيتته وفاضت روح الشاه في ٢٧ يوليو ١٩٨٠ إثر تأثره بصدمة في الدورة الدموية، نتيجة مضاعفات متعددة، وإصابته بتلوث في الدورة الدموية وأجريت له الاسعافات اللازمة بالعناية المركزة ولكن دون جدوى.. وقد وقع على هذا التقرير كل من:

الدكتور طه عبدالعزيز الطبيب الخاص للرئيس السادات وأخصائى الباطنة والقلب، واللواء دكتور زكريا الباز رئيس أقسام الباطنة واللواء دكتور عبد الحميد لطفى رئيس أقسام الجراحة واللواء دكتور عبدالقادر عثمان رئيس قسم جراحة القلب والصدر، واللواء دكتور فؤاد نور رئيس قسم جراحة الأورام، واللواء طبيب محمد عفيفى رئيس قسم أمراض الدم والمعامل، والعميد طبيب أحمد عبدالله استشارى العناية المركزة والتخدير والدكتور جورج فلاندران أخصائى أمراض الدم بباريس، والدكتور بيير لويس أخصائى جراحة الجهاز الهضمى بباريس، والدكتور دنيس أخصائى العناية المركزة بباريس..

ومات الشاه.. محمد رضا بهلوى شاه إيران الذى ظل يحلم طوال حياته بإيران العظمى.. لدرجة أنها لم تكن تغيب عن عينه.. ثم غابت هى عن عيون الشاه.. وكان آخر ما يحتفظ به من رائحتها وعبقها حفنة من تراب إيران.. أخذها بيده قبل أن يترك البلاد ويستقل طائرته إلى النفى..

هكذا يموت الأسياد والأمراء.. ويلفظون أنفاسهم.. بعد أن ظنوا لأمد بعيد يعتقدون أن الموت بعيد عن رقابهم..

تأثير المرض على فكر وعقلية الشاه

حين نقرب من شخصية الشاه محمد رضا بهلوى نجد أن بها متناقضات كثيرة وغير طبيعية تدفعنا على الفور إلى البحث عن نوعية هذه الشخصية من الناحية النفسية، والمعروف لدى علماء الطب النفسى أن هناك ستة أنواع من الشخصيات غير السوية التى تتحدد التركيب النفسى للإنسان والتأثيرات النفسية الواقعة عليه، وهذه الشخصيات هى الإنطوائية والتابعة والهيستيرية والانفصامية والوسواسية وأخيراً الشخصية الإضطهادية المتكبرة.. وفى اعتقادى أن الشاه محمد رضا بهلوى لم يكن مصاباً بانفصام فى الشخصية كما ذكرت بعض المؤلفات والصحف المصرية والعالمية التى تناولت حياة الشاه بعد وفاته ولكن أثرت فى شرح التاريخ المرضى له أن أذكر هذا الرأى مع أننى أعارضه لأسباب علمية واضحة.. وقبل أن أتحدث فى هذه الأسباب أحب أن أفصح أن مرض الشيزوفرينيا أو انفصام الشخصية كما يحب البعض أن يطلقوا عليه معناه أن يصبح للإنسان أكثر من شخصية متصرفه فى شئون حياتية معينة وفى نفس الوقت لاتتداخل شخصية على أخرى، ولاتشعر أى شخصية بتصرف الشخصية الأخرى، ويكون ذلك فى حالة من الانفصام العقلى وتغيب على أثره إحدى هذه الشخصيات عن الواقع لتترك الفراغ للشخصية الأخرى ثم يحدث تبادل بينها وهكذا.. ولهذا المرض عدة أنواع والعلاج منه يكون ميثوسا إلى حد ما.. وكما هو معروف علمياً أن حالات كثيرة من مرضى الشيزوفرينيا ثبت أنها تعود إلى العامل الوراثى بنسبة كبيرة، وأن هناك فرصة لأن يصبح الأطفال معرضين للإصابة بالمرض بنسبة ١٢٪ إذا ما كان أحد الوالدين مصاباً بالشيزوفرينيا وأن هذه النسبة ترتفع إلى ٣٥٪ إذا كان كلا الوالدين من مرضى الانفصام العقلى أو الشيزوفرينيا.. والثابت فى حالة شاه إيران أنه لم تصدر أى معلومات تؤكد أن والديه كانا مصابين بهذا المرض.. بالإضافة إلى أن مريض الشيزوفرينيا يكون غالباً وإلى حد بعيد من أصحاب الشخصية الانفصامية، وهذه الشخصية تتميز بالإنطواء والإنسحاب من المجتمع والخوف من العلاقات الاجتماعية والاختلاط وتصبح عرضه للإصابة بالشيزوفرينيا أكثر من غيرها من الشخصيات الطبيعية، ربما ينبع فإن شاه إيران لم يكن من هذه الشخصية مطلقاً والدليل أنه كان اجتماعياً لدرجة كبيرة وتزوج ثلاثة مرات، وكان يهوى إقامة الكثير من الحفلات التى يدعو فيها زعماء العالم، كما أنه كان

يحب الترحال والتجول في دول العالم وكل هذا يجعلنا نستبعد عنه صفات الشخصية الإنفصامية ذات الأبعاد الإنطوائية .. بالإضافة إلى أن سن المراهقة والذي أدمى اغلابلون أنها السن التي أصيب فيها الشاه بالانفصام ليست هي السن الشائعة للإصابة بالشيزوفرينيا ، كما أن الأسباب الأخرى التي تؤدي للإصابة بهذا المرض لا يمكن ثبوتها على الشاه مثل تكرار إصابته بالعدوى الفيروسية وهو صغير أو بأمراض في المخ وهي كلها أسباب قد تؤهل للإصابة بالمرض ، ولكن التاريخ المرضي للشاه لم يتناولها ولم يذكرها دلالة على عدم حدوثها .. وينبغي أن نذكر أنه لم يسجل على الرجل مطلقاً أنه عاش بشخصيتين منفصلتين تماماً لا ترتبط كلاهما بالأخرى .. وإلا كان معاونوه ووزراؤه لاحظوا ذلك في تعاملاتهم اليومية معه بالإضافة أيضاً إلى زوجته وأسرته والتي لم يصدر منهم أى شكوى بخصوص هذا الأمر ..

ولكن أغلب الظن أن شخصية الشاه كانت هي الشخصية الاضطهادية المصابة بالبارانويا وهي شخصية تعتنق مبادئ خاطئة ، وتصبر على تنفيذها حتى بعد ثبوت الأدلة أمامها على خطأ هذه المبادئ ... غير أنها شديدة الحساسية للنقد والتنديد والتعيب ، وتثور إذا ما شعرت بالتحقير والإهانة إلى حد يمكن أن ترتكب فيه أبشع الكوارث للخروج من سجن الإذلال النفسى الذى تعرضت له هذه الشخصية بسبب الإهانة والتحقير .. وهذه النوعية من الشخصيات تدافع عن ماتراه أنه حقها بكافة الوسائل المشروعة ، والغير مشروعة وباستخدام القوة والعنف بل تدفع البراهين الكاذبة لإثبات حقها بالإضافة إلى أنهم يشعرون بأهميتهم فى المجتمعات المختلفة وتنقل هذه العدوى تبعاً إلى أسرهم .

هذه هي شخصية الشاه محمد رضا بهلوى .. فقد كان عنيفاً مع المعارضين ودموياً مع الثائرين ضده إلى حد أنه أباد ستين ألف فتى وفتاة من طلبة الجامعة فى محاولة لردع ثورة الطلاب ضده .. وأسوأ ما كان يضيره هو تحقير زعيم الثورة الإسلامية آية الله الخومينى له .. مما دفعه إلى طرده من إيران ونفيه خارج وطنه ، وهذا آثار ضده بالطبع النفوس الثائرة ، وأشعل فيها رغبة الانتقام .. والمعروف أيضاً أن الشاه كان يأخذ قرارات خاطئة ومثيرة تعود إلى تركيبته النفسية التى حللناها من قبل .. فمثلاً كان يسمح لنفسه بالتصرف فى مليار دولار كل عام فى أوجه انفاق مختلفة من أجل ما يراه مناسباً لرفع هيبة الدولة وإعلاء مجدها وإحياء تاريخ الإمبراطورية الفارسية القديمة !!

وكان يتكلم كثيراً عن مساندته للدول العربية والإسلامية فى مواجهة إسرائيل وهو فى الأصل كان يمد إسرائيل بالبترول الإيراني عندما استخدم العرب سلاح البترول فى حربهم ضد إسرائيل ، وامتنعوا عن تصدير النفط إلى دول أوروبا وأمريكا .. واستغل الشاه هذه الفرصة ورفع أسعار البترول وباع لإسرائيل وقود آلة الحرب الصهيونية على عكس ما قيل على لسان السادات من أن شاه إيران كان يمد مصر بالبترول بلا مقابل أثناء حرب أكتوبر .

وهذه التصرفات طبعاً تعود إلى شخصية الشاه المصابة بالبارانويا والتي تتصرف تصرفات خاطئة، وتصر على تنفيذها رغم أن أقل قدر من التفكير يجعله يقرر بسهولة أن مصلحته مع العالم العربي والإسلامي وليست مع إسرائيل .

ومما يؤكد أن شاه إيران كان مصاباً بجنون العظمة ما ذكرته المثلة الإيرانية الجميلة بارفين غفاري عن علاقتها بالشاه وقالت عن نفسها أنها وقعت في فخ الشاه حتي الظلام، وأنه عاشها معايشة محرمة منذ أن كان شاباً، وكان يضربها ضرباً مبرحاً ويتعامل معها وهي النجمة اللامعة الساطعة على أنها جارية أو خادمة حقيرة في بلاط ملكه.. وأنه كان نهما جنسياً وممارسته تقترب إلى الحيوانية، وذات مرة صارحته بأنها حامل فركلها ركلة شديدة ومباغته في بطنها حتى يجبرها على الإجهاض .

وحين قالوا للشاه أن الشوار على مقربة من قصرك وأن الثورة توشك أن تندلع، أجاب بأنه الثائر الكبير في إيران وأنه سيقود الثورة بنفسه ويبدو أن هذا كان اقتناعه الشخصي ورأيه الذي تمسك به حتى بعد أن رأى نار الثورة تضطرم أمامه وتشتعل في وحشية وغضب وأن الخطر محقق به لامحاله ولكنه أصر بقوة وثبات على مواقفه الاستفزازية التي تغضب الشعب، واستمر في نزيف الأموال الذي كان يتقنه ولنا أن نتصور كم تبلغ ثروات إيران إذا عرفنا أن البترول وحده كان يدر عليها مائة مليون دولار مع مطلع كل شمس، ومع ذلك لم يكن لعامة الشعب الحق في الاستفادة من هذه الثروات .. وهذا ما خلق حالة السخط العام ضد الشاه وساهم في اسقاطه .. وتصرفه في هذا الموقف بالذات كان الدليل الأكيد الصادق على شخصيته المصابة بالبارانويا ..

وفي هذه الظروف العصبية وسكينة الإرادة الشعبية فرق رتبة الشاه أعلن بكل تحدى وصلف وغرور أن من يريد أن يتحداه عليه أولاً أن يخترق سداً من ٧٠٠ ألف جندي يحمون عرشه، وهذا هو هوس العظمة الكاذبة بلاشك أو جدال .. ولو كانت هذه العظمة حقيقية، وتستمد وجودها وقوتها من رضاء الشعب المحكوم لما هرب الشاه من إيران فراً وكراً دون أن يحاول أن يستخدم جنوده السبعمئة ألف المدجحين بالسلاح، وفي ثورة رئيس وزراء محمد مصدق .. لم يحاول الشاه النظر حتى في الأسباب التي دفعت رجله ورئيس وزراءه في الثورة ضده .. بل كان شديد الحساسية بالتنديد والتعيب في حقه، وهرب للخارج بناءً على نصيحة أمريكا ولكنه كان يعد الفخ لمصدق على يد واحد من جنرالات جيشه الذين يسبحون بحمد الشاه ليلاً ونهاراً ..

وبالتأكيد فإن حجم الثروات الطائلة والتي لانهاية لها وعشرات الشركات والمصانع والمؤسسات التي كان يملكها الشاه واستحواده على ٧٠٪ من دخل المشاريع الفندقية في إيران .. لهو تنامي متزايد في الثروات لا يفسره إلا حب العظمة، خاصة إذا كانت ثروته الشخصية تكفي لإدارة دولة كبرى وأن شعبه في حاجة لأن يستفيد من ثروات بلاده .. لا أن يستولى عليها الشاه المهووس بعظمته الذي لم يترك شيئاً إلا وبالغ فيه وأسرف في الانفاق

عليه .. حتى أجهزة التليفون فى قصره كانت من الذهب الخالص المرصع بالأحجار !!!
إلى هذا الحد يبلغ الثراء؟

إلى هذا الحد يبلغ الإكتفاء .. وشعوب بأكملها تُباد فى العالم من أثر المجاعات وانتشار
الفقر والمرض والضياع؟

ولن يأخذنا الحديث بالطبع لنتجاوز الأمراض الأخرى التى عانى منها الشاه طوال
حياته ويمكن الجزم بأن المرحلة المؤثرة فى مرضه وهى الثمانية عشر شهراً التى قضاه فى
نهاية حياته خارج بلاط السلطة يحارب مرض السرطان اللعين .. هى الفترة التى يمكن أن
تدفع الشاه لاتخاذ قرارات معينة ومؤثرة ولكنه كان خارج الحكم والسلطة .. وحكمه لم
يتأثر بمرضه العضوى كما تأثر بتربيته النفسية التى توسعت فى شرح جزئية منها .. أما
مراحل المرض الأخرى على مدار ستة وعشرين عاماً فى حكمه فالثابت أنها لم تؤثر فى قراراته
لأن شخصيته المصابة بجنون الاضطهاد وهوس العظمة كانت أكبر من أن تتأثر بهبوب
العواصف المرضية من حين لآخر، فقد كان الشاه يعتقد أنه بعيد عن الموت وأن السد المنيع من
جنوده كفيلى بأن يدفع عنه كل الشرور والآثام والحزن ولا يفوتنى أن أذكر أن الأثر
السلبى الأكيد لرحلته المرضية عبر سنوات حكمه هو فى أن المرض جعله أكثر قلقاً وخوفاً
على كرسي الحكم الذى خشى أن يتركه دون أن يحقق مجد إيران العظمى ..

ولكنه غرق فى العظمة وهوس العظمة ..

وبكى الملك الذى لم يبكى من قبل وهو يشكو أصدقاءه الذين نفرُوا منه فى مسجدة
مرضه ..

وفى آخر لحظات حياته .. وعندما أدرك أن اللحظة الحاسمة على وشك الانقضاء طلب
من الرئيس السادات أن تكون جنازته بسيطة، وعادية مثل جنازات عامة البشر .. وكان هذا
هو أصدق قرار أخذه الشاه فى حياته ..

ويبدو أنه تأكد أن الكفن بلا جيوب ..

ولكن السادات حرمه من أن يعود إلى ربه بسيطاً كما جاء إلى الدنيا ضعيفاً، وأوصله
حتى بوابة قبره بالدفوف والمزامير وعلى عربات المدافع وفى صحبة الكبار الذين لا يملكون
من أمرهم شيئاً مثل الشاه تماماً !!

والثواب والعقاب دائماً .. علمه عند الله ..

وغاب الشاه عن العالم ..

وبعده بأقل من عام .. مات صديقه أنور السادات .

رونالد ريجان

«الشيخوخة... تحكم أمريكا»

الرئيس الأمريكي الأسبق رونالد ريجان .. أو الرجل ذو الملامح الزجاجية كما كانت تطلق عليه الصحافة العالمية، وهو أكثر الرؤساء الأمريكيين الذين صنعوا الهيبة الأمريكية، وجعلوا العالم كله يهيب واقفا باحترام مجرد أن يذكر اسم «أمريكا»، ومع ذلك فقد كان هذا الوحش الأمريكي القوى رونالد ريجان يذوب في جلده وينتفض قميصه على صدره لسرعة دقات قلبه، إذا جلس في مكان مغلق إلى الحد الذي يمكن أن يفقد معه أعصابه وسطوته ونفوذه.. وكان لرونالد ريجان حكاية غريبة مع عقدة الأماكن المغلقة التي بدأت مبكراً مع بذوغ مراهقته، حينما كان يستقل السيارة مع والده.. وأخذ الأب يقود سيارته بسرعة جنونية ليلحق بميعاد مهم، فإذا به يفقد سيطرته على السيارة التي انقلبت لعدة مرات قبل أن تستقر على أحد جوانبها، وهنا عجز الأب وابنه رونالد عن فتح أى من الأبواب ونوافذ السيارة، واكتشف رونالد ريجان لأول مرة أنه لا يطيق البقاء في هذا المكان الضيق، فشعر باختناق شديد، ورهبة لم يشعر بها من قبل حتى اعتقد أنه على مشارف الموت مجرد أنه لا يستطيع أن يخرج من السيارة.. وقد تم إنقاذه مع والده، لكن عقدة الخوف من الأماكن المغلقة ظلت تلازمه، وتشكل نقطة ضعفه حتى بعد أن أصبح رئيساً لأقوى دولة في العالم، والتي تمنح من يقودها لقب «سيد العالم».

وقد ولد رونالد ريجان صباح يوم ٦ فبراير عام ١٩١١ فى ١١١ شارع ماين بمقاطعة تامبيكو بولاية إلينوى الأمريكية، والتي تقع فى موقع متوسط بالولايات المتحدة الأمريكية، وهى الولاية التى تنتمى إليها مدينة شيكاغو التى تشتهر بحرب العصابات، وريجان هو سليل أب يدعى وليام فرانسيس ريجان وشهرته جاك وأم ريفيه اسمها نيل ويلسون، وهى بروتستانتية ومتدينة إلى درجة كبيرة وكان يطلق عليها لقب القديسة، وكان الأب يعمل مندوباً لبيع الأحذية والملابس لصالح أحد المتاجر المتخصصة فى مقاطعة تامبيكو، ويبدو من مظهره أنه مهندم ومهتم بملابسه، وربما يعود ذلك إلى طبيعة عمله التى تقتضى بأن يكون مقنعا للعملاء حتى يستطيع ترويج سلعته، والطبيعى أن المظهر يعتبر من أدوات الاقناع فى مثل هذه الوظائف، ولكن على عكس الأم فقد كان الأب مدمناً للخمر يحب اللهو واللعب، ويكره أن يذهب لأداء الصلوات فى الكنيسة الكاثوليكية التى ينتمى إليها.. وكان يعمل قبل ذلك فى شرطة ولاية بوسطن الأمريكية حتى فصله حاكم الولاية كالفن كوليدج فى

سبتمبر عام ١٩١٩ عقاباً له على اشتراكه في إضراب كبير عن العمل ضمن مجموعة من رجال الشرطة الذين اعترضوا على أحوالهم المعيشية، وتدمروا من ضعف رواتبهم التي لم تكن تضمن لهم حياة كريمة في هذا الوقت، وأند قضى رونالد ريجان تعليمه في مدرسة نورث سايد العليا، ثم التحق بعد ذلك بكلية أوريكا، وعندما أنهى دراسته الجامعية وجد نفسه مائلاً للعمل في مجال الإعلام الذي كان يجذبه كثيراً، ويشبع رغبته ويشعره بذاته، فعمل في بداية حياته العملية معلقاً على البرامج الرياضية بالإذاعة، ثم استهواه بعد ذلك العمل في التمثيل حيث شجعه قربه من أوساط الفنانين والممثلين في عرض موهبته الفنية التي لاقت استحساناً كبيراً من المخرجين والمنتجين، وقد أتاح له ذلك القيام ببطولة عدد من الأفلام السينمائية الناجحة في الفترة من عام ١٩٣٧ وحتى عام ١٩٦٤.. وخلال هذه الفترة أيضاً عمل منتجاً لبعض الأفلام في السينما الأمريكية.. وقد أخذت هذه الموهبة كل كيانه وإحساسه وتفرغ لها تماماً لأنه كان يشعر بتحقيق ذاته من خلالها.. ولكن عقله كان مشغولاً بحلمه الأكبر الذي لم تكن الفرصة قد سنحت بعد لتحقيقه.. فقد كان مغرمًا بالسياسة إلى حد كبير..

وفي عام ١٩٤٨ دق قلب ريجان بشدة عندما اقتحم الحب قلبه بعنف، وتمكن منه فقلب حياته رأساً على عقب، وعرف لأول مرة معنى سهر الليالي عندما تعصى الأجناف وأمر سيدها، وترفض أن تسدل ستائرهما على العيون لتعرف معنى الراحة والنوم.. وكان ذلك عندما التقى رونالد ريجان بالنجمة الأمريكية الشهيرة جين وإيمان التي ولدت في ٥ يناير عام ١٩٢٥ في ولاية ميسوري الأمريكية وكان اللقاء بريجان أثناء تصوير فيلم الأخوة.. ورغم أن ريجان كان قد شعر بطعم الحب من قبل وهو طفل في العاشرة من عمره عندما أقام علاقة عاطفية تشوبها مراهمقة الأطفال مع ابنة رجل دين تدعى مارجريت، إلا أن هذه المرة كانت تتسم بالنضوج وبخبرة السنين.

وجين وإيمان ممثلة لها وضعها في السينما الأمريكية، وهي التي قامت ببطولة المسلسل الأمريكي الشهير فالكون كريست ولعبت فيه دور المرأة القوية «أنجيلام»، وقد وجدت ضالتها في ريجان عند بداية تعارفهما في أوائل عام ١٩٤٠، وفي ربيع عام ١٩٤١ رزقا بمولودتهما مورين التي كانت بمثابة الزهرة التي تفوح رائحتها الذكية على حياة الحببيين ريجان وجين، فتزيد من رباطهما القوي يوماً بعد يوم.. وفي نفس هذه الفترة بدأ ولع رونالد ريجان بالسياسة، واتجهت ميوله نحو الديمقراطية ومبادئ الحرية وأعجب كثيراً بالرئيس الأمريكي السابق فرانكلين روزفلت الذي قاد أمريكا من فوق كرسيه المتحرك، والمعروف أن رونالد ريجان قد أعطى صوته الانتخابي لفرانكلين روزفلت في المرات الأربعة التي رشح نفسه فيها رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية.. وكان تأثر ريجان بفرانكلين روزفلت قويا للغاية إلى الدرجة التي جعلته يتجه إلى الديمقراطية ليبدأ أولى خطواتها العملية في مجال

السياسة ولكن بعد أن تعمقت علاقته بالحزب الديمقراطي لم يجد ضالته في مبادئ هذا الحزب، وسرعان ما فترت علاقته بالديمقراطية وحلت محلها صلاته بالجمهوريين، وبدأ يعد نفسه لخوض الانتخابات البرلمانية على مبادئ الحزب الجمهوري ..

وقد تزامن مع هذه الأحداث أن جين وايمان قد أصبحت نجمة شباك في السينما الأمريكية، وتزايدت عليها العروض الإنتاجية المغربية للقيام بطولات أفلام سينمائية كبيرة، وارتفع أجرها بصورة مذهلة إلى الحد الذي كان يبلغ فيه أجرها خمسة أضعاف أجر رونالد ريجان عند اشتراكه في تمثيل أحد الأفلام السينمائية .. وشعر ريجان بأن جين وايمان لم تعد هي الحبيبة الأولى التي رق قلبه لها بشدة عندما رآها لأول وهلة في استديوهات السينما عام ١٩٣٨، فقد انشغلت كثيراً بنجوميتها وشهرتها، الأمر الذي ضايق ريجان وجعله يعيد حساباته نحو علاقته بزوجته جين وايمان، ومن الأمور التي أثارت غضب ريجان هو رغبته في إنجاب طفل آخر إلى جانب ابنته مورين، ولكن جين وايمان رفضت وقالت له: ليس لدى وقت للحمل والولادة، واقترح عليه في عام ١٩٤٥ أن يتبنيا الطفل «مايكل»، بعد ولادته بساعات .. وقد وافق رونالد ريجان على هذه الفكرة مرغماً ولكن لسان حاله كان يقول «ما باليد حيلة» !!

وتقول بعض المصادر أن جين وايمان نفسها قد استشاطت غضباً من انصراف ريجان عنها إلى السياسة، وعالمها الذي لا يوجد سقف له .. وكانت ترى أن رونالد ريجان يجب أن يظل منتجاً ومثلاً، وأن السياسة ليست لعبته .. ولكن ريجان كانت له رؤية أخرى في ذاته وفي ثقته بإمكاناته الشخصية التي أهلتها فيما بعد ليصبح رئيساً لأقوى دولة في العالم .. وبعض المصادر الأخرى ذكرت أن الخلاف الذي وقع بين رونالد ريجان وزوجته جين وايمان يعود إلى غيرته من نجاحها وحصولها على أجر يعادل خمسة أضعاف الأجر الذي يحصل عليه ريجان عند قيامه بدور البطولة في أحد الأفلام السينمائية ... واتهمت هذه المصادر ريجان بأنه ممثل فاشل وحين وايمان ممثلة فذة ولا يجب أن تقف الغيرة الشخصية حائلاً أمام إبداعها ونجوميتها .. وأياً كانت الأسباب التي دفعت العلاقة بين ريجان وزوجته إلى الهاوية فإن كل ما يمكن تصديقه هو أن رونالد ريجان وحين وايمان لم ينطقا بكلمة عن أسباب الخلاف الذي دب بينهما بل كان كل منهما يذكر الآخر بطيب الكلام أمام وسائل الإعلام، وكلما طرق أبواب حياتهما الخاصة المتطفلين .

وانفصل ريجان عن جين بالطلاق في عام ١٩٤٨، ولم يصرحاً لأحد عن أسباب طلاقهما ولكن الصحافة الأمريكية المتطفلة قالت إن جين وايمان قد ضاقت ذرعاً باهتمامات ريجان السياسية .. ومهما كانت الأسباب التي أدت إلى الطلاق فإن رونالد ريجان قد شعر بجرح عميق لإنفصال جين عنه، ولكنه استغل هذا الجرح ليكون حافزاً له للوصول إلى القمة وإثبات الذات .. وهناك حكمة قوية تقول «في حياة كل رجل عظيم .. أبحث عن قصة حب

فاشلة!!)، ويبدو أن رونالد ريجان هو الرجل الذى دفعه جرح الحب إلى القمة.

وعاود ريجان مسيرة رحلته السياسية من خلال الحزب الجمهورى الأمريكى.. وتشبث بأحلامه أكثر وأكثر، وكان يعد نفسه للإنتخابات البرلمانية أو التنفيذية وعينه على البيت الأبيض فى واشنطن.. وكلما انتابه اليأس تذكر والده ويليام ريجان وهو يناديه بـ (داتش).. ويقول له كلاماً كثيراً عندما يضع رأسه على وسادته لينام، وكأنه يذكره بأنه بنى نفسه من جديد بعد أن طرد من شرطة بوسطن.. ويناديه.. لا تياس يا داتش..

وحكاية (داتش) هذه، حكاية غريبة فقد كانت ولادة رونالد ريجان صعبة للغاية واستمر الخاض ٢٤ ساعة كاملة، وكادت أمه نيل ويلسون أن تفقد حياتها ليخرج وليدها إلى هذا العالم.. وأرجع الأطباء سبب هذه الولادة العسرة إلى حجم الجنين الذى كان قد بلغ مع نهاية فترة الحمل ١٠ أرطال أى ما يعادل ٤,٥ كجم.. وبعد أن وضعت أمه ألقى والده بنظره عليه، فانفجر ضاحكاً وقال إنه يشبه الرجل الهولندى الضخم داتش، وهى شخصية إعلامية متداول الحديث عنها فى وسائل الإعلام الهولندية.. ومن يومها والتصق اسم «داتش» برونالد ريجان حتى أن زملائه وأصدقائه كانوا ينادونه بـ «داتش ريجان» إلى أن أنهى دراسته.

وأثناء زواجه بيجين وايمان انضم ريجان للقوات البحرية الأمريكية خلال الحرب العالمية الثانية، وقضى فى الخدمة العسكرية بعضاً من سنوات شبابه، ولكنه كان يمارس عمله وهوياته الفنية من حين لآخر، وحينما تسمح الظروف ويجد نفسه فى اجازة لمدة تتيح له القيام بعمل جديد.

وأثناء قيام رونالد ريجان بجمع أشلائه الإنسانية بعد خروجه من قصة الحب التى أثرت فيه... وجد ضالته فى «نانسى» التى كانت تحمل نفس مواهب ريجان بما يخلق بينهما وفاق وامتزاج، وجمع الحب بين رونالد ونانسى التى أمنت بميوله السياسية وشجعتة على المضى قدماً نحو القمة، ولما اشتعل الحب فى قلبيهما قررا الزواج فى ٤ مارس ١٩٥٢ وأنجبت له دونالد وديفيز، وكانت نانسى ريجان فاتحة خير على زوجها رونالد، وبدأت ملامحه السياسية تتشكل.. وهويته الحزبية تأخذ طابعها المميز، وكل هذا ونانسى تدفعه من الخلف وتثبت أن وراء كل رجل عظيم امرأة عظيمة..

وفى عام ١٩٦٦ فكر رونالد ريجان فى ترشيح نفسه لمنصب حاكم كاليفورنيا، ولكنه تردد بعض الوقت، لأن خصمه أرموند براون عضو الحزب الديمقراطى كان رجلاً عبيداً وقويماً ويتمتع بشعبية واسعة فى ولاية كاليفورنيا.. إلا أن نانسى حسمت داخله هذه التردد وأقنعتة بأن مجرد المحاولة شرف لا ينقص من قدر الإنسان حتى ولو لم يحالفه الحظ.. واقنع ريجان بحديث زوجته نانسى التى استطاعت أن تملأ الفراغ القاتل الذى تركته جين وايمان آمالاً وأحلاماً.. ورشح رونالد ريجان نفسه على منصب حاكم كاليفورنيا واكتسح أرموند براون

عضو الحزب الديمقراطي وفاز عليه بأغلبية ساحقة .. وتمكن ريجان لأول مرة من الجلوس على كرسي الحكم فى ولاية كاليفورنيا الشهيرة ..

وفى عام ١٩٦٨ سعى لدى الحزب الجمهورى لترشيحه لمنصب رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، وخاض معركة شرسة ضد الرئيس الأمريكى جيرالد فورد وكاد أن يفوز عليه إلا أن الأخير سبقه إلى الفوز بمقعد الرئاسة بفارق ضئيل من الأصوات .. وفى عام ١٩٧٠ رشح ريجان نفسه مرة أخرى كحاكم بولاية كاليفورنيا وبالفعل تمكن من نيل ثقة أهالى كاليفورنيا التى أعادت انتخابه للمرة الثانية حتى عام ١٩٧٤ .. وتفزع رونالد ريجان بعد ذلك لينشر كتابا عن مذكراته الشخصية يحكى فيه قصة حياته وأطلق عليه عنوان «حياتى المبكرة» وقد أعيد نشر هذا الكتاب بعد أن تولى رئاسة الولايات المتحدة الأمريكية .

وفى عام ١٩٧٦ وافق الحزب الجمهورى على ترشيح رونالد ريجان لمنصب رئيس الولايات المتحدة الأمريكية بعد أن استطاع ريجان أن يثبت نفسه على ساحة العمل السياسى، وأن يكون قاعدة شعبية تسمح له بخوض انتخابات الرئاسة، ولكن الظروف أيضا لم تكن فى صالح رونالد ريجان هذه المرة أيضاً، ولكنه استطاع أن يقتحم انتخابات الرئاسة فى نوفمبر ١٩٨٠ متبنياً برنامجاً انتخابياً أسماه «الإنعاش الاقتصادى» الذى تعهد فيه بالعمل على تخفيض الضرائب ورفع مستوى المعيشة، وإيجاد فرص عمل للشباب الأمريكى، بما يضمن القضاء على البطالة، بالإضافة إلى إعلانه عن عزمه دخول حرب النجوم ومجال السباق فى علوم الفضاء .. وتمكن رونالد ريجان فى هذه المرة من أن يفوز فوزاً ساحقاً على الرئيس الأمريكى جيمى كارتر، وأن يتبوأ مقعد الرئاسة فى المكتب البيضاوى بالبيت الأبيض مع بداية عام ١٩٨١ ..

وفى اعتقاده أن المثلثة الأمريكية جين وايمان لو كانت تعلم أن هذا المصير كان فى انتظار زوجها .. ما فكرت لحظة أن تتركه خاصة بعد أن أثبتت الأيام صحة وجهة نظر رونالد ريجان وأن المعجزات دائماً تبدأ بالأحلام المستحيلة ..

وكان رونالد ريجان رئيساً قوياً وصلداً وخشناً فى قراراته ويعشق التحدى ولا يثنيه عن تحقيق هدف من أهدافه أى تضحيات يمكن أن يدفعها أو يسأل عنها أمام محكمة التاريخ .. وفى عهد رونالد ريجان سقط القتيل رقم ٢٠٠ ألف من مجموع عشرات الآلاف من القتلى الذين راحوا ضحية الصراع الأمريكى ضد الشيوعية فى دول أمريكا الجنوبية .. ويمكن القول بأن ريجان قد تمكن من أن يدعم اليمين السياسى فى جميع أنحاء العالم، واستطاع أن يقضى على خطر قوى اليسار فى أمريكا اللاتينية، بفعل السبل المشروعة وغير المشروعة .. كما أن الولايات المتحدة الأمريكية شهدت فى عهد رونالد ريجان أكبر حركة لتصدير السلاح الأمريكى إلى مناطق الحروب المشتعلة فى مختلف أنحاء العالم، وقد عقد ريجان عدة اتفاقات عسكرية لتصدير السلاح فى فترة حكمه، وصفها المحللون بأنها أكبر صفقات

عسكرية فى تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية منذ إندلاع الحرب العالمية الثانية ..

وعملية ماكفرين الفاشلة أو فضيحة إيران - كونترا كانت أكبر دليل على رغبة ريجان فى تصدير السلاح الأمريكى لدول العالم، وعقد صفقات السلاح المربحة .. ففى نوفمبر عام ١٩٨٥ وخلال قمة جنيف اقترح روبرت ماكفرين مستشار الأمن القومى على الرئيس ريجان أن يعقد صفقة مع إيران تقوم بمقتضاها الولايات المتحدة الأمريكية بتسليم ٨٠ صاروخ هوك مضادة للطائرات عبر إسرائيل .. ولكن ريجان طلب من ماكفرين أن يرجئ هذا الموضوع حين عودته إلى واشنطن، وفى البيت الأبيض شرح روبرت ماكفرين خطته إلى الرئيس الأمريكى وأقنعه أنه يمكن نقل الصواريخ لإيران من أحد المخازن السرية لإسرائيل فى البرتغال على متن ٣ طائرات إلى تبريز فى إيران .. وفى المقابل سيتولى الإيرانيون التفاوض مع محتجزى الرهائن الأمريكيين فى لبنان لإطلاق سراحهم ..

ولكن ريجان فرد جسده وألقى به على ظهر كرسيه .. وأطلق خياله العنان بعض الوقت .. ثم سأل ماكفرين وكيف نضمن أن الرهائن سيعودون بمجرد استلام الصواريخ؟ وهنا فكر ماكفرين قليلاً ثم قال لريجان: لن تهبط الطائرة فى إيران ولن تقوم بتسليم أى صاروخ قبل أن تتسلم السفارة الأمريكية فى بيروت الرهائن المحتجزين .. ووافق ريجان ولكن طلب استطلاع رأى جورج شولتز وزير خارجيته الذى وافق على الفكرة، وتم الاتفاق بين الجميع على أن يكون يوم ٢١ نوفمبر ١٩٨٥ هو يوم اتمام الصفقة ..

وبالطبع قيام إيران بالتوسط لإطلاق الرهائن الأمريكيين فى لبنان لم يكن ثمناً لاتمام صفقة الصواريخ مع أمريكا .. بل إن إيران كانت ستدفع المقابل المادى لهذه الصواريخ من عائدات النفط .. ولكن هذه الصفقة كانت مجرد «صك رضاء» حتى تستطيع أمريكا أن توافق على مساعدة إيران فى نفس الوقت الذى تعادى فيه الثورة الإسلامية فى إيران وتقف جنباً إلى جنب فى تأييد العراق فى مواجهاته العسكرية مع إيران .. !! وفشلت عملية ماكفرين لأن البرتغاليين رفضوا أن تتم هذه العملية على أراضيهم، ولكن إسرائيل صاحبة المخازن السرية بالبرتغال تمكنت من تسريب ١٨ صاروخاً فقط، وتصديرها إلى إيران .. وعندما وصلت الصواريخ إلى إيران، كانت الصناديق كلها تحمل كلمات عبرية، وفوجئ الإيرانيون عند فتح الصناديق بأن الموجود فيها ١٨ صاروخاً فقط وليست من طراز هوك المضاد للطائرات !!

ولكن الصفقة كانت قد تمت .. وانتهت مشكلة الرهائن الأمريكيين فى لبنان .. واشترى الإيرانيون الترام .. كما نقول عندنا فى مصر !! ..

وتمكن رونالد ريجان خلال فترة حكمه من الترويج للسيطرة العسكرية التى تمكنه من تحقيق أهداف أمريكا العليا، وكان من أول اهتماماته انتاج السلاح وتطويره حتى تظل الدول

المستخدمة للأسلحة فى حاجة إلى أمريكا وسلاحها الجديد، كما أرسى سياسة السيطرة على شركات السلاح فى العالم والتحكم فى قنوات توزيعه، وطرح مفاهيم للحد من التسلح تخدم الأمريكان من جميع الوجوه.. ومجحت إدارة رونالد ريجان فى ترويج مفهوم الأسلحة كسلعة استهلاكية يطلبها الغنى والفقير والقوى والضعيف والصغير والكبير، كما كان يزداد الطلب على شراء الأسلحة الأمريكية لأسباب سياسية أو تقنية أو غير ذلك..

والمعروف أن الولايات المتحدة الأمريكية استطاعت أن تباع للسعودية وحدها بالطريق المباشر أو غير المباشر أسلحة تزيد عن ١٠٠ بليون دولار فى العقود الأربعة الأخيرة، وكان أكثر من ٥٠٪ من حجم هذه الصفقة فى الثمانينيات إبان عهد الرئيس رونالد ريجان.. وهذا الانفاق كان أكبر من انفاق حلف الأطلسى نفسه كما يؤكد المحللون العسكريون، ثم تزايد الطلب على السلاح الأمريكى فى التسعينيات، وبالتحديد منذ قيام العراق باحتلال الكويت، ولكن رونالد ريجان كان قد مهد الطريق من قبل لهوس دول الشرق الأوسط بالسلاح الأمريكى..

والغريب أن إدارة ريجان كانت تباع هذه الأسلحة دون تقنياتها وبالتالى كان البيع أشبه بمن يبيع صناديق الذهب دون مفاتيح، ولذلك اضطرت الدول المستوردة كثيرا إلى إستيراد القوى البشرية المدربة اللازمة لتشغيل هذه التقنية الحديثة، ومن ثم تستطيع الإدارة الأمريكية أن تفرض ماتريده من شروط مقابل إشباع نهم المشتري واستخدام سيف قطع الغيار!!

ولم يتوقف رونالد ريجان عن محاولاته المستمرة لإثبات تفوق الولايات المتحدة فى شتى المجالات وخاصة التى يصعب فيها مجاراة أمريكا ومن أجل هذا التحدى، قرر رونالد ريجان أن يخوض حرب النجوم بكل قوى ممكنة تتناسب مع مكانة أمريكا بعد أن كادت أن تقلقه المباراة الدائمة بين الاتحاد السوفيتى وأمريكا فى سباق النجوم وخلال بعض السنوات من فترتى حكم ريجان للولايات المتحدة انفق مايزيد عن ٢٦ مليار دولار على حرب النجوم والأبحاث العلمية المتعلقة بغزو الفضاء الخارجى..

وفى عام ١٩٨٥ أعيد انتخاب رونالد ريجان لفترة رئاسة ثانية بعد أن فاز على المرشح الديمقراطى وولتر مونديل بأغلبية ساحقة، وقيل وقتها أن رونالد ريجان قد حقق ثانى أكبر فوز بمقعد الرئاسة فى تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية بعد فرانكلين روزفلت..

وقد تعرض رونالد ريجان لمحاولات عديدة لاغتياله والنيل منه، وكان أشهر هذه المحاولات بعد ٧٠ يوما من انتخابه رئيساً للولايات المتحدة لأول مرة، وكانت فى شهر مارس عام ١٩٨١، والغريب فى هذه المحاولة أنها لم تكن بقصد الانتقام من شخص ريجان ولكن كانت بدافع الشهرة التى تسبب فيها جنون الحب..

والحكاية باختصار أن ريجان كان قد توجه في ٣٠ مارس عام ١٩٨١ إلى فندق هيلتون واشنطن لإلقاء خطاب أمام لقاء نقابي، وتوجه إلى مكان الحفل في تمام الساعة الواحدة و٥٥ دقيقة من بعد ظهر ذلك اليوم.. وقد استقبلت الجماهير على باب الفندق رئيسهم استقبالياً بالغ الحفاوة تأثر له ريجان كثيراً، ووقف للحظات ليتمكن من الرد على تحية الجماهير ثم توجه إلى القاعة المعدة لاستقباله حيث ألقى خطابه الذي أنهاه في الساعة ٢,٢٥ دقيقة أى بعد حوالي ٤٠ دقيقة فقط، ثم غادر ريجان الفندق وحوله لفيف من مساعديه وحراسه، وكان ركب الرئيس ريجان ينتظره أمام الفندق وحشود كثيرة من رجال الصحافة والإعلام ومثلي القنوات الأخبارية العالمية ولم يتوقف ريجان للرد على أى استفسار صحفى بل رفع ذراعه للرد على تحية الجماهير المحتشدة، وبينما يستعد لدخول سيارته الرئاسية سمع صوت طلقات نارية تدوى في كل مكان، ولم يدري ريجان بشئ إلا ومساعده وحرسه الخاص يتكثرون فوقه، ويدفعون به في سيارته، بينما فريق آخر من حرسه الرئاسي، كان قد تمكن من القبض على الشاب الذى أطلق الرصاص على الرئيس الأمريكى وانطلقت سيارة الرئيس في اتجاه البيت الأبيض وأحس ريجان بأن حارسه الخاص جاثما فوقه، فربت بهدوء على كتفه وقال له: «لم أمت من الرصاص ولكنى سأمت منك»!!

وعندما رفع الحارس جسده عن الرئيس شعر ريجان ببعض الألم في صدره وبدأ الدم يخرج كالقذائف من فمه مما دعى جيري بار رئيس جهاز الأمن بالبيت الأبيض أن يطلب تغيير اتجاه سيارة الرئيس إلى المستشفى بدلا من البيت الأبيض، ثم اتصل بالبيت الأبيض وطلب من المسؤولين إبلاغ مستشفى جامعة واشنطن بأن سيارة الرئيس ستصل إليهم بعد أقل من خمس دقائق وأن عليهم أن يرفعوا حالة الاستعداد القصوى..

وعندما تم القبض على جون هينكلى الشاب الأمريكى المراهق، وقامت أجهزة الرئاسة والمخابرات والمباحث الفيدرالية بالتحقيق معه ظهرت الدوافع الحقيقية وراء محاولة الاغتيال، وهى فشله فى إقامة علاقة غرامية مع الممثلة الأمريكية الجميلة جودى فوستر التى كان معجبا بها من طرف واحد، وعندما فشل فى جذب اهتمامها خاصة وأنه لم يتلقى منها أى رد على رسائله الغرامية التى كان يرسلها كل يوم إليها.. قرر أن يقوم بعمل كبير حتى يتسطيع أن يجتذب اهتمام ورضاء هذه الممثلة الشابة الجميلة.. وكتب إليها يقول: «لكى أثبت لك أننى أحبك سأقوم بقتل الرئيس»، وعندما سألت أجهزة التحقيق الممثلة جودى فوستر عن هذا العاشق أكدت إنها كانت تتلقى منه رسائل كثيرة وأخرها الرسالة التى هددها فيها بقتل الرئيس، ولكنها بالطبع لم تصدق أنه يمكن أن يقوم بهذا التصرف الإجرامى ليشبت حبه لها..

وقد واجه الرئيس ريجان العديد من التحديات أثناء توليه الحكم، خاصة تحديات الحرب الباردة مع الاتحاد السوفييتى.. وكان هم ريجان كما ذكرت من قبل هو محاولة القضاء

على الشيوعيين فى دول أمريكا اللاتينية والعالم كله إذا اتاحت له الفرصة ولعل تخطيط إدارته وجهاز المخابرات الأمريكية المركزية لإبادة الامبراطورية الشيوعية، هو الذى ساهم فيما بعد فى تلاشى الاتحاد السوفييتى وانهيته مملكته لتصبح أمريكا هى القوة الوحيدة التى تحافظ على عملية القيادة فى العالم.. ومن المفارقات الضاحكة أن الرئيس ريجان كان مدعوا لإلقاء كلمة فى إحدى الاحتفالات الهامة وحاول أن يجرب الميكروفون بعد أن ظن أنه مغلق وقد فوجئ جميع الحاضرين بالرئيس وهو يقول: مارأيكم إذا تخلصنا من الاتحاد السوفييتى بإلقاء القبلة النووية عليه؟، وهنا ضجت القاعة بالضحك وفوجئ ريجان بأن الميكروفون مفتوح.. وحاول بلباقة أن يعتذر على ما قاله..

وقد تأثر ريجان كثيراً بالموقف الذى افتعلته ابنته ديفيز التى ظهرت عارية تماماً على غلاف مجلة بلاى بوى الأمريكية أثناء رئاسته لأمريكا كنوع من الانتقام من والدها على بعض الخلافات القائمة بينهما.. وقد سبب هذا التصرف الأحمق حرجاً شديداً لرونالد ريجان أدى إلى إصابته بحالة من الإكتئاب الشديد لفترة، ولكنه عاود من جديد ممارسته لأنشطته الرئاسية إلى آخر يوم له فى البيت الأبيض عام ١٩٨٩.

رونالد ريجان ورحلته مع المرض

عرف رونالد ريجان طعم المرض فى العقد السادس من عمره، ولكنه أصيب بعقدة نفسية ترسبت فى وجدانه، ورسمت شخصيته منذ طفولته الأولى عندما انقلبت سيارة والده به، وظل حبيساً بها فترة طويلة حتى تم إنقاذه مع والده.. وقتها تملك عقدة الخوف من الأماكن المغلقة من رونالد ريجان وصاحبه إلى أن أصبح رئيساً للولايات المتحدة.

أما عن المرض العضوى فالثابت أن ريجان كان قد أصيب بتضخم فى البروستاتا عام ١٩٦٧ عندما كان يبلغ من العمر ٥٦ عاماً ووقتها كان حاكماً لولاية كاليفورنيا وعندما أدخل المستشفى وأجرى الأبحاث والفحوصات اللازمة رأى الأطباء ضرورة استئصال الجزء المتضخم من البروستاتا لفحصه وتحليل أنسجته تحليلاً خلويًا لاحتتمال إصابته بسرطان البروستاتا، وبالفعل وافق رونالد ريجان على إجراء الجراحة ولم يعلن وقتها عن نتائج التحليل الخلوى، ويبدو أن ريجان تماثل للشفاء بعدها، ولم تذكر أى معلومات عن تعرضه لأى مضاعفات صحية أخرى..

وفى عام ١٩٨١ وبعد تعرضه لمحاولة اغتيال على يد الشاب الأمريكى جون هينكلى طارت السيارة التى أقلته من موقع الحادثة إلى مستشفى جامعة واشنطن، حيث كان ريجان يتقيأ دماً من فمه، وعندما وصل إلى المستشفى كان يشعر بالآلام شديدة فى أعلى ظهره نتيجة

لسقوطه عنوة داخل السيارة على أيدي حراسه، كما شكنا من ألم شديد برأسه نتيجة اصطدامها بسقف السيارة.. وتماسك ريجان ودخل المستشفى سائرا على قدميه وهو ممسك صدره متألما، وفجأة شعر بدوار شديد نتيجة انخفاض ملحوظ في ضغط الدم، وسقط على الأرض، لكنه كان مدركا لما يدور حوله وقد حملته رجال الرئاسة حتى حجرة الطوارئ، وهناك تبين أن الرئيس فقد ما يقرب من ٣٥٠٠ سم ٣ من دمائه أى تقريبا نصف حجم الدم الموجود في دورته الدموية، وعلى الفور قام الأطباء بنقله إلى غرفة العناية المركزة بعد أن خلعوا عنه ملابسه، وتم نقل السوائل وكميات من الدم من خلال ثلاثة خطوط وريدية وليس خطأ واحداً، وكان الأطباء يتوقعون أن الرئيس فقد كل هذه الدماء نتيجة إصابته بنزيف داخلي..

لكن ريجان اشتكى لإحدى الممرضات من آلام شديدة بصدرة وعندما همت بالكشف عن موقع الألم الذى يشير له الرئيس اكتشفت وجود ثقب فى أعلى الصدر نتيجة فتحة سببها عيار نارى وعلى الفور أبلغت الممرضة فريق الأطباء الذى كان يبحث الحالة والذى قرر الكشف عن موقع الثقب بالأشعة والتي أظهرت فيما بعد وجود طلق نارى على بعد سنتيمترات من قلبه، وأنه اصطدم بأحد الضلع فى قفصه الصدرى مما تسبب فى كسره، ثم اخترق على إثره الرئة اليسرى، بينما منع هذا الضلع وصول الطلق النارى إلى قلب الرئيس، ولم يكن هناك بد من إجراء جراحة عاجلة لاستخراج الطلق النارى من صدر الرئيس.. وعندما عرف ريجان بضرورة إجراء الجراحة وافق على الفور، وطلب استدعاء نائبه جورج بوش، ونقل صلاحياته الرئاسية إليه ثم بدأ يصلى ويتمم بكلمات رقيقة، وعندما اقترب منه أحد الممرضين ضحك فى وجهه وسأله هل أنت جمهورى؟

وربما كان ريجان بمزحته يخفف من حالة القلق التى كانت قد تملكته منه منذ أن عرف أنه مصاب بطلق نارى بجوار القلب، وبدأت الجراحة فى تمام الساعة ٣, ٢٤ بعد ظهر نفس اليوم أى بعد حوالى ٤ دقيقة فقط من وقوع الحادث وكان الدكتور بنجامين أدون هو رئيس الفريق الجراحى الذى قام بإجراء العملية للرئيس الأمريكى، وقد قال تعليقا على صعوبة الجراحة: لقد احتجت لأربعين دقيقة كى أتمكن من فتح صدر الرئيس.. فأنا لم أشاهد فى حياتى صدرا بهذه الصلابة لإنسان فى السبعين من عمره، كما أكد الدكتور بنجامين أدون أنه احتاج لربع ساعة أخرى من أجل الوصول إلى الطلق النارى الذى كان فى مكان عميق داخل أنسجة الرئة.. وبعد ذلك تم توصيل الخراطيم اللازمة لسحب الإفرازات الضارة من مكان الجراحة بعد إتمامها حتى لاتتقيح هذه الإفرازات وتتسبب فى حدوث إتهاب بمكان الجرح الداخلى مما قد يؤدى بعد ذلك إلى مضاعفات خطيرة..

وانتهت الجراحة بنجاح فى حوالى الساعة ٥, ٢٠ بعد الظهر، وعندما خرج ريجان من غرفة العمليات وبدأ يفيق من أثر المخدر قابلته زوجته نانسى وطبعت قبلة حانية على وجنتيه، وإنهمرت دموعها ولكنه قال لها: أنا بخير ولكن صلوا من أجل الشاب الذى أطلق على

الرصا ص ، فهو يحتاج الآن إلى دعواتكم !! وفى اليوم التالى كان ريجان قد تمائل للشفاء وقام نائبه جورج بوش بزيارته حيث وقع ريجان على بعض الأوراق الرئاسية من سريره .. وعندما سأل عن السبب الذى دفع جون هينكللى إلى إطلاق النار عليه .. حكوا له قصة جودى فوستر ولكن ريجان لم يصدق فى البداية وعندما أكدوا له ذلك قال وهو يبتسم : إنه شاب محب !! ..

وأثناء قضاء ريجان لفترة النقاهة داخل جناحه بالمستشفى الجامعى بواشنطن وصلته باقة من الورد مصحوبة ببرقية رقيقة من إحدى السيدات مكتوب عليها «عزيزى داتش ريجان .. لقد التقينا سويا فى العشرينات عندما كان عمرك ١٧ سنة .. أدعو لك بالشفاء ..» وقد تأثر ريجان جدا بهذه البرقية وظل وقتا طويلا يفكر فى صاحبته وقد أعزى بعض المقربين من الرئيس تحسن حالته الصحية بصورة سريعة إلى هذه الرسالة التى عادت به إلى فترة النقاء والشفافية فى حياته ..

وفى ١١ سبتمبر عام ١٩٨٣ شعر ريجان بضعف فى قدرته على السمع وبعد أن قام الأطباء بفحص الرئيس تبين لهم أن أذن ريجان تأثرت من دوى طلق نارى فى أحد الأفلام التى اشترك فيها .. وقد قرروا تركيب سماعة كهربائية لأذنه تعينه على السمع ..

وفى عام ١٩٨٤ أجرى الرئيس رونالد ريجان جراحة لاستئصال زوائد من القولون ولم يعلن البيت الأبيض أى أخبار عن طبيعة هذه الزوائد .. وفى عام ١٩٨٥ أجرى الرئيس ريجان مرة أخرى جراحة لاستئصال زوائد من القولون مشابهة لتلك التى تم استئصالها فى الجراحة السابقة ، وفى ٢٤ يوليو عام ١٩٨٥ أعلن البيت الأبيض أن الرئيس رونالد ريجان يعانى من وجود ورم ضخم بالقولون ، وأن الأطباء قرروا استئصال هذا الورم للتمكن من فحص خلاياه وأنسجته والتعرف على طبيعته ، وبالفعل تم إجراء الجراحة بمستشفى بتيسدا التابعة للبحرية الأمريكية ، التى استمرت ساعتين وثلاثة وخمسين دقيقة .. وقبلها قام ريجان بتفويض سلطاته الرئاسية للمرة الثانية إلى نائبه جورج بوش ، وأرسل إلى زعماء الكونجرس يخطرهم بقرار التفويض .. وبعد أيام من إجراء الجراحة أكد لارى سبيكىس المتحدث الرسمى للبيت الأبيض أن التحليل الخلوى أثبت أن الورم غير سرطانى وأنه حميد .. وقد أكد أيضا الجراح الأمريكى ديل أولر رئيس فريق الجراحين الذى قام بإجراء العملية مادكره لارى سبيكىس فى نفس الوقت الذى ذكر فيه مارشال نداين الطبيب المختص فى سرطان الأمعاء والأستاذ بكلية جون هوكنز بولاية ميرى لاند أن حالة الرئيس تتوقف على طبيعة الورم ودرجة انتشاره !!

وفى عام ١٩٨٦ أدخل ريجان لحجرة العمليات للمرة السادسة فى حياته حيث تبين وجود زوائد جديدة بالقولون ، وتم استئصالها للمرة الثالثة ، وفى عام ١٩٨٧ أجرى الأطباء جراحة كبيرة للرئيس ريجان استئصلوا فيها الجزء المتبقى من البروستاتا ، وفى نفس الوقت تم

استئصال ورم سرطاني في الوجه، وقد أعلن البيت الأبيض أن هذه الجراحة كانت لاستئصال بعض المضاعفات الناتجة عن تطور الحالة الصحية للرئيس ولكن التحديث لم يذكر أن الجراحة تتعلق باستئصال أورام سرطانية في حين ذكرت الصحف أنه تم استئصال ورم سرطاني من الوجه ..

وقد استمر الرئيس ريجان في صراعه مع المرض إلى أن ترك البيت الأبيض في عام ١٩٨٩ بعد انتهاء فترة رئاسته الثانية...، وقرر مجموعة من أصدقاء الرئيس ريجان وزوجته نانسي إهداءهم منزلاً على مساحة فدان ونصف وملحق به حمام سباحة وحدائق مترامية، وذلك ليقيم فيه ريجان بعد خروجه من البيت الأبيض، وقد قام أكثر من ٢٠ شخص من أصدقاء ريجان وزوجته بشراء هذا المنزل الذي تقدر قيمته بـ ٢,٥ مليون دولار ويجاور مسكن النجمة العالمية اليزابيث تايلور في ضاحية بيل آير بلوس أنجيلوس.. وظل ريجان يحاول الابتعاد عن الأضواء إلى أن تمكن منه مرض الزهايمر تمكناً تاماً في عام ١٩٩٤، ورغم أن ريجان كان لا يزال في هذا الوقت يلعب الجولف ويؤدي التمارين الرياضية البسيطة ويذهب إلى مكتبه في لوس أنجيلوس، إلا أنه لم يعد اجتماعياً، ولم يعد يشعر بالعالم من حوله ولا يفهم لماذا يلقي الناس عليه التحية حينما يسير بينهم في الشارع.. ويبدو أنه نسي أنه طوال ثمانية سنوات كان أقوى رجل في العالم..

ومرض الزهايمر ALZHEIMER'S هو مرض يصيب ذاكرة الإنسان ويجعله غير قادر على تذكر الأحداث الهامة في حياته.. وهو مرض مخادع INSIDIOUS ومن الممكن أن يصيب الإنسان على غرة في منتصف العمر، ولكن معدل الإصابة به يرتفع في فترة الشيخوخة وعندما يتقدم العمر بالإنسان، وربما ترجع الإصابة بهذا المرض إلى عوامل وراثية، ولكن المعروف طبياً أن تنامي المرض يصبح بطيئاً إذا أصاب الإنسان في سنوات الشيخوخة في نفس الوقت الذي يزداد فيه تدهور الوظائف الإدراكية في عقل الإنسان بصورة سريعة ومقلقة، ومن أعراض هذا المرض حدوث ضمور واسع في خلايا المخ وبالتحديد في لحاء الدماغ CORTEX وخلايا أخرى متفرقة في الجهاز العصبي المركزي، والفحص المجهرى للخلايا المصابة يكشف عن وجود خلايا عصبية تالفة، وعقد عصبية ضامرة، وترسبات وتكلسات غير طبيعية بأنسجة المخ، بالإضافة إلى بعض التغيرات الكيميائية في الخلايا العصبية بما فيها ندرة في إفراز الاستيل كولين ACETYLCHOLINE وهو موصل كيميائي هام وله دوره الحيوي في الجهاز العصبي في الإنسان..

والمعروف أن هذا المرض أصاب العديد من المشاهير في العالم ومن بينهم المثلة الأمريكية الجميلة ريتا هيوارث والتي أصيبت في شيخوختها بهذا المرض.. وفي العالم يوجد أكثر من ٢٠ مليون مصاب بمرض الزهايمر الذي ترجع تسميته إلى مكتشفه العالم الألماني اللويس التسهامر، وتنتقل بالإنجليزية الزهايمر.. بينما يوجد في أمريكا وحدها ٥ ملايين

مصاب بهذا المرض، وفي كل عام يتم تسجيل ٥٠ ألف حالة يصيبها المرض في الولايات المتحدة الأمريكية، وربما هذا هو الذى دفع الرئيس الأمريكى بيل كلينتون إلى تخصيص ٥٠ مليون دولار للأبحاث المهمة بالبحث عن علاج لهذا المرض، والتمكن من القضاء عليه ..

ويذكر أن الرئيس ريجان يعالج من مرض الزهايمر فى عيادة طبيب متخصص فى المخ والأعصاب بسانتا مونيكا فى كاليفورنيا بعد أن اضطرت ذاكرته للغاية إلى الحذف الذى لم يعد يفرق فيه بين أفراد أسرته، كما اختل توازنه فى الفترة الأخيرة وتغير سلوكه بصورة فاضحة، مما يخشى معه من إصابته بالجنون كنوع من مضاعفات هذا المرض الميوس من شفائه ..

وقد شكك نانسى ريجان كثيرا من أن أبناء ريجان لا يولون أبيهم الرعاية اللازمة له، وهو فى هذه المرحلة الحرجة من المرض .. ولكنها أكدت أن الرئيس الأمريكى السابق جورج بوش دائم السؤال على ريجان .. وليس غريبا على بوش أن يفعل ذلك وهو الذى يدين لريجان بأشياء كثيرة فى حياته وقال عنه فى إحدى المناسبات: ريجان أستاذى ومعلمى ولولاه ما أصبحت رئيساً لأمريكا ..

الدوافع المرضية لسياسة ريجان

يمكننا الدفع بأن الرئيس الأمريكى الأسبق رونالد ريجان كان مصاباً بالسرطان منذ فترة طويلة، وربما تعود الإصابة إلى أول جراحة أجراها فى عام ١٩٦٧، التى استأصل الأطباء فيها جزء من البروستاتا .. وطبيعى أن تتضخم البروستاتا فى رجل يبلغ من العمر ٥٦ عاماً .. ولكن تكرار شكوى ريجان من الأعراض المؤلمة التى تسببها البروستاتا جعلنا نشك فى أن الأمر لم يتوقف عند حد الإصابة بتضخم عادى فى البروستاتا، والذى عادة ما يصيب الذكور فى سن الشيخوخة .. ولا يمكن القول أن وصول الإنسان لسن الخمسين يدفع به إلى زمرة الشيخوخة والكهول والمسنين .. ثم تأتى الجراحة التى أجريت للرئيس ريجان فى عام ١٩٨٧ لاستئصال الجزء المتبقى من البروستاتا، وإزالة أورام سرطانية مصاحبة بالوجه، لتوضح لنا كثير من التفسيرات والألغاز.

وأغلب الظن أن سرطان القولون الذى عانى منه ريجان لفترة طويلة وتضاربت حوله الآراء، كثيراً كان سرطاناً ثانوياً منتشراً من مصدره الرئيسى فى البروستاتا وخلال الفترة من عام ١٩٨٤ وحتى عام ١٩٨٦ أجرى الأطباء للرئيس رونالد ريجان أربعة جراحات بالقولون لإزالة زوائد وأورام سرطانية متباينة فى الحجم والطبيعة ولا يمكن فى هذه الفترة الزمنية القصيرة أن تعود الأورام المستأصلة للكشف عن نفسها مرة أخرى، إلا إذا كانت أورام سرطانية وفى مرحلة متأخرة، وأن حجمها كان بالدرجة التى يمكن أن تعوق وظيفة الأمعاء أو تسبب فى حدوث إنسداد معوى لذلك كان استئصالها أمراً حتمياً وواجباً ..

والمعروف أن مرض السرطان هو المسبب الثاني للوفاة في دول أمريكا وأوروبا بعد قصور الشرايين التاجية لعضلة القلب، ومن أشهر الأعضاء التي تصاب بالسرطان في جسم الإنسان الرئتين والأمعاء الغليظة والثدى وأن ٧٠٪ من الإصابات الجديدة بالسرطان تكون فوق سن الستين، وعندما يصيب الأطفال يكون سببا للوفاة في المرحلة السنوية ما بين ٣ و ١٣ سنة حيث يصاب بعض الأطفال بسرطان الدم في بداياته، ويحتاج لفترة زمنية طويلة حتى يستطيع أن يعبر عن نفسه وهذا هو سبب خطورته إذ لا يتم اكتشافه إلا عندما يصل الإنسان في أغلب الأحوال إلى مرحلة يصعب فيها التغلب على المرض بالوسائل العلاجية المعروفة، ولكن هذا لا يمنع أن هناك حالات كثيرة من المرضى المصابين بالمرض قد تحسن حالتهم الصحية باستخدام العقاقير الكيميائية والمواد المشعة ..

وإذا سلمنا بأن رونالد ريجان قد تأثر بمرض السرطان منذ وقت طويل، ولكنه لم يعلن عن نفسه إلا مع نهاية حكم ريجان للولايات المتحدة الأمريكية، فيجب أن نضع في الاعتبار أن ريجان قد عولج علاجاً قوياً تمكن معه الأطباء من محاصرة المرض سواء بالعقاقير أو التدخل الجراحي بين الحين والآخر، وهذا ما يجعل رونالد ريجان الآن يتم عامه التسعين دون ان نسمع عن إصابته بمضاعفات جديدة لمرض السرطان .

أما في الفترة من بداية الثمانينات وحتى نهاية حكم ريجان وهي الفترة التي شهد فيها ريجان صراعاً كبيراً مع المرض يمكن القول بأنه عانى من بعض الأعراض المصاحبة لمرضى السرطان والتي تعرف بـ Paraneoplastic Features حيث يقوم العضو المصاب بالسرطان بإفراز بعض نفاياته التي عادة ماتكون عبارة عن هرمونات ذات تركيب كيميائي متعدد POLYPEPTIDE HORMONES والتي تقوم بدورها بالتأثير على بعض الوظائف الأساسية لأعضاء وأجهزة الجسم، ومن ضمنها الجهاز العصبي للإنسان "NEUROLOGICAL PARANEOPLASTIC SYNDROME" وقد يتسبب عن ذلك حالات من الوهن والضعف العضلي وضمور بخلايا المخ والذي يمكن أن ينتج عنه تغير في سلوك الإنسان وعاداته، فيصبح في بعض الأحيان قاسياً وصلداً أو متبلداً وعنيداً وهو ما يتيح لنا الفرصة لتفسير جزء من سياسة ريجان التي كانت قائمة في حد ذاتها على العناد والماطحة وتحقيق الأهداف مهما كانت النتائج والتضحيات ..

كما يمكن لهذه الهرمونات المفروزة من الأورام السرطانية أن تحض الغدة الدرقية على إفراز هرمونات (T3 & T4) بصورة غير طبيعية من وقت لآخر، وهو ما قد يجعل الإنسان في حالة من العصبية والضييق، والتي تدفعه إلى اتخاذ قرارات عنيفة مثل التي اتخذها رونالد ريجان تجاه المذابح الشيوعية في أمريكا اللاتينية، ورغم أن ريجان كان يتشدد بالرحمة تجاه الشباب جون هينكلي الذي حاول اغتياله إلا أنه لم يعفو عنه خاصة وأن هناك شكاً قوياً في سلامة القوى العقلية لهذا الشاب ..

وقد كانت لريجان قرارات كثيرة تتسم بالعنف والقوة خاصة في سياسته الخارجية

زعماء على فراش المرض

وصفقاته العسكرية، وربما لم يحاول ريجان التدخل بجدية لإنهاء الحرب العراقية الإيرانية، والتي استمرت قرابة ثمانية سنوات بقدر ما حاول أن يساعد العراق في هذه الحرب الشرسة بحجة عداؤه للثورة الإسلامية في إيران، ولكنه في نفس الوقت سمح لنفسه بأن يحاول أن يمد إيران بصواريخ هوك الأمريكية عبر إسرائيل، ولكن محاولته انتهت بفضيحة إيران - كونترا الشهيرة ..

ولا يمكن أن نرمى بأن قرارات ريجان القاسية كان وراءها كلها دوافع مرضية فقط .. بل أن هناك عوامل أخرى كثيرة منها على سبيل المثال عوامل شخصية ونفسية، وعوامل أخرى ترجع لأسباب سياسية .. ومعروف عن ريجان أنه كان متطرفاً في وطنيته وحبه للولايات المتحدة الأمريكية، وقد يرى البعض أن هذه ميزة في شخصية ريجان .. ولكن إذا تحول هذا التطرف في الوطنية إلى رغبة عارمة في السيطرة على العالم سياسياً وعسكرياً وتشجيع بيع الأسلحة الأمريكية وفرض الهيمنة العسكرية الأمريكية على تلك الدول كما ذكرت من قبل، فإن التطرف في الوطنية في هذا الوقت يصبح سلاحاً ذو حدين، ويمكن أن يشكل على المدى البعيد خطراً على السياسة الأمريكية التي روجت لدمار الحروب أكثر مما روجت للسلام ..

ولا يجب أن نغفل مرض الزهايمر الذي أعلن عن إصابة ريجان به بعد تركه البيت الأبيض بسنوات قليلة .. لكن هناك حقيقة طبية تؤكد أن المرض قد لا يأخذ طبيعته الفجائية إذا أصاب كبار السن والمسنين، وأن الإصابة تكون تدريجية إلى أن يفقد الإنسان ذاكرته إلى حد كبير، ويصبح غير قادر على تحديد الأشخاص من حوله وهذا ما يجعل هناك احتمال بإصابة الرئيس الأمريكي رونالد ريجان بمرض الزهايمر في أواخر فترة حكمه، خاصة إذا سلمنا بدور الهرمونات السرطانية في تآكل المخ وضمورة، كما أن بعض المصادر الصحفية ذكرت أن ارتطام رأس ريجان بسقف سيارته الرئاسية عند محاولة الفرار به من المكان الذي أطلق عليه النار فيه أمام هيلتون واشنطن قد يكون سبباً في بعض الأعراض المرضية التي تعرض لها ريجان فيما بعد، وخاصة مرض الزهايمر ...، وإذا ثبت بأن هذا المرض قد بدأ يزحف على عقل ريجان أثناء قيامه بمهامه الرئاسية، فإن هذا يجعلنا نؤكد أن بعض القرارات الأمريكية التي اتخذها ريجان في أواخر فترات حكمه ربما يكون قد أصابها فقدان الذاكرة ..!

أما حادثة الاغتيال التي تعرض لها ريجان بعد حوالي ٧٠ يوماً من انتخابه رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية، فلا شك أن الظروف المرضية التي تأثر بها ريجان نتيجة هذه الحادثة، قد ساهمت بشكل أو بآخر في رفع أرصده وجماهيريته لدى الشعب الأمريكي خاصة وأن الإعلام الأمريكي كان يتحرك لحظة بلحظة مع الرئيس الأمريكي ابتداءً من لحظة تعرضه للإصابة بالطلق الناري، ومروراً بنقله إلى مستشفى جامعة واشنطن، ثم أثناء دخوله

لغرفة العمليات، وفي اللحظات التي خرج فيها من غرف العمليات بعد نجاح الجراحة وزوجته نانسي تطبع قبلاتها على وجناته..

ولاشك أن كل هذه الأحداث جعلت ريجان بطلاً شعبياً كاد أن يفقد حياته بعد أيام من دخوله المكتب البيضاوي بالبيت الأبيض الأمريكي.. وبالطبع فإن هذا الحدث كفيفل بكشف تعاطف الجماهير والتفافهم حول رئيسهم الذي استطاع أن يستثمر بذلك هذه الظروف المرضية في تثبيت شعبيته لينال تأييد الأمريكيين في اتفاقياته العسكرية، وبرنامج حرب النجوم الذي انفق من أجله ما يزيد عن ٢٦ مليار دولار بعد ذلك..

وقد أنهى الرئيس الأمريكي رونالد ريجان رئاسته للولايات المتحدة بعد إنقضاء فترة حكمه الثانية عام ١٩٨٩، وكان يبلغ من العمر وقتها ٧٨ عاماً ويبدو عليه الأعياء الشديد والنحافة، وتأثير المرض الذي لم يستطع السيطرة عليه إلا بسلسلة من الجراحات الخطيرة التي كان لا يثق في أنه سينجو منها، بدليل أنه كان يصدر قراراً بتفويض نائبه جورج بوش للقيام بأعمال الرئاسة أثناء كل جراحة يجريها.. وبعد أن يفيق ريجان بدقة واحدة من أثر المخدر الذي تناوله أثناء إجراء الجراحة، يسحب هذه السلطات التي منحها لنائبه، بل يطلب الأوراق الرئاسية ليوقعها في فراشه في الوقت الذي لم يمر سوى ساعات قليلة على نجاته ونجاح العملية الجراحية التي أجريت له..

ولاشك أن المرحلة العمرية التي حكم فيها رونالد ريجان أمريكا من (٧٠ إلى ٧٨ عاماً) تعتبر مرحلة خطيرة حيث لا يوجد رجل في مثل هذه العمر لا يعاني من أمراض الشيخوخة التي تتمثل في فقدان القدرة على التركيز لفترات طويلة، واختلال التوازن وقصور في الوظائف الحيوية لأجهزة الجسم المختلفة، بالإضافة إلى تصلب الشرايين وضيقها وانسدادها والذي يسبب مع مرور الوقت تأثيراً بالغاً على القدرات العقلية للإنسان، خاصة إذا ما تأثرت الدورة الدموية في مخ الإنسان.. ولا يمكن لأي إنسان أن يصل إلى سن رونالد ريجان دون أن يصاب بتصلب الشرايين لأنه مرض عادة ما يسبب تغيرات بجدران الأوعية الدموية والشرايين، تبدأ في مرحلة مبكرة جداً من العمر، وتستمر ببطء شديد حتى تصل إلى ذروتها في سن الشيخوخة، وتأخذ دورها في التأثير على الإنسان وقوة تركيزه وقدرته على اتخاذ القرار..

وبالطبع فإن جلوس رجل في عمر رونالد ريجان على مقعد رئاسة دولة عظمى مثل الولايات المتحدة الأمريكية لهو أمر بالغ الصعوبة في مدهاه وتأثيره، ولكن رونالد ريجان حاول أن يتحدى شيخوخته وأن يثبت للعالم كله أن شيخوخته قادرة على التحكم في قوة أمريكا التي لاتعادلها قوة على وجه الأرض..

فيدل كاسترو

«عقد... تركيبات... مناقضات»

عجيب أمر هذا الرجل .. الذي جمع في شخصيته مناقضات كثيرة، يصعب أن تتوفر في شخصية إنسان واحد .. فهو يجمع بين القوة والضعف والسالب والموجب .. والبناء والهدم .. والتصميم على الرأي لدرجة التعصب الأعمى .. ثم الإفراط في الرأي لدرجة التنازل المذلل وهو حالة خاصة جداً، تستحق الفحص والدراسة خاصة إذا عرفنا أنه يلقى معارضة شديدة داخل كوبا وخارجها بالإضافة إلى الحصار الاقتصادي، المفروض عليه منذ بداية حكمه والذي وصل بالبلاد إلى حد المجاعات !! وبالرغم من كل ذلك فما زال على عرشه قوياً وقوته تزداد يوماً بعد يوم ..

وفيدل كاسترو ولد في ١٣ أغسطس عام ١٩٢٦، وكان أبوه رجلاً موسراً، واسع الرزق يمتلك مزارع تنتج الدخان وتصدره، وقد ذكر أحد المغتربين اللبنانيين المقيمين في كوبا عام ١٩٦٠ أن الرئيس كاسترو قد أنجبته أم لبنانية، تنتمي إلى عائلة «روس» المعروفة في مدينة طرابلس بلبان، وأضاف المغترب اللبناني أن قصة زواج السيدة اللبنانية «لينا روس» من والد كاسترو معروفة في هافانا وأنه قد شاهد لينا التي ولدت في حى البغاطيسية بشارع التربيعة في طرابلس مع والدها وأعجب بها إعجاباً شديداً، وأحبها وتزوج منها، وأنجبت له فيدل كاسترو ... ورغم تداول هذه القصة في معظم صحف العالم الصادرة في الستينيات إلا أنه لا يمكن الحكم على صحتها من عدمه ..

وخلال سنوات الدراسة ظهرت مواهب فيدل كاسترو المتعددة، فاشتهر بين زملائه كبطل رياضي، كما عُرف بقدرته الفائقة على الخطابة أمام الجموع والحشود، فكان مجيداً لاستخدام الكلمات، ومتقناً في نطقها وتوجيهها توجيهها حماسياً، يؤثر في المستمعين له ويجعلهم في حالة أشبه بحالات النوم المغناطيسية .. ثم التحق بعد ذلك بجامعة هافانا عام ١٩٤٥ لدراسة القانون، وقد ساعدته قدراته الشخصية على الإتجاه إلى العمل السياسي، فكان من أنشط الطلاب من الناحية السياسية خلال دراسته الجامعية التي أنهاها في عام .. ١٩٥٠

وفي عام ١٩٤٧ وأثناء دراسته للقانون تعرف على زوجته الأولى «ليرثا دياز» شقيقة رافاييل دياز، أحد زعماء الثورة الكوبية وأقترن بها في ١٣ ديسمبر من نفس العام وبعد تخرجه من الجامعة بفترة طلقها بدون أسباب واضحة .. وفي ذلك الوقت كان الديكتاتور فلوجنسيو باتيستا مسيطراً على مقاليد الحكم في كوبا منذ عام ١٩٢٣ وكاد الشعب أن

يضع من صلفة وديكتاتوريته أكثر من مرة خاصة بعد أن تمكن الأمريكيون في عهده من السيطرة على أكثر من ٩٠٪ من موارد وثروات البلاد، حتى أصبحت جزيرة كوبا تقريباً مستعمرة أمريكية، تخضع في ولائها للسياسة الأمريكية والذي كان باتيستا واحداً من خدام هذه السياسة.

وقرر كاسترو في عام ١٩٥٣ أن يشكل مع مجموعة من الثوار الذين يحملون نفس مبادئه، جماعة تعمل على خلع الديكتاتور باتيستا، والإطاحة به، وكان كاسترو وقتها يعمل محامياً ولكنه أصبح العضو الرئيسى بهذه المجموعة، والتي نجحت في إعداد تخطيط محكم مستند على الإرادة الشعبية التي كان قد فاض الكيل بها بهدف الثورة على نظام الحكم الديكتاتوري.. وبالفعل بدأ كاسترو مع مائة وثلاثين من أتباعه أول هجماته المسلحة في ٢٦ يوليو عام ١٩٥٣ على ثكنات موناكادا، ولكنه فشل مع مجمرعته في الانقلاب على نظام الحكم أو تغيير شئ من الواقع، بل على العكس فقد انتهى الأمر باعتقاله مع أخيه وشقيق كفاحه الثوري راؤول كاسترو، وعندما تم القبض عليه عثرت السلطات في حقيبته على خطاب غرامى كتبه إلى السيدة ناتى ديفيولتا البرجوازية والمتزوجة من طبيب يدعى اورنالديو فرنانديز وأم لابنة تدعى «ناتالى»، وكانت هذه السيدة قد تشبعت بحب كاسترو وأفكاره بما جعلها تقيم معه علاقة غير شرعية، عاشها خلالها معاشرة الأزواج..

وحُكِم على كاسترو بالسجن لمدة ١٥ عاما لكنه فى عام ١٩٥٥ خرج من السجن بعد أن شمله عفو عام، فسافر إلى المكسيك للإعداد لمرحلة جديدة من المواجهة مع الحاكم الديكتاتوري، ورغم أن كاسترو قد فشل فى الجولة الأولى إلا أنه استطاع بهذه الخطوة أن يحرك القضية ويزيد من القاعدة الشعبية المؤيدة له، والناقمة فى نفس الوقت على سياسة الحكم الديكتاتوري فى كوبا، وفى المكسيك قابل رفيق كفاحه وصاحب المبادئ النضالية الأرجنتىنى شى جيفارا الذى دعا كاسترو ورجاله إلى البقاء فى المكسيك للتدريب على فنون المواجهة العسكرية، وبالفعل قضى كاسترو ١٥ شهراً تدرّب فيها مع رجاله على حرب العصابات بمساعدة جيفارا، ثم عاد إلى كوبا وعاود هجومه مرة أخرى عام ١٩٥٦ على نظام الحكم، ولكنه فشل فشلاً ذريعاً أيضاً فى هذه المرة مما جعله يقرر اتخاذ وقفه، مع النفس ليتمكن من إعادة تنظيم قواته ومعالجة الأسباب التى تجعله يفشل فى السيطرة على الحكم فى كل محاولة للثورة على النظام الديكتاتوري، كما أنه كان يرغب فى اكتساب تأييد قطاع عريض من الفلاحين وطبقات الشعب التى تعانى من ظروف اقتصادية صعبة..

واستمر كاسترو فى نضاله الثورى ضد ديكتاتور كوبا إلى الحد الذى جعله يهدد فى أكتوبر عام ١٩٥٨ بأنه سيقتل كل المشاركين فى الانتخابات التى تنظمها حكومة باتيستا لأن الاشتراك فى هذه الانتخابات يعد خيانة عظمى للثورة، كما أنه دعى إلى تخريب الممتلكات البريطانية فى بريطانيا نفسها وفى كوبا بل فى كافة أنحاء العالم، لأن بريطانيا

باعث طائرات حربية لحكومة باتيستا التي ثار ضدها ..

وكان كاسترو قد علم أن عشيقته «ناتي» قد وضعت ابنتها «إيلينا» من علاقتها الغير شرعية به، في الوقت الذي كان يعيش في منفاه بالمكسيك عام ١٩٥٦ لكنه قرر ألا يشغل باله بهذه القصة السخيفة من وجهة نظره، وكان يرسل أمه من حين لآخر لتتري إبنته في مقابلات سرية مع ناتي بعيداً عن أعين زوجها الدكتور أورنالديو، وظل كاسترو لمدة ثلاثة سنوات لا يفكر في رؤية ابنته إيلينا بحجة إنشغاله في الثورة ضد النظام الديكتاتوري .. وبالفعل فقد استطاع كاسترو تضيق الخناق حول الديكتاتور فلوجنسيو باتيستا الذي تأكد من أن الثورة لن تتركه قبل أن تحرر البلاد من طغيانه وسوء حكمه، فأثر أن يترك الحكم ويغادر البلاد في يناير عام ١٩٥٩ واستولى فيدل كاسترو على العاصمة هافانا في بداية جديدة لإنشاء مجتمع مثالي ينعم فيه الجميع بتكافؤ الفرص .. وبدأ الإصلاح يتجه نحو الاهتمام بالتعليم ورفع مستوى المعيشة لمواطني كوبا الذين يعانون من الفقر المدقع والمرض والجهل، وقد أطلق كاسترو على خطته الإصلاحية برنامج «الإصلاح الاجتماعي»، وتمكن من خلال العمل به من التصدي للأمية والجهل واحتكار الملاك ورجال الأعمال لسبل الرزق المختلفة، كما قام بتأميم المزارع والممتلكات الأساسية والاستراتيجية في كوبا وأقام عدداً من المزارع التعاونية التي تستفيد منها طبقات الشعب المختلفة وخاصة الفلاحين .. ونجح برنامج «الإصلاح الاجتماعي» في تحسين الظروف المعيشية اليومية للفقراء، ولكن كاسترو في نفس الوقت لقي معارضة شرسة من الملاك ورجال الأعمال والأعيان الذين حاولوا بكل الأساليب وقف زحف النائر الجديد نحو مصالحهم التي تتعارض مع مصالح الأغلبية من أفراد الشعب في كوبا، وعندما فشلوا في القضاء على الثورة غادر الآلاف منهم البلاد خلال السنوات الأولى لحكم كاسترو وتوجهوا إلى الولايات المتحدة الأمريكية التي فتحت أبوابها إليهم ..

وقد واجه كاسترو منذ بداية حكمه عداءاً أمريكياً لحدود له لأن الثورة الاشتراكية التي قادها كان غرضها الأول هو القضاء على الهيمنة الأمريكية على جزيرة كوبا، والتخلص من تركة الرجعية والتخلف والجهل الناتج عن هذه الهيمنة الأمريكية المسيطرة على موارد البلاد وثرواتها .. وأولى المشاكل الصعبة التي واجهها كاسترو في بداية حكمه كانت أزمة «خليج الخنازير» والتي دبرتها ومولتها الولايات المتحدة الأمريكية، بسبب ماتكنه من عداء وحقد لكاسترو وثورته، خاصة بعد أن تأكدت أمريكا أن الطموح الثوري لدى كاسترو لم يكن مقصورا على كوبا بل إنه يحاول تصدير الثورة إلى دول أمريكا اللاتينية وهذا بالطبع سيضر بالمصالح الأمريكية في هذه الدول، بالإضافة إلى أن كاسترو لم يكف يوماً عن مهاجمة السياسة الأمريكية وكشف أوراقها ومطامعها في كوبا، والدول الأخرى الواقعة تحت الهيمنة الأمريكية ..

وأزمة «خليج الخنازير» كانت محاولة فاشلة لخلع كاسترو وإقصائه عن حكم البلاد،

وقد اشترك في هذه المحاولة ١٥٠٠ شخص من المنفيين الكوبيين ونفذت في عهد الرئيس الأمريكي الراحل جون كيندى عام ١٩٦١، ولكن كاسترو العنيد ومعه قرائه التي تدين له بالولاء تمكن من قمع الانتفاضة والثورة ضده وقام بالقضاء على الإنقلابيين، واعتقل من بقى منهم على قيد الحياة واضطرت الإدارة الأمريكية للتدخل لإنقاذ المعتقلين الذين تعتبرهم من رجالها ووافق كاسترو على الإفراج عنهم فى مقابل مساعدات أمريكية لكوبا تشمل الأدوية وبعض المساعدات الغذائية والملابس، والتي كبدت أمريكا وقتها أكثر من ٥٣ مليون دولار..

وهذه الأزمة جعلت شوكة كاسترو تقوى خاصة بعد أن أصبحت الولايات المتحدة تصنع له ألف حساب، وتعيد دراسة مواقفها وسياستها فى جزيرة كوبا بعد أن أيقنت أن عهد كاسترو بالطبع لن يكون كعهد سلفه فلوجنسيو باتيستا وخرج كاسترو المتحدى على شعبه من خلال شاشات التليفزيون وهو يعلن تحديه لأمريكا وسياستها، ويؤكد أنه قرر أن يكون ماركسيا لينينيا مدى الحياة وأطلق صحته المشهورة التي مازال متمسكا بها إلى الآن «الاشتراكية أو الموت»، وهذا التحدى كاد أن يجعل العالم للمرة الثالثة على مقربة من اندلاع حرب عالمية، ففى خريف عام ١٩٦٢ استطاع كاسترو أن يقنع نيكيتا خروشوف الزعيم السوفييتى فى ذلك الوقت بأن الولايات المتحدة الأمريكية، ستعاود غزو كوبا التي لا تمتلك وسائل دفاعية للرد على العدوان الأمريكي فى حالة وقوعه.. واقتنع خروشوف الذى كان يرى أن أمن كوبا الشيوعية هو امتداد طبيعى لأمن الاتحاد السوفييتى ونتيجة لهذا الاقتناع فقد أخذ خروشوف قراره بنقل صواريخ ذات رؤوس نووية إلى كوبا، وتسربت الأنباء إلى واشنطن التي بدأت فى التحرى عن صحة هذه المعلومات عن طريق إرسال طائرات للتجسس فوق أرض كوبا.. ولكن إحدى طائرات التجسس الأمريكية سقطت فى ظروف غامضة، وأدى ذلك إلى تصاعد الأزمة بين القوتين العظميتين فى العالم الذى أصبح على شفا حرب نووية لولا الصفقة التي عقدها الرئيس الأمريكي جون كيندى مع الزعيم السوفييتى خروشوف، والتي تقضى بعدم تعرض أمريكا أو تفكيورها فى غزو كوبا فى مقابل تفكيك الاتحاد السوفييتى لرؤوسه النووية الموجودة على أرض كوبا.. وعلق كاسترو بعد ذلك على موقف خروشوف الذى وقع الصفقة مع جون كيندى قائلا: كنت سأوجه لكممة إلى وجه خروشوف لو فكر فى زيارة كوبا بعد سحب الصواريخ، وعندما نشرت صحيفة لوموند الفرنسية هذا التصريح أنكر كاسترو أن يكون مثل هذا الكلام قد جاء على لسانه وأن الأمر مجرد تلفيق صحفى..

وفى ١٧ أكتوبر عام ١٩٦٢ وبعد مرور هذه الأزمة الطاحنة التي كادت أن تطيح بالعالم، وتلقى به فى أتون الحرب تزوج كاسترو من إيزابيل كوثر وهى من سكان مدينة سانتياجو فى نفس الوقت الذى تناسى فيه إبنته إيلينا التي أنجبها من عشيقته ناتى، ولم يكن قد رآها سوى مرة واحدة عندما بلغت الثالثة من عمرها ووقتها وقف يتأملها ضاحكا وهو

يقول «إنها تشبه الخروف الصغير» والعجيب أن إيلينا عاشت السنوات الثلاثة الأولى في حياتها مع أمها وزوجها الطبيب الذي لم يكن يعلم أن إيلينا ليست إبنته، ولكن بعد أن تولى كاسترو الحكم علم بأمر العلاقة التي جمعت زوجته بالزعيم الثوري، وأن إيلينا التي نسبها إليه وحملت اسمه لم تكن سوى إبنة غير شرعية لزوجته الخائنة.. فأصيب بإكتئاب شديد وانفصل عن زوجته، واصطحب ابنته الأخرى ناتالي، وترك البلاد بعيداً عن بطش كاسترو، وفي نفس الوقت لم يعرض كاسترو على ناتالي الزواج أو الاعتراف بإبنته وعندما فكر في الزواج بعد مرور ثمانية سنوات من ميلاد إبنته لم يختار أمها زوجة له ولكنه اختار إيزابيل كوثر!!

وبالطبع لم تكن الولايات المتحدة قادرة في ذلك الوقت على القيام بأي تحرش عسكري ضد كاسترو بعد الاتفاق الذي عقده مع الاتحاد السوفيتي، ولم يكن أمام الإدارة الأمريكية سوى فرض حظر اقتصادي على كوبا بسبب مشاغبات رئيسها المستمرة - على حد رؤية الإدارة الأمريكية - حتى يعيش شعبه في حالة من الفقر والجوع والضياع، وبالتالي فمن السهل أن يثور الشعب على قائده ويخلعه، وهذا ماتريده أمريكا.. ولكن هذا الحظر دفع كاسترو للإرتقاء في أحضان خروشوف والاعتماد في اقتصاده على المساعدات السنوية التي قدمها له الاتحاد السوفيتي والتي كانت تقدر بمليار دولار سنوياً، وكان هذا هو الخطأ الأكبر في تاريخ الثورة الكوبية، حيث فشل كاسترو في بناء اقتصاد قومي ولذلك كان من الطبيعي أن تشهد كوبا إنهياراً اقتصادياً بعد تفكك الاتحاد السوفيتي عام ١٩٨٩، وتوقف المساعدات السوفيتية التي كان يعتمد عليها كاسترو اعتماداً كلياً في إدارة شئون بلاده.

واستمر مسلسل التحدي الكبير بين فيدل كاسترو من جهة والولايات المتحدة الأمريكية من جهة أخرى، واستطاع كاسترو أن يقف بمفرده أمام تحدي عشرة رؤساء أمريكيين عاصروهم منذ بداية حكمه وحتى الآن، وكانت دولته الشيوعية التي أسسها على مسافة ٩٠ ميلاً فقط من السواحل الأمريكية هي أكبر تحدي للأمن القومي الأمريكي، وللسياسة الأمريكية التي كانت تخطط للقضاء على الشيوعية في كل أنحاء الأرض، ولذلك شددت أمريكا العقوبات والحظر الاقتصادي على كوبا، وخفضت من استيرادها لمحصول السكر الذي كانت تستورده من كوبا وهو محصول استراتيجي بالنسبة للاقتصاد القومي في كوبا، وتعتمد عليه في جزء كبير من دخل البلاد.. وهنا اشتعل غضب كاسترو، وأندر أمريكا بأنها إذا استمرت في تخفيض استيراد السكر فسوف يرد عليها بتقليص دور شركات البترول الأمريكية في كوبا لاستبدالها بشركات من جنسيات أخرى.. وعندما لوحث أمريكا بالحرب صرح كاسترو لكل وسائل الإعلام قائلاً: على أمريكا أن تتأكد بأنني سأبيد ٢٠٠ ألف أمريكي في كوبا إذا قررت أمريكا أن ترسل مشاه أسطولها إلى كوبا..

وأثناء اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة عام ١٩٦٠ رفضت فنادق نيويورك

استضافة كاسترو رغم أنه حصل على تأشيرة دخول الولايات المتحدة وقال : أنه سينام في حديقة سنترال بارك في نيويورك ، وسيربط قطعة من القماش بين شجرتين وينام عليها !! وعندما تدخلت الأمم المتحدة وأجبرت أحد الفنادق على استضافته لقي كاسترو أسوأ معاملة يمكن أن يلقاها رئيس دولة ، فقد قدم له مدير الفندق طعاما فاسداً ، وكان يطلب منه كل ساعة نقوداً ، ويقدم كشوف حسابات غير معقولة ، وفي إحدى المرات أرسل له صاحب الفندق يطلب منه سداد ١٠ آلاف دولار ، فصرخ كاسترو في وجهه : إنها ليست نقودى ولكنها نقود الشعب .. وترك الفندق على الفور وعندما سأله الصحفيون وهو يستقل السيارة من أمام الفندق : أين ستذهب ؟! أجاب : سأقضى الليلة في الأمم المتحدة !! وظلت مشكلة المكان الذي يبيت فيه كاسترو تخلق على الأجواء من حين لآخر ، حتى جاء اليوم الذى ألقى فيه خطابه أمام الجمعية العامة ، وظل لمدة ٤ ساعات و ٢٩ دقيقة يتكلم وكل كلمة يطلقها من فمه كانت بمثابة دانة مدفع قوية توجه نحو المصالح والكرامة الأمريكية .. وعندما عاد إلى كوبا طالب بنقل مقر الأمم المتحدة من أمريكا ، وأصدر قراراته بتأميم البنوك الأمريكية في كوبا ، وقام بطرد ثلاثة أمريكيين منهم أثنان من موظفى السفارة الأمريكية بهافانا ..

ومشكلة كاسترو الحقيقية فى حكمه أنه إهتم بالتحدى الأمريكى ومحاولاته المستمرة لكسر الشوكة الأمريكية ، والانتصار للشيوعية على حساب أبناء وطنه الذين لقوا المر والهوان فى فترة حكمه .. والطبيعى أن كاسترو ما كان بقدرته أن يقف أمام الولايات المتحدة الأمريكية بكل قوتها وعظمتها وهو يقود دولة عرجاء فى اقتصادها وشعبها مكدود ومطحون ومهزوم نفسياً .. ولم يحاول كاسترو فى البداية أن يتنازل ولو قيراطاً واحداً عن تحديه غير المدروس للولايات المتحدة والنتيجة بالطبع كانت مزيداً من الحصار الاقتصادى الأمريكى على كوبا ومزيداً من الفقر والجهل والمرض لأبناء الشعب فى كوبا ، وهو ما يخالف أهداف الثورة التى قام بها فيدل كاسترو ، التى كان من أهم أهدافها تطبيق برنامج «الإصلاح الاجتماعى» الذى يقضى على الفقر والجهل والمرض .. وأصبح فيدل كاسترو محاطاً بشقى الرحى فهو يلقى من جهة تحدياً أمريكياً لا يستطيع الصمود أمامه ولا يتنازل عن مواجهته ، ومن جهة أخرى بدأت المعارضة الشعبية تتعاظم ضد حكمه وسياسته التى أذلت الشعب وأهانته إلى الحد الذى جعل فلولا من المواطنين تهرب إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، التى اتخذت قرارها بمنح حق اللجوء السياسى لكل مواطن كوبي يرغب فى الهرب من جحيم كاسترو إلى نعيم أمريكا ..

ولم يستطع فيدل كاسترو أن يواجه المعارضة الداخلية إلا بمزيد من العنف والقسوة لإخماد ثورة معارضيه ، فقد وقف فى المؤتمر الدولى للمهندسين بهافانا يقول لمعارضيه : لا تحاولوا .. فأنا مهندس العالم الجديد ، وصرح بلسانه أنه لا يوجد فى كوبا سوى ١٥ ألف سجين سياسى فقط !! وطلب من الشعب الكوبى أن لا ينتظر إقامة انتخابات رئاسية فى

السنوات القادمة لأنه لن يتخلى عن الحكم.. فالثوري لا يموت!! واتهمة أمريكا بأنه مهرب مخدرات محترف، وأنه يقوم بعمليات لتهريب المخدرات في دول أمريكا اللاتينية، وأنه وشقيقه رؤول كاسترو وزير الدفاع قد سمحوا لمستولين كوبيين على مستوى عالٍ بالاشتراك في أنشطة تهريب المخدرات حتى تتسع دائرة هذه الأنشطة إلى الولايات المتحدة الأمريكية..

والمعارضة الداخلية ضد حكم كاسترو لم تكن من عامة الشعب فقط، بل إن أقرب الناس إليه قد عارضوه وثاروا عليه وفضحوا حكمه الديكتاتوري.. وكان من أشهر معارضي شقيقته جوانا كاسترو التي لجأت إلى المكسيك عام ١٩٦٤ اعتراضاً على سياسة شقيقها كاسترو، وهاجمته هجوماً عنيفاً، واتهمة بأنه ديكتاتور شيوعي يبني مجده الشخصي على جثث الجائعين والفقراء والمعدمين من أبناء الشعب.. وقالت جوانا بعد وصولها للمكسيك أنها ساعدت أكثر من ٢٠٠ نازحاً من خصوم كاسترو على الهرب بإتفاق مع الخبائز المركزية الأمريكية، وأنها كانت تمتلك بانسيونا بالقرب من هافانا، وكان جميع خصوم كاسترو يلجأون إليه، ويدبرون الخطة لخلعه وإقصائه عن الحكم، وحثت جوانا كاسترو دول العالم على إنقاذ الشعب المهور في كوبا وإطلاق أكثر من ٧٥ ألف معتقل في سجون فيدل كاسترو وليس ١٥ ألف كما يصرح دائماً..

ولم تكن جوانا كاسترو هي المعارضة الوحيدة لفيدل كاسترو من بين المقربين إليه، بل هناك أيضاً إبنته إيلينا، وهي الأبنة الوحيدة ضمن ثمانية أبناء أنجبهم كاسترو.. وقد فرت من بطش أبيها وطلبت اللجوء السياسي للولايات المتحدة الأمريكية، حيث أقامت في ولاية نيوجرسي الأمريكية وظلت تمارس نشاطاً سياسياً معادياً لوالدها من داخل الولايات المتحدة، ونظمت العديد من المظاهرات التي اشترك فيها المنفيون الكوبيون لفضح سياسة كاسترو.. بل أكثر من ذلك فقد خرجت للعالم على شاشات القنوات الإخبارية العالمية لتقول عن أبيها، أنه إرهابي ومهرب مخدرات، ويستلذ بتعذيب معارضيها، وأنه تسبب في تدمير حياتها والقضاء على سعادتها الزوجية بعد أن رفض أن ترحل مع زوجها إلى المكسيك.. ولكنها استطاعت أن تستخدم جواز سفر مزيف كسائحة أسبانية للهرب من كوبا واللجوء إلى الولايات المتحدة.. وقالت إيلينا في مذكراتها أنها لم تعرف أنها إبنة كاسترو إلا عندما بلغت العاشرة من عمرها عندما أعطتها صديقتها «توتا» إحدى المجلات التي كانت تراسلها إيلينا وتكتب لها بعض التجارب الشعرية، وفوجئت إيلينا وهي تقرأ بعض أشعارها المنشورة بأجملته بعبارة «ملحوظة: كاتبة هذه الأشعار هي إبنة كاسترو»، وعندما جرت على أمها لتسألها عن الحقيقة أكدت لها الخبر وأطلعته على رسائل الغرام التي كان كاسترو يكتبها إليها.. وكهرت إيلينا أبيها الذي يعتبر أقوى رجل في كوبا، ومع ذلك يرفض تطبيع العلاقات الأبوية مع إبنته.. فلم تكن تعرف رقم تليفون أبيها المباشر ولم يدعها لزيارته سوى مرة واحدة، وعندما فكر في أن تحمل إبنته اسمه رفضت إيلينا ذلك وأصررت على أن

تظل تحمل اسم عائلة والدتها «ديفولتا» والتي مازالت تحمله حتى الآن ..

وقد أدى الحصار الاقتصادي الذي فرضته الولايات المتحدة على كوبا إلى مزيد من الفقر والضياع الاقتصادي، وانتشار المجاعات والأمراض .. وقرر كاسترو أن يخفض من النسب المتزايدة في استهلاك الطاقة والوقود، واستورد من الصين كميات هائلة من الدراجات كي يستخدمها الأهالي بدلا من السيارات والموتوسيكلات، وشرعت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الكوبي في إطفاء الأنوار خلال اجتماعاتها ليظل شعارها «الاشتراكية أو الموت»!! وفي شوارع هافانا خفت حركة المرور، وقلت عدد الأوتوبيسات بلغارية الصنع، وسيارات اللادا الروسية التي كانت منتشرة في شوارع كوبا من قبل .. وقد بلغت نسبة البطالة مداها بين الشباب الذين يمثلون ٦٥٪ من السكان وارتفعت نسبة الطلاق إلى ٥٠٪ بين الشباب المتزوجين بسبب سوء الأحوال الاقتصادية والمعيشية .. ورغم كل ذلك لم يفكر كاسترو أن يتخلى عن حكمه الشمولي أو يجري انتخابات حرة .. فعمت الفوضى كل أرجاء البلاد، وهرب أهله بالجملة خوفا من سطوته وبطشه .. وخوت خزائن بلاده، وأغلقت أسواق العالم أمام صادراته، وازدادت المحلات التجارية خواءا .. والطوابير تزداد طولاً، والخاصيل تدبل في الحقول، لأنها لا تجد وسيلة نقل .. وفي قلب هذه المجاعة التي كاد ان يتساقط أمامها أبناء الشعب في الشوارع واحدا تلو الآخر وقف كاسترو يقول لشعبه المغلوب على أمره .. إذا تحلل الاتحاد السوفييتي أو أختفى من الوجود فإننا سنواصل بناء الاشتراكية أما الرأسمالية فلا يمكن أن تعود إلى كوبا مادام هناك ثوري واحد .. قاوموا .. قاوموا قاوموا !!

واتهم كاسترو واشنطن بأنها تشجع الكوبيين على اختطاف قوارب بحرية والتوجه بها إلى فلوريدا، وأنها تمنح حق اللجوء السياسي لأي كوبي يتمكن من الوصول للسواحل الأمريكية .. وقال أنه لن يتخذ أي إجراء تجاه قراصنة الجو في حالة اختطاف طائرة أمريكية والتوجه بها إلى كوبا ..

إلى هذا الحد يبلغ العناد مداه ..؟

وإلى هذه القسوة يلعب الحاكم بأرواح رعيته؟! .. وطبعي أن يتعرض كاسترو لمحاولات عديدة لاغتياله، فقد صرحت وزارة الداخلية الكوبية في ٢١ يوليو عام ١٩٩٩ أن كاسترو تعرض لـ ٦٣٧ محاولة لاغتياله على مدى ٤٠ عاما منذ توليه الحكم وحتى الآن .. وأكدت وزارة الداخلية أن أمريكا متهمة بتدبير معظم هذه المحاولات، والتي استخدمت فيها طرقا مختلفة منها السيجار المسموم والقواقع البحرية المتفجرة، وتفصيل زي عسكري لكاسترو مزودا ببيكتريا سامة، بالإضافة إلى محاولات اغتيال عديدة باستخدام الأسلحة التقليدية ونفذتها الجماعات الكوبية في المنفى ..

وأغرب محاولة لاغتيال كاسترو كانت في ١٣ مارس عام ١٩٦٤ باستخدام

ميكروفون مكهرب حيث وضع المتآمرون خطة لربط سلك كهربائي ذى ثبوت عال بالميكروفون الذى سيستخدمه كاسترو أثناء إلقائه خطاباً هاماً فى التلفزيون بمناسبة ذكرى هجوم الطلبة على قصر الديكتاتور السابق باتيستا عام ١٩٥٨، ويكون لهذا السلك مفتاح خاص حتى إذا أمسك كاسترو بالميكروفون أدير المفتاح ليصعقه التيار.. ولكن تم اكتشاف هذه المؤامرة عندما قام ممثل بالتلفزيون بالإبلاغ عن الحادث قبل وقوعه به ٨ ساعة وقام البوليس باعتقال ١٧ شخصاً من الفنيين وممثلى التلفزيون وأعدم اثنين منهم وصدر الحكم بالسجن على باقى المتهمين، والغريب أنه كان يوجد ٦ سيدات من بين مجموعة المتآمرين !!.

وكشفت وثائق سرية نشرتها وكالة المخابرات المركزية الأمريكية عام ١٩٩٣ أن حكومة الرئيس جون كيندى طلبت من الوكالة تشكيل وحدة متخصصة لاغتيال قادة أجنبى، وأن هذه الوحدة حاولت اغتيال كاسترو ثمانية مرات من بينهم مرة باستخدام رصاص ملوث بسم سيانيد البوتاسيوم الذى يقتل فى الحال ومرة أخرى كما ذكرت مجلة ساترداى إيفنينج بوست الأمريكية عام ١٩٦٧ عندما حاولت المخابرات الأمريكية قتل كاسترو أثناء وجوده فى دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة عام ١٩٦٠ باستخدام سيجار يحتوى على مواد شديدة الانفجار وعندما فشلت المخابرات الأمريكية فى اغتيال كاسترو لجأت إلى الاستعانة بعصابات المافيا وبالتحديد فقد قام رجال المافيا سام جيانكانا وجون روسيليني بالتخطيط لقتل كاسترو أكثر من مرة ولكن دون جدوى أيضاً، وفى النهاية أعدت المخابرات الأمريكية ثلاثة خطط للتخلص من كاسترو، كما ذكرت مجلة ديتكتيف الفرنسية... الأولى، كانت تهدف إلى دفعه إلى حالة من السكر من خلال أحد العقاقير التى تجعله يهذى بكلام غير مسئول أمام شعبه.. ولكن تم الاعتراض على هذه الخطة لأن الكوبيين لا يستمعون عادة إلى خطب كاسترو... والخطة الثانية كانت تهدف إلى وضع الماريجوانا فى السيجار الذى يدخنه حتى يهذى بالكلام أمام مجلس الوزراء ولكن هذه الاقتراح أيضاً لقي الرفض لأن كاسترو كان معتاداً دائماً على الهديان أمام وزرائه دون أن يبدو عليهم الضيق، أما الخطة الثالثة فكانت عن طريق تنويم كاسترو وحلاقة لحيته حتى يفقد هيئته أمام شعبه وهذا أمر كفىل بالقضاء عليه... ولكن.. كل هذه المحاولات للتخلص من فيدل كاسترو لم تتحقق وعاش الرجل إلى يومنا هذا.. مثل القطط بسبعة أرواح..

والغريب أن كاسترو الذى دفع بشعبه إلى الهاوية من أجل مبادئ الشيوعية التى مازال يدافع عنها حتى الآن.. هو نفسه الذى بدأ يناقض مبادئه الثورية ويحاول أن يمد جسور التعاون مع الولايات المتحدة الأمريكية، خاصة بعد أن ضيقت أمريكا الحناق عليه.. وأصبح مهدداً من شعبه الجائع فى كل لحظة ودقيقة.. فقد تفتق ذهن كاسترو عن حيلة للخروج من الأزمة الطاحنة التى تعرضت لها بلاده بعد إنهيار الاتحاد السوفىستى، حيث سمح بتبادل الدولار وتشجيع الاستثمارات الأجنبية بما فيها الاستثمارات الأمريكية، وأطلق على حيلته

الذكية وتحديث النظام الشيوعي، وفي نفس الوقت دعا إلى تحسين العلاقات مع الولايات المتحدة الأمريكية، وفتح صفحة جديدة فى العلاقات الأمريكية الكوبية، بل أكثر من ذلك فقد أعلن عام ١٩٩٤ أنه لن يقف أمام هجرة الكوبيين إلى الولايات المتحدة، وأن أى كوبي يبلغ ١٨ عاما يستطيع أن يهاجر إلى أمريكا دون أى محظورات، ولكن الرئيس الأمريكى بيل كلينتون رد على تصريح كاسترو رداً قوياً وعملياً حين أصدر قراره بمنع لجوء الكوبيون إلى أمريكا، وإيقاف تبني أمريكا لهذا الإجراء الذى استمر لمدة ٢٨ عاما وأكد فى تبريره لهذا القرار أن أمريكا كانت تسمح باللجوء بسبب الحصار الاقتصادى الذى تفرضه الولايات المتحدة على كوبا، وأعلن كاسترو انه مستعد لمقابلة الرئيس الأمريكى، ولكن بيل كلينتون لم يبد تعليقا على إعلان كاسترو، وبدى واضحا أن الإدارة الأمريكية ليست على استعداد لتغيير نظرتها إلى كوبا قبل رحيل كاسترو..

هكذا قذف كاسترو بكوبا فى مياه المحيط الأطلنطى من أجل الدفاع عن مبادئه الثورية التى ضحى من أجلها بأحلام شعب كامل، وعندما غرقت فى قاع المحيط.. هرول ضعيفا نحو عدوه الذى حطم نفسه فى حربه معه.. ليدعوه لإنقاذه والإمسك بيده.. ولكن العدو كان أذكى من أن يعطى هذه الفرصة لكاسترو حتى يطفو على السطح وينجو أمام شعبه ويصبح بريئا أمام محكمة التاريخ..

فيديل كاسترو على فراش المرض

من الطبيعى أن رجلا فى عناد كاسترو لا بد وأن يخفى الأحداث المرضية التى سيتعرض لها من حين لآخر.. لأن المرض - كما ذكرت من قبل - يكون مؤشرا أمام القوى المعادية على ضعف الحاكم، بل يمكن ببعض الحسابات الدقيقة أن تستدل هذه القوى على التوقيت الذى يمكن فيه أن يصبح الحاكم غير قادر على تسيير أمور البلاد، وبالتالي فمن السهل تشجيع القوى المعارضة للإنقلاب عليه.. ولذلك كان كاسترو حريصاً كل الحرص على عدم الدفع بحالته الصحية أمام الرأى العام حتى لا تزيد فى وجهه فلول المعارضة وتطيح به فى أى فرصة ممكنة..

ولكن هناك بعض الأخبار التى تسربت عن حالة كاسترو الصحية والعضوية، بالإضافة إلى تركيبته الشخصية التى سأفرد لها مساحة من التحليل، والتى كان لها الأثر الكبير فى توجيه عقلية وقرارات كاسترو وإصراره على المضى فى مواجهة التحديات الأمريكية على حساب شعبه.. وقد ذكر أنه فى ٤ يوليو عام ١٩٦٠ أصيب كاسترو بالتهاب رئوى حاد عندما كان يشغل منصب قائد الثورة الكوبية ورئيس وزراء كوبا، ولكن الولايات المتحدة أعلنت أن كاسترو مصاباً بالسل الرئوى فى رئته اليسرى وأن طبيباً سويسرياً شهيراً متخصصاً فى أمراض الصدر قد توجه إلى كوبا للكشف على كاسترو.

وفى ٣٠ يوليو من نفس العام أجرى كاسترو عملية جراحية وتم التعقيم عليها تماما، وفى ٢٦ يونيو عام ١٩٦٦ نشرت الولايات المتحدة الأمريكية خبرا - غير موثوق فيه - يؤكد أن كاسترو فقد صوته نتيجة لصدمة عصبية حادة تعرض لها وأنه موجود فى مستشفى للأمراض العقلية حيث يعالج بالصدمات الكهربائية لإصابته بإضطراب عصبى، وأن شقيقه راؤول كاسترو يخلفه فى منصبه ..

وفى نفس الشهر أعلنت إحدى المنظمات المعادية لحكم كاسترو أنه سافر للعلاج فى الاتحاد السوفييتى وتشيكوسلوفاكيا سراً، ولم يعلن عن طبيعة المرض أو أسبابه .. وفى ٢٤ أكتوبر عام ١٩٧١ ذكرت صحيفة الصنداي تلجراف أن كاسترو أدخل المستشفى متأثراً بمرض خطير فى الصدر وأنه يقع الآن تحت الفحص الدقيق .. وفى اليوم التالى ذكرت صحيفة أخرى أن فيدل كاسترو مريض للغاية، ويعالج سراً من مرض تمكن من رثته اليمنى فى أحد مستشفيات هاافانا، وأغلب الظن أنه مصاب بسرطان الرئة، ويجرى علاجه بالأشعة .. وأن هذه الاصابة تعود إلى الخمسينيات حينما كان يقاتل فى جبال سيبرا مايسترا إبان الثورة الكوبية ضد باتيستا .

وفى ٧ يونيو عام ١٩٧٢ قام كاسترو بإعادة النظر فى زيارته إلى بولندا التى كان من المقرر أن يزورها، وقالت مصادر بولندية أن كاسترو تعرض لأزمة قلبية حادة نتيجة إصابته بذبحة صدرية، وهى حالة تشبه الانسداد فى الشرايين التاجية لعضلة القلب والناجمة عن قصود حاد بالدورة الدموية التاجية .. ولكن كاسترو تحامل على نفسه ووصل إلى بولندا فى اليوم التالى، وعندما سأله الصحفيون عن قلبه قال : إن قلبى من حديد ومن يريد أن يراهننى فليبارينى فى مضمار السباق ..

وفى عام ١٩٨٥ ألق نهائيا عن تدخين سيجار هاافانا الشهير، وكان ذلك رغما عن أنفه بناءً على نصائح الأطباء، وقال كاسترو أنه كان من المفروض أن يتوقف عن التدخين منذ خمس سنوات، ولكنه احتاج إلى هذه السنوات الخمس حتى يتخلص من الرغبة فى التدخين، وأكد أنه لم يكن متصوراً أنه سيسمح لنفسه بالتدخين مرة أخرى، ولكنه لم يستطع أن يمنع نفسه من التدخين فى الحلم .. والمعروف أن فيدل كاسترو كان يدخن سيجاره وهو لم يبلغ الخامسة عشرة من عمره .. وفى عام ١٩٨٩ توقف تماما عن تناول القهوة والخمور، ونصحته الأطباء بإنقاص وزنه باتباع ريجيم غذائى معين لكن حبه لأطباقه المفضلة من البط والمكرونات والموز ساهم فى زيادة وزنه خاصة بعد توقفه بأمر الأطباء عن ممارسة رياضته المفضلة وهى الغوص ..

وفى نفس العام شكى كاسترو من آلام روماتيزمية حادة جعلته غير قادر على الوقوف لدرجة أنه أصبح يلقي خطبه وهو جالسا وعندما يفكر فى السير فإنه يسير ببطء شديد، وقد أرجع أطباؤه سوء حالته الصحية فى السنوات الأخيرة إلى شعوره بالإكتئاب عندما فقد

صديقتة سيلسا سانشيز التي ماتت بمرض السرطان ..

ورغم أنه لم يتم التصريح رسمياً بأن كاسترو مصاباً بأحد أمراض القلب إلا أن التعليمات الأخيرة التي إتزم بها كاسترو بناءً على نصائح أطبائه تجعلني أجزم بصحة ما أكدته المصادر البولندية في السبعينات من أن كاسترو مصاباً بقصورٍ حاد في الدورة الدموية التاجية بالقلب ولهذا التأكيد أسباب كثيرة، فقد كان كاسترو مدمناً للخمر بدرجة شرهة، كما أنه بدأ تدخين سيجاره الشهير في سن مبكرة، ومن المعروف أن التدخين هو العدو الأول للقلب، ومسبب رئيسي لحدوث الأزمات القلبية، بالإضافة إلى أن كاسترو كان مصاباً بنسبة من الفشل في وظائف الرئتين نتيجة إصابتهما بمرض خطير تضاربت فيه الأقوال ما بين السل الرئوي والسرطان، ولكن في أى الأحوال كان فشل الرئة في أداء بعض وظائفها التنفسية يشكل حملاً كبيراً على القلب الذي تتأثر وظائفه بالتعبية عندما تتأثر وظائف الرئتين .. كما أن كاسترو كان شرهاً في تناول الأكلات الدسمة وكان يعيش لحم البط بدرجة كبيرة، وهو مسبب أساسي لترسب الدهون بجدران الأوعية الدموية والشرايين وحدوث ارتفاع في نسبة الكوليسترول بالدم .. وقيام الأطباء بمنعه من التدخين وتناول الخمر وعدم مزاوله رياضة الغوص واتباع ريجيم غذائي لهي تعليمات كلها ترتبط بتخفيف الإجهاد على عضلة القلب مع إيقاف جميع الأسباب التي أدت إلى تدهور القلب إلى هذه الدرجة ..

وفي أغسطس ١٩٩٧، اختفى كاسترو لمدة ثلاثة أسابيع وتضاربت الأنباء حول أسباب إختفائه، ولكن كل الآراء أجمعت على أنه مريض وفي مرحلة حرجة، ولكن في بداية سبتمبر من نفس العام ظهر كاسترو لأول مرة ونفى مرضه واتهم أعداءه بالإساءة إليه، ثم ألقى خطاباً بمناسبة بدء السنة الدراسية الجديدة استمر لمدة ٤٥ دقيقة تحت أمطار غزيرة ..

وفي نفس العام أعلن كاسترو أنه ستخدم دواءً جديداً يحمل اسم بي. بي. جى ضد الكوليسترول، ومسببات أمراض القلب ومشاكل الأوعية الدموية، وذلك في اجتماعه بأعضاء المؤتمر الرابع للحزب الشيوعي الكوبي ..

وفي ٢٠ يوليو عام ١٩٩٨ أكدت طبيبة كوبية أن الرئيس الكوبي نجما من الموت بأعجوبة بعد إصابته بمرض خطير، ودخوله في حالة أشبه بالغيوبة وقالت في تصريحاتها التي نشرتها صحيفة «ميامي هيرالد» الأمريكية أنه تم نقل كاسترو على وجه السرعة إلى مستشفى «سيميك» بهاأنا في ٢٢ أكتوبر عام ١٩٩٧ لعلاج من التهاب دماغى مصحوب بارتفاع شديد في ضغط الدم، وهى أعراض تؤدي غالباً إلى الإصابة بالسكتة الدماغية وشلل جزئى، وأكدت الطبيبة الكوبية مسئوليتها عن هذا التصريح حيث كانت ضمن الفريق الطبى الذى أشرف على علاج كاسترو ..

وفي اليوم التالي أعلنت وزارة الخارجية الكوبية - على غير العادة - أن فيدل كاسترو البالغ من العمر (٧٢ عاماً) يتمتع بصحة ممتازة وذلك رداً على التصريح الذى نشرته

الصحيفة الأمريكية بأنه مصاب بمرض خطير في الدماغ ..

ولكن الصحافة الأمريكية قامت بالرد في ٢٤ يوليو عام ١٩٩٨ وأكدت أن كاسترو يعاني من مرض خطير في المخ، يعوقه عن أداء مهامه الرئاسية ويؤثر على آلية اتخاذ القرار في كوبا، ونشرت صحيفة التيفو الناطقة بالأسبانية والتي تتخذ من ميامي مقراً لها تقريراً عن حالة كاسترو الصحية أكدت فيه على اعتلال صحته وأنه تلقى علاجاً في شهر أكتوبر عام ١٩٩٧ لإصابته بارتفاع ضغط الدم في الشرايين الدماغية، وهو مرض يصيب وظائف المخ بشكل تام ويؤدي إلى الوفاة في حالة الإصابة الشديدة، هذا بالإضافة إلى أن كاسترو في السنوات الأخيرة قد بدأ يستعين بسماعة كهربائية لأذنيه تعينه على السمع ..

ويجب أن نتوقف كثيراً أمام شخصية فيدل كاسترو وطبيعته النفسية فالمذكور عن كاسترو أن شخصيته صارمة تحب التصميم والانتقام والتحدى في سبيل تحقيق أمالها، وهو دائماً يشعر بالظلم وفي نفس الوقت يعبر عنه بسلوك انتقامي يجعله خشناً وعنيفاً في تصرفاته، ولذلك فهو يصلح لقيادة ثورة فقط ثم ينتهي دوره بعد نجاحها .. والمتبع لشخصية كاسترو من البداية يلاحظ فيها كثير من المتناقضات، فهو ابن مزارع ثرى ميسور الحال ومع ذلك حلم كثيراً بالفقر والاحتاجين! وهو من الطبقة الثرية ولكن ثورته كانت ضد الأعيان والأثرياء ورجال الأعمال .. وبالرغم من أن مبادئه كانت ضد البرجوازية إلا أنه أحب ناتي ديقولتا المرأة البرجوازية الثرية التي تعيش في جنة أبيها التاجر الأسباني الثرى وزوجها الطبيب الشهير .. والغريب أن كاسترو الذي ظل يطارد هذه المرأة الارستقراطية هو نفسه الذي كان يسعى لشحن غضب الشعب للإطاحة بالارستقراطيين الذي أحب وعشق من بينهم ..

وكاسترو وهو الذي تحدث عن القانون والشرعية، كان أول من تحدى القانون والشرعية، فقد أعدم أكثر من ٦٥ شخصاً عقب إحدى المحاولات الفاشلة لاغتياله وزج بأكثر من ٧٥ ألف مواطن كوبي من معارضيه - على حد قول شقيقته جوانا - في المعتقلات والسجون .. وأقام علاقة غير شرعية مع امرأة متزوجة، ولها ابنة وأثمرت هذه العلاقة عن ابنته إيلينا .. وعندما ترك الطبيب زوجته الخائنة، وأصبحت الفرصة مهيئة لزواج كاسترو من عشيقته لم يفكر في الزواج منها .. بل لم يعرض الاعتراف بابنته أو منحها اسمه إلا بعد سنوات طويلة من ولادتها .. وقد قال الكاتب الصحفي الكبير مصطفى أمين في مقاله فكره في ١٢ مارس عام ١٩٨٠، أن كاسترو حول البلاد إلى سجن كبير .. فحتى عام ١٩٨٠ كان هناك مليون من أبناء كوبا قد هربوا من بطش كاسترو وطغيانه، ويذكر مصطفى أمين أنه في يوم من الأيام قابل مهاجراً كوبياً في لندن يعمل سائق تاكسي وقال له أنه كان يعمل وكيل وزارة في كوبا ولكنه فضل أن يعمل سائق تاكسي في بلد حر، وكاسترو الذي تشدد كثيراً بالقانون والمبادئ الثورية كانت ثورته هي أول من أغلقت النوافذ، وأقفلت الأبواب، وكممت

الأفواه، وأغلقت الصحف، وألغت المنابر وأنشأت السجون والمعتقلات، وتصورت أنها تستطيع أن تبنى فى الظلام أسرع مما تبنى فى النور.. فقد كان الظلام هو الأب الشرعى للخراب .

ولم تتوقف التناقضات عند خرق القانون والمبادئ.. بل إن كاسترو الذى مازال يتمسك بالدولة الشيوعية فى الظاهر فقط.. قد بدأ يطبق الكثير من مبادئ الرأسمالية فى بلاده بعد أن اكتشف أن الناس سوف يأكل بعضها البعض من المجاعات، وكانت ابنته إيلينا قد أعلنت فى خطاب ألقته أمام مجموعة من طلبة جامعة ولاية جورجيا الأمريكية أن لحم القطط أصبح مرغوباً فيه فى كوبا، ويمكن للعالم أن يتخيل عمق المأساة التى تصيب الشعب الكوبى ذو التراث العريق الذى اضطر لأكل لحم القطط، وأمام هذا الهجوم العنيف من الداخل والخارج على نظام الحكم فى كوبا اضطر كاسترو إلى فتح بلاده للاستثمار ورؤوس الأموال، وبدأ يمد يده طالباً الصفح من الولايات المتحدة خاصة بعد أن سقط رفاقه فى انتخابات نيكاراغوا ورأى بعينه نهاية هونيكرو فى ألمانيا الشرقية وشاوشيسكو فى رومانيا..

وفيدل كاسترو الذى تشدق بحقوق الفقراء، وطالب بها كثيراً لم يهمله يوماً حقوق هذه الطبقة كما يدعى، بل إنه عندما أطلق على نفسه فى فترة الإعداد للثورة «محامى الفقراء» كان يستجلب عطف الجماهير وتأييدهم.. ففى عام ١٩٩٤ احتفل بعيد ميلاده الثامن والسبعين فى شهر أغسطس فى نفس الوقت الذى أندلعت فيه المظاهرات الدامية فى هاافانا، وثار أبناء الشعب الذين لم يعد باستطاعتهم إخماد نار الجوع فى بطونهم.. وكاسترو الذى يعيش شعبه فى عشش الفراخ، يعيش فى قصر خرافى بجزيرة كايو بيدراس التى تبعد عن جزيرة كوبا ٤٥ دقيقة فى القارب البخارى..

ومثل هذه الشخصية يمكن أن نطلق عليها فى عالم الطب النفسى Antisocial Personality أو الشخصية غير الاجتماعية.. وهى شخصية لاتؤمن بالعلاقات السوية كنوع من تحقيق العدالة الاجتماعية، بالإضافة إلى أنها لاتمل من الإساءة للقانون والبطش بالحريات والمبادئ، والغضب والإنفعال واستعمال القسوة مع الآخرين، وهذه الشخصية لاتشعر بمشاعر كاملة نحو الآخرين، وهذا يسبب لها مشاكل كثيرة فى العمل والزواج والعلاقات الشخصية، وكلما شعرت بالذنب سرعان ماتعود للإساءة والعصف بمن حولها من جديد.. وربما تكون هذه هى شخصية كاسترو التى مازالت تتحكم فى كوبا منذ قرابة الأربعين عاماً..

حكم كاسترو فى قفص الأمراض

هناك إشارات عديدة تجعلنا نؤكد أن شخصية فيدل كاسترو هى الشخصية غير اجتماعية ANTISOCIAL PERSONALITY.. وهذه الشخصية كما ذكرت من قبل يمكن أن تصلح

لقيادة ثورة ولكنها بالطبع قد لاتصلح لقيادة شعب علي طريق المستقبل .. ومن هذه الاشارات التي تؤيد تحليلنا لشخصية كاسترو أنه تولى الحكم عام ١٩٥٩ بعد ثورة شعبية عارمة لقيت تأييداً واسعاً من طبقات الشعب الكادحة، ولكن كاسترو في غضون خمس سنوات كان قد استطاع أن يكون ضده معارضة قوية لا يمكن أن يلقاها أى زعيم شعبى جاء إلى الحكم بالإرادة الشعبية، وفى خلال هذه السنوات البسيطة من بداية حكمه .. والأغرب أن تكون هذه المعارضة من أقرب المقرين إليه .. شقيقته جوانا كاسترو .. وابنته إيلينا .. بل قد نفاجأ إذا عرفنا أن جوانا كاسترو كانت تفتح البانسيون الذى تمتلكه فى هاغانا لمعارضى كاسترو منذ عام ١٩٦٠ أى بعد أقل من عام واحد فقط من توليه الحكم .. وأن شقيقها راؤول كاسترو الذراع اليمنى لقيديل كاسترو هو الذى قد ساعد شقيقته على الهرب من جحيم كاسترو ..

فأى معارضة هذه التى تنشأ فى بلاط الحكم وفى أقل من عام من تولى الحاكم شئون البلاد؟! فلابد إذن أن كاسترو كان ديكتاتوراً منذ اللحظة الأولى لحكمه وأن شخصيته غير الاجتماعية جعلته سجيناً فى إطار رؤيته الشخصية للأحداث من حوله ..

ومن السهل جدا أن تتحول أو تمتزج هذه الشخصية غير الاجتماعية أو عدوة المجتمع بالشخصية البارونية PARANOID PERSONALITY التى تتمسك بالمبادئ الخاطئة حتى لو ثبت لها بالدليل القطعى خطأ هذه المبادئ التى تعتقها وتؤمن بها .. والدليل على ذلك أن قيديل كاسترو مازال إلى الآن يعيش فى حلم الإمبراطورية الشيوعية وهو لا يدرك أن مظلة الشيوعية التى كانت تحميه من شمس الرأسمالية المحرقة قد هوت ولا أمل فى عودتها من جديد ...، وهو يرى شعبه يأكل لحم القطط وينام فى العراء ويعانى من البطالة والفقر والجهل، ومازال مصراً على تحديه للعالم، وللقرى العظمى بغير سند شرعى وبغير تأييد شعبى ...، وهو يناطح أمريكا فى كل وقت ويقول أنه يمتلك نصف مليون قطعة سلاح من أيام الاتحاد السوفييتى ولكنه لا يدرك أن المواطن المصاب بالأنيميا لن يقدر على قيادة دبابة واحدة أو الإمساك بمسدس يقذف الرصاص فى وجه عدو قوى مثل أمريكا .. وعندما سأله عن خيسته قال: أنه أطلقها على جبال كوبا وليس على البحر ولن يستطيع جنود الطاغية أن يحلقوها، لأنها رمز لحركته وثورته الشيوعية .. ولكن كاسترو لم يدرك أن المسألة ليست شيوعية أو رأسمالية ولكن المسألة استعباد أم حرية وديكتاتورية أم ديمقراطية. وحكم الفرد أم حكم الشعب .. وكان الأحرى أن يسأل كاسترو نفسه .. ماذا قدمت لكوبا بعد أربعين عاماً من الثورة؟ ولماذا يلجأ الشعب إلى الهرب نحو حصون العدو الأمريكى رغم أن الشعب يدرك أن أمريكا هى التى سلبت ثروات بلادهم فى عهد باتيستا؟ والإجابة ببساطة شديدة هى أن نار أمريكا أرحم من جنة كاسترو !! ..

وتغيير المبادئ طبقاً للمواقف والذى احترفه بجدارته الزعيم الكوسى يجعلنا أيضاً

نسأل عن تأثير شخصيته وحالته النفسية على اتخاذ قراره.. فهذا الرجل الذي قال عن عبدالناصر فى سبتمبر عام ١٩٦٠ عندما سجل كلمته للإذاعة العربية:

إن شخصية ناصر.. أمل ضخم لكل الشعوب. التى يجب أن تشور على المستعمرين.. وإننا لانعتبر الرئيس عبدالناصر ملكا لكم وحدكم ولكن هناك شعوب كثيرة تؤمن به وتنظر له على أنه رجل الحق والسلام.. هذا الرجل هو نفسه الذى قمع ثوار اريتريا حينما أرسل خبراء عسكريين فى عام ١٩٧٧ إلى أثيوبيا لتجنيد ٣٥ ألف فلاح للقتال ضد ثوار اريتريا، كما وعد ببحث الأمر مع العسكريين السوفييت لإيجاد حل يرضى أديس أبابا، ويقمع الثوار الإريتريين وبالرغم من تمسك فيدل كاسترو بالنظام الشيوعى فى حكم البلاد فإنه عاد مع انتكاسة الأوضاع فى كوبا إلى فتح الأبواب أمام الرأسمالية.. وحتى يفعل كمن يدارى سوءته أطلق على هذه المرحلة «تحديث النظام الشيوعى»، وكان الأحرى به أن يطلق عليها «الشيوعمالية»، حيث تلمع الرأسمالية فى عقول الشيوعيين وتلدب بها فيصبحون مثل الكرة، تارة فى ملعب الشيوعية وتارة فى ملعب الرأسمالية ويعيشون حياتهم فى صراع دائم بين مبادئهم الشيوعية التى لايمكن أن تتحقق إلا بأموال الرأسمالية..؟!.

وكان يجب على كاسترو أن ينظر بعين العقل إلى مصلحة شعبه.. لأن كل راع مسئول عن رعيته.. ولايحق له أن يدفن ملايين من البشر فى مقبرة حكمه مجرد اقتناعه بمبدأ سياسى يحقق له المجد الشخصى، ولايحق لملايين البشر التى يحكمها إلا الفقر والذل والضعف.. ولكن كيف يشعر الحاكم بشعبه وهو يعيش فى نعيم القصور، ويترك شعبه يعيش فى جحيم القبور.. وللأسف فبعد رحيل كاسترو فالمطلوب من شعب كوبا أن يبدأ من جديد من الصفر فى نفس الوقت الذى يستقبل فيه العالم الألفية الثالثة بتطورات علمية وسياسية واقتصادية واجتماعية مذهلة تدفع به إلى مستقبل مشرق..

ومن المؤكد أن فيدل كاسترو كان مصاباً بقصور فى الدورة الدموية التاجية بالقلب وارتفاع فى نسبة الكوليسترول بالدم ويمكن التذليل على ذلك من اعتراف كاسترو نفسه أمام مؤتمر الحزب الشيوعى بأنه يتناول أقراص بى بى جى ضد الكوليسترول وأمراض القلب والأوعية الدموية.. وطبيعى أن رجلاً يبلغ من العمر الآن ٧٤ عاماً مدمناً للخمر ومدخن شرهه وأكول لدرجة النهم أن يصاب بتصلب الشرايين بالإضافة إلى ترسب الدهون والكوليسترول على جدران الأوعية الدموية والشرايين ويتسبب ذلك فى ضيق هذه الأوعية والشرايين بالدرجة التى يصعب معها وصول الدم إلى أعضاء الجسم المختلفة.. خاصة وأن القلب الذى يضخ الدماء إلى أنحاء الجسم يعانى أيضا من مشاكل حادة قد تؤدى إلى قصور فى وظائفه وبالتالي فمن المحتمل أن الدورة الدموية فى مخ فيدل كاسترو لم تعد على مايرام، بالإضافة إلى أن الرئتين والجهاز التنفسى لم يكونا على مايرام فى أداء وظائفهما المختصة بتبادل الغازات وبالتالي يمكن القول بأن نسبة تشبع الدم بالأكسجين فى الدورة الدموية

لكاسترو لم تكن بالصورة المثالية التي يمكن معها لرئيس دولة مثله أن يتخذ قرارات هامة ومصيرية وربما يكون هذا السبب الذي جعله في الفترة الأخيرة يعاني من ضعف في السمع والشعور بنوبات من النسيان والدوخة وعدم التركيز .. ولعل حديثه الذي أدلى به إلى صحيفة بارى ماتش الفرنسية عام ١٩٩٤ أصدق دليل على تأثير المرض على قدرات كاسترو الذهنية .. فعندما سأله محررو الجريدة متى ستمتزل الحكم أو تقيم انتخابات حرة ..؟ قال : لن اعتزل الحكم أبداً لأن الثوري لا يحال إلى المعاش .. وعندما سأل عن هجرة مواطني كوبا .. أجاب ببرود شديد : هذه هجرة طبيعية لأن الناس تهاجر من البلاد الفقيرة إلى البلاد الغنية وفي رده علي سؤال حول مصير المعتقلين السياسيين؟ قال : أنه لا وجود لهم في السجون ووجود معارض للثورة في المعتقلات لا يعنى أنه سجين سياسى !!

وسئل لماذا لاتقيم نظام التعددية الحزبية؟ فقال أن الحزب الأوحده هو تركة الثورة ولا مجال لتغييره ..

وهنا سأله المحررون هل تعرف مصيرك؟ قال : أعرف أن الجحيم هو مصيرى وأن الحرارة هناك غير محتمله !!

فهل هذه الإجابات يمكن أن تصدر عن حاكم مسئول؟! بل هل يمكن أن تصدر هذه الإجابات عن رجل مدرك لما يقوله؟ ..

والمعروف عن فيدل كاسترو أيضا أنه كان يجيد المراثون الخطابي خاصة عندما يهاجم أمريكا .. وكان أطول خطاب ألقاه مدته ٧ ساعات و ١٥ دقيقة متصلة وكان عمره وقتها ٧١ عاماً وتحدث فيه عن الحصار الأمريكي وتعهد باستمرار النظام الاشتراكي في الحكم .. ورغم إصراره على إلقاء هذا الخطاب الطويل إلا أنه كان منفعلًا وتبدو منه إيماءات غريبة وحركات مرتجفة ويتحرك ببطء شديد .. وقد ذكر أطباؤه بأنه أصبح في الفترة الأخيرة سريع الغضب والإنفعال، وأنه يتناول حبوب مهدئة من نوع جرافيتا .. وفي الفترة الأخيرة قلت خطب كاسترو الطويلة بل يكاد أن يكون قد امتنع عن الخطابة وعندما يضطر إلى إلقاء خطبة فإنها تكون مقتضبة، وأقل حدة وعادة مايلقيها وهو جالس على كرسيه .. وقد دفعه إعتلال صحته إلى الكف عن إتباع سياسة الصدمات القوية التي كان يتبعها في الأوساط الدولية المختلفة لأنه ببساطة شديدة لم يعد يحتمل أن يصدر أى ردود أفعال قوية علي صدماته المتكررة وبالتالي فلم نعد نسمع الآن عن كاسترو ومشاغباته كما كنا نسمع عنها من قبل ..

أما عن ما ذكرته الطبيبة الكوبية من أن الرئيس الكوبى قد تعرض لإلتهاب دماغى ENCEPHALITIS فى أكتوبر عام ١٩٩٧ .. فيمكن أن نقول أن هذا الإدعاء من الممكن أن يكون حقيقيا خاصة وأن الرئيس كاسترو قد بدأ يتلعثم فى الحديث فى الفترة الأخيرة، بالإضافة إلي صدور حركات مرتجفة فى أطرافه العلوية والسفلية، وقد يكون هذا راجعا إلى مرض

باركينسون PARKINSONISM الذى يمكن أن ينشأ كنوع من المضاعفات المتأخرة للإلتهاب الدماغى .. وأغلب الظن أن كاسترو كان يعالج بالكورتيزون من بعض الأمراض الصدرية، التى سببت له حساسية بالصدر وتنشأ هذه الحساسية من تغير فى خلايا نسيج الرئتين، فيبدأ الجسم فى التعامل مع هذه الخلايا المتغيرة على إنها جسم غريب ويحاول طردها ولكن دون جدوى ويضطر الجهاز المناعى لإعادة تكرار هذه المحاولات المرة تلو الأخرى، وهنا يضطر الأطباء لعلاج المريض بالكورتيزون الذى يثبط جهاز المناعة وبالتالي يقلل من حساسية الصدر .. وقد يكون كاسترو قد أصيب بالأنفلونزا مع بداية فصل الشتاء، وتغيير الفصول حيث ينتشر فى هذا الوقت الإصابة بمرض الأنفلونزا .. والمعروف أنها تأتى نتيجة عدوى فيروسية لا يتغلب عليها إلا مناعة الجسم .. ولأن مناعة الجسم عند كاسترو كانت ضعيفة فيبدو أن الفيروس قد تمكن من مهاجمة أغشية الدماغ، فيما يعرف باسم VIRAL ENCEPHALITIS أو الإلتهاب الفيروسى الدماغى والذى يتسبب فى حدوث حالة تشبه الغيبوبة كما ذكرت الطيبة الكويتية، وكذلك ارتفاع ضغط الدم بالشرابين الدماغية RAISED INTRACRANIAL PRESSURE وما يقرب من ٥٠٪ من المرضى المصابين بالإلتهاب الفيروسى الدماغى يمكن شفائهم من هذا المرض إذا ما أحسن علاجهم .. ولكن يمكن أن يترك هذا المرض بعض المضاعفات الأخرى مثل التوهان الذى يفسر خطأ على أنه نوع من الإكتئاب وربما لهذا السبب قيل أن كاسترو قد أصيب فى الفترة الأخيرة بنوع من الإكتئاب حزنا على وفاة صديقه التى توفت متأثرة بمرض السرطان، وأيضا قد ينشأ كنوع من المضاعفات من الإلتهاب الدماغى .. مثل مرض باركينسون أو صعوبة الكلام أو السمع، والمعروف أن كاسترو اضطر فى السنوات الأخيرة إلى استخدام سماعة كهربائية تعينه على السمع .. بالإضافة إلى أن بعض الأعراض المرضية التى تظهر عليه والتى يمكن أن تتفق مع مرض باركينسون .. ولذلك من المحتمل بنسبة كبيرة أن يكون كاسترو بالفعل قد أصيب بالإلتهاب الفيروسى الدماغى وهذا بالطبع ما يجعله أثناء فترة المرض غير قادر بالمرّة على اتخاذ أى قرارات تخص إدارة البلاد .. وأن أى قرار أو رأى صدر عن كاسترو فى هذه الفترة يعتبر من وجهة النظر الطبية قرار صادر بغير خلفية صحية سليمة، وأن القرارات التى يتخذها بعد شفائه تتوقف على حدة المضاعفات التى تركها المرض .

وعموما فإن التركيبة الشخصية الشاذة لفيدل كاسترو والعوامل المرضية الأخرى المتمثلة فى إصابته بقصور فى شرايين القلب، وتصلب الشرايين، وارتفاع فى نسبة الكوليسترول بالدم وقصور فى وظائف الجهاز التنفسى، والمضاعفات الناتجة عن الإلتهاب الدماغى الذى أصابه .. كلها أمور مرضية تدلنا عن طبيعة القرار الذى كان يصدره فيدل كاسترو وما هى الظروف المرضية التى تحكمت فى اتجاهات حكمه .. والتى مازلت مصمما على أن أقوى هذه الظروف هى شخصيته غير الطبيعية والتى أصيبت بعقد وتركيبات مرضية منذ أمد بعيد وكان ضحيتها شعب بأكمله ..

الملك حسين بن طلال «لغز في الحياة... ولغز في الموت»

الملك حسين بن طلال العاهل الأردني السابق، كان أقدم حاكم عربي حتى فبراير ١٩٩٩، حيث رحل عن عالمنا متأثراً بمرض سرطان الغدد الليمفاوية أو «الليمفوما» عن عمر يناهز الرابعة والسنتين عاماً، قضى منها قرابة ستة وأربعين عاماً عاهلاً للأردن، وكانت سنوات حكمه حافلة بالأحداث والأهوال والمعارك، غير أنه قائد صقلته التجارب والمحن التي تعرضت لها بلاده في فترات حكمه، فاكتمب الكثير من الخبرات الممزوجة بخلفية إنسانية وتاريخية فريدة.. وبلا أدنى شك فهو «داهية العرب» والزعيم الخنك الذي يعرف كيف يدير سفينة بلاده وسط الأنواء والعواصف والتقلبات والظروف العالمية المتغيرة في كل وقت، خاصة إذا عرفنا أن الأردن مملكة فقيرة الموارد، وقليلة السكان، وتقع في منطقة حافلة بالصراعات والتحديات في الشرق الأوسط.. والملك حسين بن طلال تمتد جذوره إلى الرسول محمد عليه الصلاة والسلام.. فهو هاشمي، وكان يعتبر من أعمدة الشرفاء الذين ينتسبون إلى هادي البشرية، ومؤلف القلوب، وسيد الخلق رسولنا محمد الكريم.. وقد تولى الحكم في البلاط الهاشمي عام ١٩٥٣، وكان عمره حينذاك ١٨ عاماً بعد وفاة جده الملك عبد الله.

وحين توفي جده لم يكن الملك حسين قد أتم الثامنة عشرة، فأُنشئ مجلس للوصاية على الحكم في نفس الوقت الذي سافر فيه الملك حسين إلى إنجلترا لتعلم العسكرية وفنون الحرب في إحدى المدارس العسكرية الشهيرة هناك، وعندما أتم الثامنة عشرة عاد إلى الأردن، وتولى مقاليد الحكم، وكانت المسؤولية أكبر من أن يحملها على عاتقه وهو في هذه السن الصغيرة ولكن ذكاءه الشديد وقدرته الفائقة على فهم أمور الحكم، واستقائه للعب والدروس التاريخية جعله يشبث أقدامه في وقت قصير في بلاط الحكم، ويلم بكافة الخيوط والأمور في يديه.

وفي سن العشرين تزوج ابنة عمه من فرع هاشمي آخر، وأنجبت له ابنة واحدة فقط، ولم تنجب البنين، ثم طلقت عام ١٩٥٧، وبعدها بثلاث سنوات تزوج من الملكة منى ذات الأصل البريطاني، والتي أشهرت إسلامها، وخلال زواج دام عشر سنوات أنجبت له ولدين وبنيتين، وانتهى هذا الزواج أيضاً بالطلاق.

وفي عام ١٩٦٥ تزوج الملك حسين من «عالية طوقان» ابنة إحدى الأسر الفلسطينية، والتي توفيت إثر حادث طائرة وقد أنجبت له الأمير «علي» عام ١٩٧٥، ثم تزوج بعد ذلك من ليزا حلسي «الملكة نور» وهي ابنة أسرة أمريكية سورية والتي أنجبت له خمسة أبناء، منهم الأمير «حمزة» ولي العهد الحالي.. وأكبر أبناء الملكة نور..

وفي عام ١٩٥٦ أعلن الملك حسين أخاه الأمير الحسن بن طلال ولياً للعهد مفضلاً لإياه على أكبر أبنائه الأمير عبدالله الذي ولد عام ١٩٦٢ وقد اعتبره والده غير صالح سياسياً لإنتمائه لأم بريطانية، وفي عام ١٩٧٨ طلب الملك حسين من شقيقه أن يعلن ابنه الأمير حمزة من الملكة «نور» ولياً للعهد حين يصبح في الثامنة عشرة من عمره.. وبعد ذلك اقترح الملك آلية جديدة لخلافته وهي تشكيل مجلس ملكي خاص من أعضاء الأسرة المالكة لتحديد من يحق له أن يتولى العهد وذلك لتجنب تضارب مصالح أبنائه الأحد عشر من الأربعة زيجات المختلفة مع أبناء الأمير الحسن الأربعة والذين يمكن أن يطالبوا بولاية العهد بعد تولى أبيهم الحكم، غير أن الأمير الحسن نفسه لديه مشكلة، فزوجته باكستانية الأصل ولكن ميزة الأمر أنه يلقي بعض التأييد لدى المعارضة الإسلامية كنوع من العرفان لزوجته الباكستانية المسلمة بالنشأة والأصل.

ولا يختلف اثنان على أن الملك حسين كان يعرف من أين تؤكل الكتف، ويستطيع أن يمر من عنق الزجاجة بسهولة ويسر، وأن دهائه السياسي جعله يدير علاقاته الخارجية مع دول أوروبا وأمريكا والاتحاد السوفييتي وآسيا وأفريقيا بجدارة لامثيل لها وذلك بما يخدم مصالح المملكة الأردنية الهاشمية.. وأحياناً كنا نتفق مع الملك حسين وأحياناً أخرى نختلف معه، ولكن لا يستطيع أى محلل أو مدقق لموازن القوى في الشرق الأوسط أن ينكر أن واحداً من أهم العوامل التي كانت تحافظ على تعادل الموازين في المنطقة قد أهدر بوفاة الملك حسين، وأن العالم كله قد اهتز لوفاته، وكانت جنازته تعبيراً حقيقياً من العالم عن مدى احترامهم لشخصية وتاريخ عاهل الأردن إلى الدرجة التي جعلت أربعة من رؤساء أمريكا السابقين يقطعون آلاف الأميال إلى الأردن لتشجيع جنازة الملك بالإضافة إلى الرئيس الأمريكي بيل كلينتون وزوجته هيلاري، ونخبة غير عادية من زعماء وملوك ورؤساء الدول العربية والإسلامية والأجنبية.

وقد تبنى الملك حسين السلام كخيار أساسي في منطقة الشرق الأوسط، وكان راعياً روحياً لمفاوضات السلام الدائرة بين الفلسطينيين والإسرائيليين خاصة بعد أن عقد معاهدة سلام مع إسرائيل منذ سنوات قليلة، وقد رشح الملك حسين لجائزة نوبل للسلام، ولكن القدر لم يمهلها الفرصة، وترك الساحة العربية والعالمية تاركاً تراثاً ضخماً من الخبرات والتاريخ السياسي لابنه الملك عبدالله الذي تولى الحكم بعد وفاة أبيه في سيناريو درامي مؤثر..

الملك حسين صديقاً للأمراض

حين اطلعت على التاريخ المرضي للملك حسين.. وقفت بعض الوقت مذهولاً مع نفسي لطول ما قرأت عن رحلة الملك مع المرض؟! وعرفت أنه دخل المستشفيات للعلاج مرات كثيرة بعدد شعر رأسه.. وسألت نفسي.. كيف يمكن لأى حاكم فى أى بقعة من بقاع الأرض، وفى أى حقبة من حقب التاريخ أن يعبر بوطنه إلى بر الأمان ويصل به إلى حالة من الاستقرار، وهو يملك تاريخاً مع المرض يمكن أن يدرس فى مدارس الطب.. مثلما فعل الملك

حسين؟! فالملك حسين له رحلة طويلة وشاقّة مع المرض، ولم تمر مرحلة في حياته إلا وكان المرض مصاحباً له على الدوام إلى الدرجة التي يمكن أن نطلق فيها على الملك أنه كان «صديقاً للأمراض»، وكان مبتلياً دائماً في جسده، وآخر هذه الابتلاءات هي محنة مرضه الأخير، والتي بدا فيها أمام العالم شجاعاً قوياً راضياً بامتحان الله.

ففي ٢ مايو عام ١٩٧٥ ذهب الملك حسين إلى الولايات المتحدة الأمريكية للقاء الرئيس الأمريكي فورد، وهناك شعر ببعض المتاعب الصحية، فقام بإجراء بعض الفحوصات الطبية والأبحاث المعملية، وفي ٢٠ أبريل عام ١٩٧٧ عاد الملك حسين إلى الولايات المتحدة بعد تكرار شكواه من بعض الأعراض المتعلقة بالجهاز الهضمي وقام بإجراء الفحوصات الطبية في أحد المستشفيات الكبرى بولاية هيوستون..

وفي شهر فبراير عام ١٩٨٤ أصيب الملك بنزيف معوي حاد طار على أثره إلى الولايات المتحدة، حيث أدخل مستشفى كليفلاند بولاية أوهايو الأمريكية، وقد تم السيطرة على النزيف وعلاج أسبابه التي كانت تتعلق ببعض المتاعب في الجهاز الهضمي..

وفي ١٦ أبريل ١٩٨٧ شكى الملك من بعض الأعراض المؤلمة في أذنه اليمنى مما أدى إلى إجراء جراحة عاجلة وناجحة في أحد المستشفيات المتخصصة في بريطانيا.

وفي عام ١٩٩١ قرر الملك حسين عاهل الأردن إجراء بعض التعديلات السياسية في الأردن، وإقرار نظام سياسي وديمقراطي جديد، وقد قام بإعداد ميثاق عمل وطني للمرحلة الجديدة في ضوء ما يواجه الأردن من تحديات سياسية واقتصادية واجتماعية، ووفقاً للمتغيرات الدولية والعالمية، وقد اضطره ذلك لعقد مؤتمر سياسي لإقرار الميثاق الوطني وحضره ما يقرب من ٢٠٠٠ شخص وبعدها قام الملك باستقبال أكثر من ٤ آلاف مواطن أردني توافدوا للتهنئة بيوم الجيش.. وفي نهاية هذا اليوم شعر الملك حسين باضطراب في ضربات القلب، وعدم انتظام ملحوظ فيها مما جعل الفريق الطبي المشرف على علاجه يقرر سرعة إدخاله الرعاية المركزية للحالات الحرجة بمستشفى مدينة الحسين الطبية، وقد قام أطباء الملك بإجراء عدة رسومات للقلب وعمل الأبحاث اللازمة، وخرج الملك من المستشفى بعد تماثله للشفاء يوم ١٢ يونيو ١٩٩١.. وقد أعزى الأطباء المعالجون للملك ما حدث له للإرهاق وللجهد البدني والذهني الذي قام به خلال مؤتمر إقرار الميثاق الوطني..

ولم تمر شهور بسيطة حتى بدأ العاهل الأردني يشعر ببعض الأعراض الجديدة التي لم يكن معتاداً عليها من قبل.. فقد فوجيء بوجود دماء في بوله عند قضاء حاجته، وشعر الملك بشيء من القلق الذي جعله يطير إلى الولايات المتحدة الأمريكية في فصل جديد من فصول قصته مع المرض، حيث أدخل عيادة مايو في ولاية مينسوتا الأمريكية لإجراء الأبحاث اللازمة للكشف عن سبب وجود هذه الدماء في بول الملك.

ولعيادة مايو هذه.. تاريخ طويل وحافل مع الرؤساء والملوك والشخصيات العامة والشهيرة في عالمنا، فلا نسمع عن شخصية لها ثقلها وقد أشد عليها المرض إلا ولجأت إلى

مايو كلينيك للعلاج ووضع حد لمعاناة المرضى، ولهذا الأمر حكاية طويلة ودوافع كثيرة، فهذه المستشفى تقع في مدينة روسشتر في ولاية مينسوتا الأمريكية ولها فرعان في كاكسوننكيل في ولاية فلوريدا وفي سكونسديل بولاية أريزونا ويرجع اهتمام الزعماء والشخصيات العامة وحرصهم على العلاج بهذه المستشفى إلى توفر السرية وكتمان الأسرار بين العاملين فيها.. ولا يمكن مطلقاً أن يدلي مديرها أو أحد العاملين في المستشفى من الأطباء أو غيرهم بأية أحاديث أو معلومات تتعلق بالحالة الصحية لأي مريض وهذا مبدأ معروف في هذه المستشفى العريقة..

وقد أسس هذه المستشفى ويليام وارال مايو عام ١٨٦٠، ويذكر أنه ألحق ولديه ويل وتشارلز لدراسة الطب، ثم سرعان ما انضموا لفريق العمل بالمستشفى وكانا حريصين، على السفر إلى كل أنحاء العالم لحضور المؤتمرات الطبية، والإطلاع على أحدث الوسائل في علاج الأمراض المختلفة، والتطورات الجارية على الساحة الطبية في الخارج ثم يعودون بعد رحلتهم العلمية ليقوموا بتطبيق ما تعلموه من أسرار حديثة في الطب... وفي عام ١٨٨٥ أجريت ١٢ جراحة لاستئصال الزائدة الدودية بمايو كلينك وقد وصل عدد الجراحات بعد ذلك والتي تجرى بالعيادة إلى أكثر من ١٠٠٠ حالة جراحية في عام ١٩٠٥.. وفي عام ١٩١٢ نجحت المستشفى في علاج ١٥ ألف حالة مرضية في مختلف الأمراض.. وقد ارتفع هذا العدد إلى ٦٠ ألف حالة عام ١٩١٩ وفي عام ١٩٩٧ وصل عدد المرضى المستفيدين من خدمات عيادة مايو إلى ١,٥ مليون مريض منهم ٧ آلاف مريض من خارج الولايات المتحدة الأمريكية ويعمل بالمستشفى ١١٢٦ طبيباً وأخصائياً.. وتقع على مساحة تبلغ ١٠٠٠ متر مربع تقريباً، وميزانيتها السنوية تبلغ بليون دولار.. وقد عولج فيها من المشاهير الرئيس الأمريكي الأسبق رونالد ريجان، والبطل العالمي محمد علي كلاي والروائي أرنست هيمنجواي، والممثل بيل كوسبي وسيدة أمريكا الأولى هيلاري كلينتون، وبربارا بوش وغيرهم كثيرين.

وقد كان الملك حسين يقدس هذه المستشفى، ويقدر العاملين فيها ويثنى بصفة دائمة عليهم.. وهذا بالقطع للأسباب التي ذكرناها، وفي هذه المستشفى تأكد للملك لأول مرة أنه مصاب بمرض السرطان الذي أثر على الحالب الأيسر وانتقل إلى الكلى اليسرى، وكان لابد من إجراء جراحة سريعة وعاجلة للملك لاستئصال الحالب والكلى اليسرى، وأخذ عينات من نسيجهما للوقوف على درجة شدة المرض، وحتى يتثنى للفريق الطبي المعالج محاصرة السرطان منعاً من انتشاره في كافة أعضاء الجسم، وكان هذا في شهر أغسطس عام ١٩٩٢، والجدير بالذكر أنه فور شعور الملك بوجود الدماء في بوله لجأ إلى مستشفى تابع للجيش الأردني في المملكة، وبقي فترة تحت الملاحظة الطبية، ثم أخذ قراره بالسفر إلى مايو كلينك، وأعلن طبيبه الخاص بعد إجراء الجراحة إلى أن الأمر لن يحتاج بعد ذلك للعلاج بالأشعة أو العقاقير.

وقتها كانت الأزمة الطاحنة التي تعرض لها الوطن العربي من جراء احتلال العراق للكويت قد بدأت آثارها السلبية تظهر في الأفق، أو بدأ الشقاق العربي ينفذ إلى قلب الأمة

العربية، وكان للملك حسين موقفه المساند للعراق والذي أذهل العالم العربي وجعل الأوساط السياسية تجزم بأن العاهل الأردني قد خانته التوفيق في قراره بمساندة العراق، وأن حنكته وخبرته السياسية لم تكن على طريقها الصحيح، ولكن سرعان ما تطايرت أخبار عن قيام الرئيس العراقي صدام حسين بإعطاء وعد إلى الملك يفرض سيطرته على المملكة العربية السعودية بعد أن يحتلها الجيش العراقي، كما كان يخطط صدام لذلك.. وأن الملك حسين قد يرى في هذا الاتفاق ما يحبب داخله ذكرى أنه من الأسرة الهاشمية، وأنه الوريث الشرعي لحكم الأسرة الهاشمية على أرض المملكة العربية السعودية.. ولكن هذه الأخبار لم تؤكد تفصيلاً، كما لم يسلم بدقتها أحد، وظل موقف الملك حسين غريباً ومدعشاً حتى وقت قريب، وقتها قالت صحيفة الفجر الجديد الكويتية أنه يبدو أن مرض السرطان انتقل من كلية العاهل الأردني إلى مخه وأثر على تفكيره، وأن الله عاقب الملك على جرائمه في الخيانة العظمى لأمتة العربية أثناء حرب الخليج..

وعاش الملك بداية النهاية مع مرضه اللعين في هذه الظروف القاسية، وفي ظل الشرخ العربي العميق، وإحساسه بالعزلة والحصار السياسي من الملوك والرؤساء العرب، وكان هذا بالطبع له أثره السيء على حالته الصحية التي تدهورت شيئاً فشيئاً، وأضطره ذلك إلى السفر مرات إلى الولايات المتحدة الأمريكية للوقوف على تطورات حالته الصحية، وفي ٤ مارس ١٩٩٥، شعر الملك ببعض المتاعب في الأنف والأذن وتطورت هذه المتاعب إلى مضاعفات، إلى الدرجة التي كان يشعر فيها بصعوبة في التنفس من أنفه، وأمتدت معاناته بصورة مؤلمة، فآثر أن يدخل مستشفى مدينة الحسين الطبية بالأردن، وهناك إكتشف أطباؤه المعالجون وجود تكيس متحجر في الأنف الخلفي، وهو الذي يسبب الصداع الشديد الذي كان يشعر به الملك، وتقرر أن يجري الملك حسين جراحة لاستئصال هذا التكيس، وفضل هذه المرة أن يجربها في مستشفى مدينة الحسين وعلى أيدي أطبائه الأردنيين.. وتمثل للشفاء وزالت شكوته بخصوص الأنف، لكنه فضل بعد ذلك أن يطير إلى مايو كلينك مرة أخرى لإجراء فحص شامل على حالته الصحية، ويبدو أنه كان يشعر بالقلق الشديد والخوف، وكان يرى رؤية ذاتية لا يراها غيره فيما يتعلق بمرضه وحالته الصحية.

وبالفعل طار إلى أمريكا في ٥ ابريل عام ١٩٩٥، وأجرى الفحص الشامل، وقيل وقتها أن الفحوصات أثبتت خلو الملك من الأمراض وبالأخص ما يتعلق بتطورات مرض السرطان، وأعلن الأطباء أن الحالة الصحية للملك تحت السيطرة وأن مرض السرطان قد إنهزم بفعل الإرادة القوية للملك وشجاعته في مواجهة الأزمة.. ولكن يبدو أن هذا التصريح كان من قبيل التغطية الإعلامية فقط وإضفاء جو من التعظيم الإعلامي هذه المرة على حالة الملك، إذ لا يمكن طبعاً أن يتماثل الملك تماماً للشفاء من السرطان وهو لا يتناول أى عقاقير أو يتعرض للعلاج الإشعاعي بعد استئصال كليته اليسرى والحالب كما ذكر طبيبه الخاص من قبل، ثم يعود المرض مرة أخرى ليهاجم جسده في غضون شهور بسيطة، كما سيتبين لنا لاحقاً، ويبدو أن العاهل الأردني كان يعالج علاجاً مكثفاً خلال هذه المدة، ولكن لا اعتبارات

سياسية كثيرة حدثت، تعتيم على حالته الصحية في هذه الفترة بالذات .

وفي ٢١ يوليو ١٩٩٦، طار الملك إلى لندن للوقوف من جديد على وضعه الصحي، وأعلن وقتها أنه ذهب إلى لندن لإزالة خراج بسيط كنوع من أنواع الالتهاب العادي التي لاقاها لها بمرض السرطان، ولكن يبدو أنه أجرى جراحة أزال فيها أطبائه مضاعفات جديدة من مضاعفات السرطان بالأسلوب الجراحي .

ولم يلبث أن عاودت الملك بعض الأعراض الأخرى التي ليس لها علاقة بالفعل بالسرطان .. فشهور قليلة مضت وبدأ يشعر بالآلام غير عادية في ركبته اليسرى، وكماداته في الأمور الطبية التي يرى من وجهة نظره أنها بسيطة ومعنادة أن يدخل مستشفى مدينة الحسين الطبية لإجراء الفحوصات اللازمة، ولكن أطبائه إكتشفوا إصابة غضروف الركبة اليسرى ببعض الالتهاب والتكلسات التي جعلته يشعر بالآلام شديدة عند المشي لفترات بسيطة .. واستقر رأى الأطباء على إزالة هذا الغضروف جراحياً، ووافق الملك على إجراء الجراحة في الأردن، وبعدها زالت شكواه من ركبته اليسرى إلى حد كبير .. ولانستطيع التوقف بالفعل عن حقيقة الأطباء الذين كانوا يجرون الجراحات للملك في مستشفى مدينة الحسين الطبية، فبعض المصادر أكدت أن الفريق الطبي مكون كاملاً من أطباء أردنيين يثق فيهم الملك والبعض الآخر أكد أنه كان يستدعي أطباء أمريكيين متخصصين إلى الأردن لإجراء هذه الجراحات بمعاونة الأطباء الأردنيين .

ولكن يبدو أن مايو كلينك - كانت لا ترغب في أن يفارقها الملك حسين خاصة بعد أن بدأ يشعر بمشاكل صحية، وآلام عند تبوله، وطار مرة أخرى إلى أمريكا، حيث ظهر أن الملك يعاني من تضخم في البروستاتا، وأعلن طبيبه الخاص أنه تم استئصال جزء من البروستاتا، والذي كان ملتهباً ومتضخماً، ولكن الأرجح أن مرض السرطان اللعين قد بدأ يهاجم هذا العضو الهام في حياة الرجل، وكان ذلك في ٥ أبريل ١٩٩٧ .

وعاد الملك إلى الأردن .. لكن فحيمته هذه المرة كانت غير عادية .. فقد بدأ يلاحظ أوراماً في أنحاء متفرقة من جسده .. ويبدو أن السرطان قد قرر كشف النقاب عن وجهه هذه المرة بصورة واضحة خاصة بعد أن وصل إلى مرحلة من القوة والتمكن من جسد الماهل الأردني، فقد شاهد الملك تورماً كبيراً أسفل بطنه في المنطقة ما تحت السرة، وكماداته طار إلى مايو كلينك في ١٢ نوفمبر ١٩٩٧ وهو الشهر الذي يحتفل فيه الملك بعيد ميلاده .. وكان وقتها قد أتم النانية والستين من عمره، وفي عيادة مايو اكتشف الأطباء أن هذا الورم ما هو إلا تضخم ليمفاوي أسفل السرة ولكنهم أصروا على استئصاله والقيام بتحليل خلاياه وأنسجته للوقوف على طبيعته، وقيل وقتها أنه ليس ورماً سرطانياً .. وصرح طبيب الملك الخاص بأن الأطباء المعالجين للماهل الأردني أكدوا بعد فحص خلايا وأنسجة التضخم الليمفاوي المستئصل بأنه ليس ورماً سرطانياً بأي حال من الأحوال .. ولكن الحقيقة على ما يبدو كانت غير ذلك؟!

وكانت هذه المرة هي البداية الحقيقية للفصل الأخير للملك حسين على مسرح الحياة..

وتبين إصابة الملك بالليمفوما أو سرطان الغدد الليمفاوية.. وتمكن السرطان بالفعل من الوصول إليها واحتلال أنسجتها.. ولا نستطيع أن نجزم بالدقة هل أصيبت الغدد الليمفاوية بالسرطان منذ بداية مهاجمة المرض لجسد الملك حسين أم أنه جاء في مرحلة ثانية، منتشراً من الكلية اليسرى والحالب والذي تم استئصالهما في مايو كلينك من قبل؟!!

المهم.. أن الليمفوما هي أخطر أنواع السرطان، ونستطيع أن نتبين هذه الحقيقة إذا عرفنا أن الغدد الليمفاوية هي أحد خطوط الدفاع الرئيسية عن الجسم عند مواجهته للأمراض المختلفة.. وهي شريك أساسي في جهاز المناعة في جسم الإنسان.. وتنتشر في أجزاء متفرقة ومتعددة في الجسم في صور فردية أو متجمعة، والليمفوما تبدأ بتضخم ظاهر في الغدد الليمفاوية وتغير في أنسجتها وخلاياها، لتستبدل الخلايا السليمة بخلايا مسطرة، ويبدأ المرض تبعاً بالانتقال من غدة إلى أخرى، ومن مجموعة إلى أخرى، حتى يتحطم جهاز المناعة وخط الدفاع الأول عن صحة الإنسان، وهنا يصبح الإنسان معرضاً للموت من أقل مهاجمة لأضعف ميكروب يهاجم الجسم.. وقد تكون هذه التضخمات الليمفاوية مؤلمة، أو غير مؤلمة وقد يصحبها تضخم متزايد في الكبد والطحال، ويصل بعد ذلك إلى درجة الفشل في أداء وظائف الكبد، وينتشر هذا التضخم ليشمل العقد الليمفاوية في الجلد وبالقرب من العظام، وفي الرئتين والجهاز التنفسي والمخ، ويصاب المريض عادة بإرتفاع متكرر في درجة الحرارة والتهابات مختلفة سطحية وغائرة في أماكن متفرقة من الجسم، بالإضافة إلى نقص شديد في الوزن وضعف عام ونزول كميات كثيرة من العرق من مسام المريض، مما قد يسبب له حالة جفاف شديدة، ويتعرض المريض بعد ذلك لنوع من الأنيميا الحادة، وإختلال شديد في مكونات الدم..

وللسرطان الليمفاوي نوعان كما هو معروف في الأوساط الطبية وهما مرض هودجكين، ومرض السرطان الليمفاوي العادي، والأول يمكن أن يصيب مراحل عمرية مختلفة تبدأ من سن الشباب إلى سن الشيخوخة أما الأخير فإن معدل الإصابة به يتراوح دائماً حول سن الخمسين عاماً، ويكون تشخيص النوعين عن طريق بعض صور الدم والتحليل الخلوي والنسجي للغدد الليمفاوية بأخذ عينات مختلفة، وبفحص النخاع الشوكي وتحليله وأخذ عينة من المادة الدهنية الصفراء بنخاع العظام والوقوف أيضاً على وظائف الكبد.. وبعدها يمكن بسهولة تشخيص المرض وتحديد نوعه.

وفي حالة العاهل الأردني الملك حسين فقد إنتقل المرض إلى مصانع مكونات الدم في جسم الإنسان مثل نخاع العظام، وفقد الملك جهازه المناعي وأصبح يتعرض لنوبات قاتلة من ارتفاع درجة الحرارة والالتهابات المتقيحة بجسده، إلى الحد الذي جعله يرسل برقية لشقيقه وولي عهده الأمير الحسن بن طلال من مرقده في مايو كلينك في ٢٢ يوليو ١٩٩٨ يشرح له فيها أنه أصيب بسرطان الغدد الليمفاوية، وأنه يعاني من هبوط حاد في قدراته الدفاعية، وأن

الأطباء سوف يقومون بتجديد نوع الليمفوما بشكل قاطع بعد الحصول على نتائج التحاليل المعملية الكاملة على الشرائح والعينات التي أجريت له، وقال له: إن ارتفاع درجة الحرارة يعاودنى بمعدل ثلاث مرات في اليوم الواحد، والعلاج بالمضادات الحيوية مستمر وبلا توقف.

وكان الملك قد وصل إلى المستشفى معانياً من إصابته بحمى ونزلات برد متكررة وشديدة، عجز أطباؤه عن وضع حد لها.. وفور وصوله إلى الولايات المتحدة الأمريكية أمر الرئيس الأمريكي بيل كلينتون بوضع أطبائه الخصوصيين تحت تصرف الملك ومتابعة حالته الصحية أولاً بأول وإبلاغ تطوراتها فوراً إليه في أي وقت من أوقات الليل أو النهار وتناقلت وكالات الأنباء الإسرائيلية أخبار الزيارة التي قام بها إريل شارون وزير الخارجية الإسرائيلي في ذلك الوقت للملك حسين في مستشفى مايو كلينك في شهر أكتوبر ١٩٩٨ وقالت إن الملك حسين يتمرض لمرض الموت، وأن حالته الصحية متدهورة للغاية، وانتقدت الأردن بشدة ما أذاعته الوكالات الإسرائيلية ونشرته في صحفها ووصفت تلك الأنباء بأنها دس صحفي، واضطر إريل شارون إلى إرسال خطاب إلى الحكومة الأردنية ينفي فيها قيامه بنشر معلومات حول حالة الملك الصحية في أعقاب زيارته له بمستشفى مايو كلينك..

وفي ١٤ ديسمبر ١٩٩٨ تم زرع نخاع للملك حسين بنفس المستشفى بعد أن تبرعت شقيقته بجزء من نخاعها لإنقاذ حياة الملك، والذي كان يحتاج لجراحة زرع نخاع كنوع من تحسين مكونات الدم التي كانت قد تدهورت كمأ وكيفاً مما أدخل الملك في نوع من الأنيميا الخبيثة.. وكان الملك يتعرض لجرعات شديدة ومكثفة من العلاج الكيميائي والإشعاعي على مدى ستة مراحل، مما أصابه بالإرهاق الشديد والضعف العام، وتساقط شعره عن آخره، وغارت عيناه إلى الداخل، وبدا شاحباً وقد ظهر ذلك واضحاً في حفل توقيع الاتفاق الفلسطيني الإسرائيلي في واي بلانتيشن في شهر أكتوبر ١٩٩٨ بالولايات المتحدة الأمريكية.. وذكرت صحيفة التايمز البريطانية أن العاهل الأردني قد أخطر المسؤولين في الأردن إلى احتمال وفاته في غضون ثلاثة شهور، وذكر تقرير الصحيفة أن الملك أعلن ذلك قبل توجهه مباشرة إلى واي بلانتيشن للانضمام إلى مفاوضات السلام.

وهناك حقيقة مهمة يجب أن نعترف بها!؟ أن الملك حسين بدا شجاعاً وقوياً في مواجهة المرض، وبمدى حجم خبرته وتاريخه السياسي العريق كان حجم هدوئه وصلابته في الاعتراف بأنه يواجه محنة مرضية غير عادية وسيكون لها تأثيراً قوياً على حياته في غضون ثلاثة شهور..

والملك حسين كان أقوى الملوك والزعماء ممن واجهوا مرضهم ببسالة على مر التاريخ إلى الحد الذي جعل كل المحللين يؤكدون أن الملك كان يودع العالم في كلمته القصيرة الرائعة التي ألقاها في واي بلانتيشن أثناء توقيع اتفاق السلام الفلسطيني الإسرائيلي.. بل أكثر من ذلك أن الملك اتخذ قرارات قوية وعميقة أثناء مرضه وهو ما سأعرض له بعد قليل، ولكنه كان مهموماً بترتيب البيت من الداخل، خاصة وأنه بدأ يشك في التوجه السياسي لطبيعة الأمير الحسن ولي عهد الأردن والذي سيختلف شكلاً وموضوعاً عن ما كان يريده الملك

حسين بعد وفاته، وأعطى الملك حسين الإشارة إلى البرلمان الأردني قبل دخوله في غيبوبة المرض في الفصل الأخير من حياته إلى الاجتماع الطارئ لإجراء تعديلات دستورية تتفق وغياب الملك.

وغياب الملك... ورحل عن العالم في ٥ فبراير ١٩٩٩

وقبل غيابه... فجر أخطر قراراته وهو على مقربة مسافة متر واحد من قبره..

فقد عزل شقيقه الأمير الحسن ولي عهده.. وعين ابنه عبدالله ولياً لعهد.. وهو الذي قال عنه من قبل أنه لا يصلح سياسياً لأنه من أم إنجليزية.

ومات الملك...

وما زال قراره الأخير.. أثناء المرض... موضع تساؤلات كثيرة ودقيقة!!؟.

الملك حسين وأخطر قرار أثناء المرض

اختلف نبض الشارع العربي كثيراً على موقف الملك حسين من شقيقه الأمير الحسن ولي عهده على مدى أكثر من أربعة وثلاثين عاماً والذي كان كاتم أسراره ونائبه المطيع الذي لم يخذله يوماً في أى موقف من المواقف التي تعرضت لها الأردن طوال فترة حكم الملك حسين.

والعلاقة بين الملك وولي عهده لم تكن علاقة أشقاء فقط بل كانت علاقة احترام وتقدير من الأمير الحسن وحب ورعاية من الملك حسين.. وهذا الذي جعل الشارع العربي يضرِب كفاً بكف فور سماع خبر تنصيب الأمير عبدالله أكبر أبناء العاهل الأردني ولياً للعهد، وإسْدال الستار على الأمير الحسن كولي للعهد في صورة أشبه بالعزل الدبلوماسي الهادئ الذي كان بمثابة إعدام سياسي، خاصة بعد أن أسقط في يده وهو يرى شقيقه الأكبر يلفظ أنفاسه الأخيرة ولم يكن من المناسب أن يعارضه أو على الأقل يناقشه في قراره في ظل وضعه المأسوي الذي سبق وفاته بأيام.

وعلى الرغم من أن الأمير الحسن بن ثلال كان متمرداً في توجهاته السياسية فيما يتعلق بأرائه المتشددة ضد إسرائيل، إلا أنه كان ينزل دائماً على رأى شقيقه الأكبر.. وكانت سياسة الأردن تتحدد برؤية الملك حسين نفسه وزاوية بصره في القضايا السياسية المختلفة، وخاصة التي تتعلق بقضية السلام في الشرق الأوسط وعلاقات إسرائيل مع الدول العربية بصفة عامة، ودول الطوق بصفة خاصة، وهذا ما جعل الأمير الحسن يتخذ نفس زاوية البصر التي كان يتخذها الملك حسين في الأمور الدولية والسياسية إلى الحد الذي جعله يعلن عندما كان رئيساً للمنتدى الفكرى العربى أن إسرائيل ليست هى العدو الحقيقى للدول العربية وإنما العدو للحكومات العربية وإسرائيل إنما هو موجة التعصب الدينى، وينبغى قيام تعاون مشترك بين الحكومات العربية وإسرائيل لمواجهة هذه الموجة حتى لاتشهد المنطقة حرباً من

باكستان إلى المغرب العربي .

ومن هنا نتأكد أن الأمير الحسن كان على وفاق سياسى تام مع شقيقه العاهل الأردنى ، وأنه تبنى تأييد المواقف السياسية للملك حتى تلك المواقف التى كان لا يتفق فيها مع وجهة نظر الملك حسين .. ولهذا فإن صدمة قوية أحدثتها التفسير السياسى الأخير فى ولاية العهد فى الأردن تركت آثارها الواسعة فى وجدان الرأى العام العربى والعالمى ..

والمعروف أن الملك حسين كان مرابطاً فى الفترة الأخيرة من حياته فى المستشفيات ، وفى حجرات الرعاية المركزة للحالات الحرجه ، وأن رؤيته فيما يتعلق بولاية العهد فى الأردن ، تبلورت وهو يعيش فى ظروف مرضية وعلاجية غير عادية ، حيث كان محاطاً بعشرات الأجهزة الطبية ، ويجرى له فى كل يوم تحاليل وأبحاث معملية للوقوف كل ساعة على تطور حالته الصحية ، كما كان واقفاً تحت الإشراف الطبى لعشرات من مشاهير الأطباء العالميين الذين حاولوا معالجته بالمحاليل الكيميائية والمضادات الحيوية وأجهزة العلاج الاشعاعى المكثف ، وكل هذا من شأنه أن يفقد الإنسان قدرته على التركيز وإتخاذ القرار .. وبعد أن عاد الملك حسين من رحلته العلاجية بالولايات المتحدة الأمريكية ، وعين أكبر أبنائه ولياً للعهد ظهرت آراء مختلفة وكثيرة فى الأوساط السياسية والطبية والشعبية العالمية ، تتساءل عن أحقية الملك فى إتخاذ قرار خطير مثل هذا ، وهو يعتبر من وجهة النظر الطبية الشرعية فاقداً لقدرته على إصدار التعليمات والقرارات الهامة أو الإدلاء بتصريحات خاصة فى الفترة الأخيرة من مراحل علاجه ، وهو ما دفع السلطات التشريعية والتنفيذية فى البلاد إلى إتخاذ الإجراءات اللازمة التى تتفق مع غياب الملك وفقدانه السيطرة على إدارة أمور البلاد لظروفه الصحية رغم أن الملك كان مازال حياً يرزق .

ونحن الآن لسنا بصدد مناقشة الفرق بين الملك عبدالله أو الأمير الحسن بن طلال فيما لو تولى الأخير السلطة ووطأت أقدامه أرض البلاط الهاشمى كملك للبلاد ، لأن الملك عبدالله فى النهاية جاء إلى الحكم محاطاً بالإرادة الشعبية ، وموافقة الجماهير المتمثلة فى تأييد ممثلى الشعب للملك الجديد تحت قبة البرلمان الأردنى .. ولكننا نتكلم عن وجهة النظر الطبية فى تحليل قرارات الملك حسين فى فترة المرض الأخيرة .. ، والطبى أن مريضاً مصاب بسرطان الغدد الليمفاوية فى حالة متأخرة للغاية ، لا يمكن أن يكون فى وضع يسمح له بإتخاذ قرارات مصيرية وصعبة ، بالإضافة إلى تأثير المرض نفسه وتأثير العلاج الكيميائى والإشعاعى الذى يضعف الإنسان ويجعله فى حالة هزال كلية ، كما ان الملك أصيب بأنيميا حادة وخبیثة ، ومعناها وجود تغيير باثولوجى فى مكونات الدم وهو ما يؤثر على وظائفها ، وبالذات فيما يختص بنقل الأكسجين إلى أعضاء الجسم البشرى ، وبالأخص المخ الذى يتأثر بغياب الأكسجين عنه لشوانى معدودة ، وقد يضر ذلك بالوظائف الحيوية والهامة التى يقوم بها المخ والأجهزة العصبية المركزية والظرفية ، وكل هذا جعل الكثير من الأوساط السياسية والطبية ، تشكك فى قدرة الملك على التصدى للقرارات الحاسمة التى اتخذها قبل وفاته بأيام معدودة .. ولنا أن نتصور ما الحالة الذهنية التى يمكن أن يكون عليها إنسان تحطم جهازه المناعى وأصبح

قشة في مهيب الريح بالنسبة لأضعف جرثومة مرضية في الكون وخاصة إذا عرفنا أن كل الأجهزة في جسم الملك قد تهاوت في أداء وظائفها الحيوية في الأيام الأخيرة من حياته وهذا أيضاً ما يجعل الدم يصاب بحالة من التسمم التي قد تؤثر بدورها على قدرة الملك على التركيز والإدراك .

ولكن يبدو أن الملك حسين كان متشبساً بالحياة حتى آخر اللحظات قبل أن يفقد وعيه تماماً .. وكان يشعر بقلق شديد على مستقبل الأردن من بعده وهذا جعله يبدو في حالة من التماسك والإدراك تجعله مسئول على إتخاذ قراره على الأقل أمام التاريخ الذي ستقرأه الأجيال فيما بعد وسوف تحكم حكمها وتدلي بدلوها في هذا الأمر .

والمعروف أن تطورات مرض الملك حسين كانت تشغل الأوساط السياسية ودوائر صنع القرار في مختلف دول العالم، وخصوصاً في الولايات المتحدة الأمريكية والدول العربية وإسرائيل وليس خافياً أن أمريكا كانت تتابع الموقف لحظة بلحظة وكانت تخشى على مستقبل منطقة الشرق الأوسط بعد وفاة الملك مما يؤثر بصورة مباشرة على مصالحها في المنطقة وأن إسرائيل كانت تولى إهتماماً خاصاً بصحة الملك، وقد ذكرت جريدة بديعوت أحروروت الإسرائيلية أن تدهور الحالة الصحية لملك الأردن، كان له آثار سلبية على تطورات الأوضاع بالمنطقة وهذا ما جعل أطباء الموساد يفحصون بإمعان التقارير الطبية الصادرة عن حالة الملك، وذلك من خلال الشعبات المتخصصة بالخابرات وقسم البحوث بالموساد الإسرائيلي والذي يقوم بمتابعة دقيقة لتفاصيل خطة علاج الملك، .. ولا شك أن الملك الضعيف صحياً والذي يرى شبح الموت أمامه في كل دقيقة كان متأثراً من الناحية النفسية بالشقاق الذي كان يمكن أن يحدث بين أفراد عائلته بعد رحيله إذا ما حدث صراعاً على السلطة وبدا كمن يتترك خلفه حملاً ثقيلاً على من يخلفه بالإضافة إلى أن مسألة الخلافه كانت شغله الشاغل على فراش المرض .. وهنا نجد سؤالاً هاماً يطرح نفسه بقوة شديدة .. لماذا لم يفكر الملك حسين طوال رحلته المرضية في القيام بهذا التعديل في ولاية العهد خاصة عندما كان مرضه في بدايته، وكان الملك مازال قوياً و متماسكاً وقادراً على مواجهة أى تبعات لهذا القرار ؟ ولماذا لم يعين الملك حسين ابنه عبد الله بن الحسين ولياً لعهد منذ بلوغه الصلاحية السياسية التي تؤهله لهذه الولاية خاصة وأن أسهمه الشعبية كانت في تزايد مستمر عندما كان قائداً في الجيش الأردني ؟ ..

الأمر إذن تعلق برؤية الملك الحاسمة لنهايته الأكيدة، والتي خشى معها أن يخرج الحكم من بلاط أسرته الصغيرة إلى بلاط عائلته الهاشمية الكبيرة خاصة إذا قام الأمير الحسن بتعيين أكبر أبنائه الأمير «راشد» ولياً لعهد من بعده لتولى حكم الأردن، ثم يطالب الأخير بعد وفاة والده بحكم الأردن !!!

ولم يكن أمام العاهل الأردني وقتاً لكي يفكر أو يتدبر هذا الأمر، وقرر أن يفاجئ العالم بتنصيب أكبر أبنائه ولياً للعهد في الملكة الأردنية الهاشمية ..

وقد أسرف المخللون في تصور عدة سيناريوهات لخطوة إنتقال السلطة في الأردن، فالبعض قال أن الملك حسين أثناء رحلته العلاجية في أمريكا وقع تحت ضغط أمريكي شديد لإجراء هذا التغيير السياسي في الأردن خاصة وأن الإدارة الأمريكية لم تكن مستعدة للترحيب بتولى الأمير الحسن حكم الأردن، كما قالت بعض المصادر أن الملك حسين كان قد توفي بالفعل في أمريكا وأن وكالة الإستخبارات الأمريكية «سى.أى.إيه» قد أعدت شبيهاً له تماماً وأرسلته إلى الأردن ليقوم بتنفيذ التعديلات السياسية التي تخص تنصيب ابنه عبدالله ولياً للعهد وعزل أخيه الأمير الحسن ولي العهد الشرعي للبلاد، وإعتمدت وكالة الإستخبارات الأمريكية على أن أى تغيير طفيف في ملامح الشخص البديل، والذي قد يلحظه البعض يمكن أن يعزى إلى العلاج الكيميائي الذي كان يعالج به الملك حسين، والذي أحدث تغييرات كثيرة في ملامحه الشكلية ومواصفاته الجسدية، وهذا وحده كفيل بدفع الشكوك نحو حقيقة هذا البديل الذي يعود بعد ذلك للولايات المتحدة كأنه الملك الذي طار لإستكمال العلاج وبعد أيام يرسل جثمانه الحقيقي للأردن للقيام بمراسم دفنه.

ولكن هذه القصص والتحليلات لا يمكن التكهن بصحتها أو حقيقتها، ومن البديهي أنها يمكن أن تكون من قبيل التلفيق الصحفي لبعض الصحف والمجلات العالمية التي تشيع أجواء الإثارة في أوساط الرأي العام المحلية والعالمية، وبالتالي تشهد هذه الصحف والمجلات أرقاماً خيالية في التوزيع.. وعموماً فإن التاريخ سيكشف في المستقبل الكثير والكثير من الحقائق والأحداث والآراء التي لا يمكن الحزم بصحتها في الوقت الحالي.. والظاهر أن الأمير الحسن بن طلال، وافق على رغبة شقيقه العاهل الأردني بنقل ولاية العهد منه إلى أكبر أبناء الملك فلم يكن في إستطاعة الأمير الحسن أن يفعل شيئاً، أو يصدر أى رد فعل في هذا التوقيت بالذات، خاصة وأن أخيه يحتضر وفي ساعات عمره الأخيرة..

وكان إستسلام الأمير الحسن لرغبة أخيه التي جاءت على حسابه شخصياً موقفاً يحسب له ويظهر لنا مدى ولائه الشديد لشقيقه العاهل الأردني الراحل، وكان بوسعته أن يفعل الكثير والكثير خاصة وأن له رجاله ومؤيديه في بلاط السلطة الهاشمية، والذين كانوا سيحمون أى قرار يتخذه الأمير الحسن لو فكر أن يعارض أخيه ويدفع بعدم صلاحيته صحياً لإتخاذ قرارات مصيرية في حكم البلاد كهذا القرار الذي دفع ثمنه... وكان بوسع الأمير الحسن أيضاً أن يلقي بعض التأييد من الرأي العام العالمي الذي كان سيتعاطف معه ومع قضيته ولكنه أراد أن ينأى بالبلاد عن أتون الحرب الأهلية وصراع السلطة الذي كان سيلقى بالأردن في الجحيم المحقق..

وتبدو لنا في النهاية حقيقة هامة في كافة الأحوال، وهي أن الملك عبدالله بن الحسين قد تولى حكم الأردن بناءً على إرادة شعبية مستمدة من جماهيريته بين أبناء الأردن وعلى انصياع الأمير الحسن لقرارات الأسرة الهاشمية التي تبنت بالكامل إرضاء الملك حسين في أيامه الأخيرة..

ويبقى الملك حسين لغزاً في حياته.. ولغزاً في مماته!!

فرانسوا ميتران «رئيس بلا حدود»

ولد الرئيس الفرنسي الراحل فرانسوا ميتران في ٢٦ أكتوبر عام ١٩١٦ في قرية جارانك بمقاطعة شارانت بفرنسا، حيث كان ترتيبه الخامس من بين ثمانية أبناء نصفهم من الذكور والنصف الآخر من الإناث، وكان والده رجلاً فقيراً معدماً بدأ حياته «كمسارى» في قطار، وانتهى المطاف به كناظر لإحدى محطات السكك الحديدية في فرنسا، ويقول فرانسوا ميتران نفسه عن والده: «أنه كان ذكياً ولم أر في حياتي إنساناً على هذا القدر من الذكاء.. لقد كان روحاً كبيرة».

ولكن فرانسوا تأثر أكثر بوالدته إيفون ميتران المتدينة التي تنهض كل يوم من نومها في السادسة صباحاً للتأمل والصلاة، وإعداد شئون المنزل، وكانت امرأة مثقفة وواعية وتعددت قرائاتها تحت ضوء لمبة جاز، فقرأت لبلزاك وشاتو بريان ولامارتية، وقد ترك هذا الاتجاه الأدبي عند والدته بصمة كبيرة على نفسيته وقدرته العقلية.. ويذكر ميتران أنه كان فخوراً باسم جده «ميتران»، لأن هذا الاسم يعنى «وسط أو منتصف الأرض» مما كان يعطيه الأحساس بأنه صاحب جذور قوية لها علاقة حميمة بالأرض والوطن والمكان..

وكان فرانسوا ميتران صبيّاً خجولاً يفضل الإنعزال وقد إلتحق عام ١٩٤٥ بمدرسة القديس بول الداخلية، وكان يرفض النشاط الجماعي في المدرسة ما عدا كرة القدم التي كان يعشقها، ويحب ممارستها في كل وقت، وكان يلعب في مركز حارس مرمى فريقه، ويجيد الدفاع عن مرماه، ويصد عنه قذائف المنافسين.. وكعادة كل الإنطوائيين فقد كان يمقت الامتحانات الشفهية أيام الدراسة، لأن بها نوع من المواجهة التي قد تجعله يتعثر في الإجابة عن أسئلة أستاذه، بالرغم من أنه يعرفها ويحفظها عن ظهر قلب، وقد ورث فرانسوا ميتران عن أمه حب القراءة، فقرأ العديد من المجموعات القصصية والأدبية ولأندرية جيد وفاليري، وكتب عنه أستاذه في البكالوريا أنه طالب مجتهد وملتزم ومنتظم في دروسه ولكنه يظل غامضاً في أحيان كثيرة.. وترك ميتران قريته «جارانك» بعد أن قرر والده أن يرسله لدراسة القانون وعمره ١٧ عاماً، وأقام في بيت الطلبة بشارع فوجيرار بالقرب من الحى اللاتينى وهو نفس الحى الذى كان يوجد به مسكنه حتى وهو على كرسي رئاسة فرنسا، وقد بدأ نشاطه السياسى عندما أكمل الثامنة عشرة من عمره كعضو فى جماعة يمينية، وذلك بحكم أنه ينتمى إلى أسرة كاثوليكية محافظة من أصول وجذور ريفية، ولكنه بعد ذلك تحول من اليمين إلى اليسار.

وقد إتجه ميتران إلى كتابة القصص خاصة بعد أن شعر بموهبته الأدبية تتفجر، وبدأ القلم ينزف الكلمات أمامه على صفحات الورق، وقد شجعه على ذلك أنه وجد الفرصة

لينشر قصصه ومؤلفاته في مجلة مغمورة، وكان سعيداً أن يرى عملاً له وقد كتب عليه عبارة «من تأليف فرانسوا ميتران»، وساعده اتجاهه الأدبي في التعمق أكثر وأكثر في القراءة، حتى قرأ يوماً عن «ليون بلوم» مؤسس التيار الاشتراكي بفرنسا فأعجب به إعجاباً شديداً، واقتنع ببادئه الاشتراكية، وبدأت ملامحه السياسية تتبلور، ولكنه لم يكن يريد تصنيف نفسه في البداية سوى أنه معاد للفاشية..

وبعد انتهاء دراسته الجامعية التحق بالخدمة العسكرية.. وكان مثل كل الشباب لا يميل إلى قضاء فترة من حياته في الجندية والتدريب، ولكنه في عام ١٩٣٨ أصبح مجنداً في سلاح المدفعية.. ودفعته كراهيته للحياة العسكرية إلى أن يرفض أن يكون ضابطاً مثل كثير من زملائه الذين يحملون شهادات جامعية، واكتفى فقط بأن يكون «صف ضابط».. ووقتها كان وطيس الحرب العالمية الثانية مشتتلاً وكان العالم كله يضج من آلة الحرب الألمانية التي استخدمها هتلر بوحشية ضد أعدائه.. وفي ميدان الحرب أصيب ميتران وهو في الثالثة والعشرين من عمره بجرح في صدره، فظل لمدة يومين راقداً فوق نقالة ودماه متحجرة فوق منطقة جرحه المكشوف.. ثم نقل بعد ذلك إلى مركز استقبال الجرحى في باريس حيث تم علاجه وتضميد جرحه النازف.. وفي ١٤ يوليو عام ١٩٤٠ دخلت الدبابات الألمانية باريس، وتمكنت قوات النازي من فرض سيطرتها السريعة على العاصمة الفرنسية وقبض الألمان على ميتران الذي شعر لأول مرة بطعم الهزيمة وفقدان الأمل.. خاصة بعد أن تم ترحيله، إلى مقاطعة «هيس» في ألمانيا، وهناك قابل صديقاً كندياً في الأسر قال له: هناك جنرال فرنسي موجود الآن في لندن سمعته يقسم في الراديو أنه سينظم المقاومة الفرنسية ضد الاحتلال..، وكان هذا الجنرال هو شارل ديغول الذي أصبح بعد ذلك أول رئيس لجمهورية فرنسا بعد تحريرها من النازية..

ويذكر ميتران أن معسكر الأسر كان يعيش فيه أكثر من أربعين ألف أسير فرنسي، يتصارعون ويتشاجرون كل يوم حول الوجبة الوحيدة التي يقدمها الألمان يومياً إلى الأسرى.. ولكن ميتران استغل الوقت في تعلم اللغة اليونانية، كما بدأ في التحضير لكتابه الأول «هضاب باريس السابع» وقد حاول الهرب أربعة مرات وفي المرة الأولى سار على قدميه لمدة ٢٢ ليلة فوق الثلوج والطين، ولكن الجنود الألمان استطاعوا أن يلحقوا به ويقبضوا عليه بالقرب من الحدود السويسرية، وأعادوه من جديد إلى معسكر الأسر.. لكن محاولاته لم تتوقف يوماً واحداً.. وكان معظمها يفشل بسبب الحصار الأمتى الشديد الذي فرضه جنرالات الجيش الألماني حول معسكر الأسرى الفرنسيين، ولكن «فرانسوا ميتران» تمكن من الهرب في محاولته الرابعة، وعاد إلى منزل عائلته ولم يروى لأفرادها شيئاً مما تعرض له، فقد كان بادياً عليه أنه قد قرر الإقدام على خطوة مهمة في تاريخ فرنسا..

وبالفعل فقد بدأ في تجميع فلول الأسرى الهاربين من معسكر الأسر في مقاطعة هيس بألمانيا، وقام بتشكيل خلايا متعددة منهم لمقاومة الجيش الألماني.. ووقتها أطلق على نفسه

إسماً حركياً هو «مورلاند» حتى يستطيع أن يتخفى من متابعة الاستخبارات النازية لنشاطه وتحرّكاته، وأصبح ميتران أو «مورلاند» رئيساً لتنظيم شعبي كبير، يقوم بعمليات انتقامية ضد الأهداف والمعسكرات الألمانية على أرض فرنسا.. حتى جمعت الأقدار بالزعيم الفرنسي شارل ديغول الذي حدثه عن صديقه الكندي في معسكر الاحتلال، وكان اللقاء على أرض الجزائر، ووضح أن ميتران كان معجباً بشجاعة شارل ديغول، ولكن جاءت الرياح بما لا تشتهي السفن، فقد طلب شارل ديغول من ميتران أن ينضم إليه بقواته وأن تكون إمارة هذه القوات وقيادتها لشارل ديغول نفسه وشعر ميتران بأن ديغول يريد أن يفرض عليه مبدأ الطاعة العمياء فرفض الاستجابة إلى طلبه بالانضمام إليه، وانصرف ميتران الذي عاد إلى مقاومة الألمان بمجموعته من فلول الأسرى الهاربين بينما استمر ديغول أيضاً في مقاومة الاحتلال بقواته التي كونها من أبناء الشعب الفرنسي..

وكان ميتران يعقد اجتماعات خليته السرية في منزل إحدى السيدات الفرنسيات الوطنيات، التي وافقت على استضافة هذه الاجتماعات خاصة بعد أن احترق المكان الذي كان يجتمع فيه ميتران برجال المقاومة.. وفي شقة هذه السيدة عرضت عليه أن يتزوج من اختها الصغيرة دانييل.. ولكن ميتران رفض في البداية، حيث كان مهتماً بقضية بلاده ولكن أمام إلحاح السيدة اضطر أن يوافق على رؤية دانييل.. وبالفعل رتبت السيدة لقاءً بينهما وكانت المفاجأة أن دانييل نفسها هي التي رفضت الزواج من ميتران، فقد دخل عليها مرتدياً قبعة وكوفية وبالطوا قديماً وبدى كما لو كان كهلاً عجوزاً، لكن ميتران نفسه الذي كان معترضاً على المبدأ في البداية لم يستطع أن يتحكم في قلبه ومشاعره فطلب من دانييل أن تسمح له بتكرار اللقاءات فيما بينهما... ووافقت حتى تمكن الحب من قلبيهما بدرجة كبيرة وانتهى بهما المطاف إلى قفص الزوجية ليكتبا سوياً فصل جديداً من حياتهما مع فرنسا وهموما..

وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وتحرير فرنسا.. لم يستطع شارل ديغول أن ينكر دور ميتران في المقاومة الشعبية رغم اختلافه معه في وجهات النظر فاختر ديغول فرانسوا ميتران للإسهام في بناء الجمهورية الجديدة، وفي لقاءه معه تنبأ له بمستقبل سياسي كبير، وأنه سيكون له دور في حكم البلاد.. ومنذ ذلك الوقت قرر ميتران أن يتبنى الاتجاه الاشتراكي الذي ظل منتمياً إليه حتى آخر أيام حياته.

وعندما أتم سنوات عمره الثلاثين وكان وقتها، قد حصل على ليسانس الآداب ودبلوم الدراسات العليا في القانون والعلوم السياسية والصحافة.. بجانب شهادة القانون التي حصل عليها من قبل، عين وزيراً للداخلية في حكومة منديس فرانس في عهد شارل ديغول، وكان أصغر وزير للداخلية في تاريخ فرنسا وبلغ تأثيره على منديس فرانس مداً كبيراً إلى الحد الذي كان يستشير فيه في كل كبيرة وصغيرة، وكان ميتران يبدو كما لو كان رئيساً للوزراء في الظل..

وفي حكومة جى موليه عين وزيراً للعدل، وكان من أشهر قراراته أنه طالب بإصدار عفو عن المجاهدين من الثوار في البلاد التي احتلتها فرنسا والذين صدرت ضدهم أحكام بالإعدام مبرراً بأن هؤلاء هم الذين سوف تتفاوض فرنسا معهم غداً.. ثم ذهب تائراً إلى موليه عندما أمر بخطف طائرة بن بيل زعيم المقاومة الجزائرية الذي كان في طريقه إلى المغرب، وتم القبض عليه ورفاقه الخمس بعد إجبار الطائرة على الهبوط، وقال فرانسوا ميتران لموليه: لقد فعلتوها من وراء ظهري.. إن العار يغطي فرنسا كلها..، ثم عين «ميتران» بعد ذلك وزيراً للمحاربين القدامى.. وفي عام ١٩٥٠ عين وزيراً عبر البحار وفي عام ١٩٥٢ عين وزيراً للدولة.. وتم اختياره عام ١٩٥٣ وزيراً بالمجلس الأوروبي..

وكان من الطبيعي أن ينشأ بينه وبين شارل ديغول كثير من الخلافات حيث كان ميتران يناطح ديغول في الزعامة، وكان له ثقلاً شعبياً لا يستهان به.. وعندما اشتد الخلاف بينه وبين ديغول فضل في عام ١٩٥٤ أن يتفرغ للمحاماة، ولكن لم يلبث أن عادت المياه مجاريها بعض الوقت، فعين من جديد وزيراً للداخلية فرنسا في أعوام ١٩٥٤ و ١٩٥٥.. وفي عام ١٩٥٨ بدأ هجومه العلني على حكومة شارل ديغول، واتسعت دائرة الخلاف فيما بينهما والتي لم يعد ممكناً معها أن يظل التعاون قائماً بين ديغول وميتران.. وهنا قرر فرانسوا ميتران أن يسير في طريق آخر لا تطأه أقدام ديغول ونصب نفسه زعيماً للمعارضة في مايو من عام ١٩٦٨، واستطاع بعزيمة وإصرار أن يوحد صفوف الفصائل الاشتراكية المعارضة، وأن يرشح نفسه في انتخابات الرئاسة، وهو يعلم أنه لن يفوز بها، ولكنه كان يسعى للحصول على شعبية تؤهله لإرساء دعائم وجوده السياسي على أرض فرنسا في المستقبل وبالفعل حصل على ٣١,٧٪ من أصوات الناخبين مقابل ٤٤,٦٪ لشارل ديغول الذي لم تعلن رئاسته للبلاد لعدم حصوله على أغلبية مطلقة.. وفي الجولة الثانية فاز شارل ديغول بالرئاسة، ولكن كان لميتران ما أراد فقد حصل على ٤٤,٨٪ من أصوات الناخبين في هذه المرة في ظل ظروف سيئة، واضطهاد سياسي مدبر من حكومة ديغول، واستطاع ميتران هذه المرة أن يصبح بلا منازع المنافس الوحيد لديغول على زعامة البلاد.. وفي عام ١٩٧٤ قام بترشيح نفسه عن المعارضة كلها في مواجهة جيسكار ديستان، وحصل على ٤٩,٣٣٪ في مقابل ٥٠,٦٦٪ لديستان الذي تمكن من الفوز بمقعد الرئاسة، في حين ظل ميتران رئيس الحزب الاشتراكي الفرنسي وزعيم المعارضة متربصاً في الظل ليعاود من جديد الاشتراك في سباق الانتخابات على رئاسة فرنسا بعد انقضاء الفترة الأولى من حكم ديستان، وبالفعل رشح ميتران نفسه أمام ديستان عام ١٩٨١ واستطاع هذه المرة أن يفوز بمقعد الرئاسة، وأن يعيد اليسار إلى الحكم بعد غياب دام ثلاثة وعشرين عاماً..

ولا يمكن أن يسقط التاريخ من ذاكرته أن أول اجتماع مجلس الوزراء برئاسة جاك شيراك بعد فوز ميتران في الانتخابات الرئاسية، كان اجتماعاً غير عادي، وبدى فيه ميتران رجلاً شامخاً وقويًا، وهو يجلس بمفرده في مواجهة ٥٥ وزيراً يختلفون عنه في العقيدة والهدف، ويشكلون اتجاهًا سياسياً مخالفاً، ولكنهم بعد عامين من التعايش مع ميتران أيقنوا

أنه رجل غير كل الرجال مهما اختلفت الرؤى السياسية، ولم ينسوا أن ميتران هو الذى تحدى شارل ديغول وهو فى قمة مجده عندما وقف يقول وسط حشود الجماهير من أبناء الشعب الفرنسى «أنا فرنسا».. فارتفع صوت مواطن من أبناء فرنسا وقال: لا يوجد كائن أو شخص مهما كانت امكاناته أو إنجازاته يستطيع أن يدعى أنه فرنسا، إن شعب فرنسا بأكمله هو الذى يستطيع أن يقول أنا فرنسا...

وكان هذا المواطن هو فرانسوا ميتران....

وميتران رغم ما أخذه شعبه عليه من تحفظات بعد وفاته.. كان رجلاً شجاعاً استطاع أن ينال ثقة مرشحيه لرئاسة فرنسا دورتين متتاليتين من عام ١٩٨١ وحتى مايو ١٩٩٥، وحقق الكثير من الإنجازات لشعبه على مدى الأربعة عشرة عاما التى حكم فيها فرنسا.. فقد حدد ساعات العمل، وأرسى قواعد جديدة للتأمين على العاملين، كما أنه ألغى عقوبة الإعدام التى كانت تنص عليها القوانين الفرنسية، من قبل، وهذا القرار وجد استحسانا كبيرا بين أفراد الشعب الفرنسى.. واهتم ميتران بالثقافة والفنون، وأقام حركة ثقافية كبرى فى فرنسا أطلق عليها المتخصصون «النهضة الثقافية»، التى ركزت على تطوير الفنون المختلفة والإهتمام برعاية الأدباء والمثقفين، وبالطبع فقد انعكست آثار هذه الحركة على فئات الشعب مما جعل ٧٢٪ من المواطنين يدفعون بتأييدهم للنهضة الثقافية التى قادها ميتران..

ولا شك أن فرانسوا ميتران قد نظر للمرأة نظرة أخرى ودفع بها للأمام على ساحة التواجد والعمل والإبداع، والمعروف أن التقاليد الفرنسية كانت تمنع عن المرأة الاشتراك فى الحياة السياسية، فلم يكن يسمح لها بدخول البرلمان وفى العصور الأولى لم ينقل إليها العرش مرة واحدة حتى لو كانت وريثته الشرعية ولكن ميتران أطلق قبيلته الحارقة على تلك التقاليد البالية، حينما اختار امرأة لرئاسة الوزارة فى مايو عام ١٩٩١.. وهذه المرأة هى إديث كريسون، وظلت على مقعد رئيس الوزراء لمدة عام كامل حتى أبريل عام ١٩٩٢، وقد بدا هذا الاختيار غريباً على الشعب والتقاليد الفرنسية، خاصة إذا عرفنا أنه على مدى أكثر من ٢٠٠ سنة لم تظهر المرأة فى أى منصب وزارى سوى مرة أو مرتين..

وعلى صعيد السياسة الخارجية كان ميتران ركيزة لا يستهان بها على الساحة السياسية العالمية، واستطاع أن يقف موقف الشجعان الأشداء فى كثير من المواقف السياسية الحازمة التى كان من الممكن أن تسبب له أزمات دبلوماسية وسياسية ذات عيار ثقيل.. بل كان من الممكن أن يفقد حياته ثمناً للدفاع عن القضايا الإنسانية لشعوب العالم التى قهرها البطش والاستعمار.. ومواقفه مع القضية الفلسطينية لا يمكن أن ينكرها إنسان، فقد ذكر المؤلفان إيف ازيروول وإيف دايراي فى كتابهما «ميتران وإسرائيل واليهود»، أن ميتران عندما وصل إلى الحكم كان مقتنعا بتحويل دفة السياسة الفرنسية لصالح إسرائيل.. ولكنه بعد سنوات من التعسف الإسرائيلى مع الفلسطينيين، وانتقاده للسياسة الإسرائيلية قال: إن على إسرائيل أن تفهم أن سياسة فرنسا تحدد فى باريس، وليس فى تل أبيب.. وفى عام

١٩٩١ فجر قضية مهمة عندما أعلن أن قرار الأمم المتحدة بإقامة إسرائيل، نص أيضاً على إقامة دولة فلسطين، وهو القرار الشهير بقرار التقسيم، وأكد أنه لا يجوز رفض حق الشعب الفلسطيني في إقامة دولته وتقرير مصيره.

وكان هذا الإعلان بمثابة لكمة على وجه إسرائيل حيث تنبه العالم إلى حقيقة قرار الأمم المتحدة الذي تم تنفيذ شطره الأول، ولم يتم تنفيذ شطره الثاني، وفي أواخر عام ١٩٩٢ أكد أن فرنسا ستكون أول من يعترف بإقامة الدولة الفلسطينية عند إعلانها، وأنه سيشارك منظمة التحرير الفلسطينية في عملية السلام وسيساند موقفها دائماً.. وربما هذا يفسر لنا سر الحملة المعادية التي تعرض لها فرانسوا ميتران في أواخر فترة حكمه، وبعد خروجه من الحكم، فقد ذكر أحد الصحفيين اليساريين في كتاب UNE JEUNESSE FRANCAISE أو شباب فرنسي، أن ميتران متهم بأنه انضم في شبابه إلى معسكر الأعداء أثناء الحرب العالمية الثانية والمقصود بالأعداء الألمان النازيون الذين حكموا فرنسا، واذاقوا الشعب الفرنسي صنوف الذل والهوان.. ولكن ميتران دافع عن نفسه مؤكداً أنه كان له الشرف أن يشترك في الحرب العالمية كجندي في جيش فرنسا الوطني، إلى أن اجتاحت الألمان خط ماجينو وسحقوا الدفاعات الفرنسية، ووقع ميتران في أسرهم ضمن عشرات الآلاف من أبناء الأسر الفرنسية ولكنه تمكن من الهرب من معسكر الأسر، ولما عاد إلى فرنسا، عمل في ظل حكومة فيشي، ولم يكن يعلم أن هذه الحكومة عميلة للألمان النازيين.. ومن الأکید أن هذه الحملة كانت مدبرة من قبل إسرائيل والحركات الصهيونية العالمية لتشويه صورة فرانسوا ميتران الذي كان من أشد المعادين لإسرائيل ومن أقوى المناصرين للحقوق الفلسطينية..

وفي شهر يونيو عام ١٩٩٢ قام بمغامرة سياسية شجاعة حين وصله نداء استغاثة عبر رسالة من رئيس البوسنة يقول فيها لميتران: سنموت وليس لدينا خيار آخر..، فقرر فرانسوا ميتران أن يعود على الفور إلى المبادئ التي حملته إلى الإليزيه، وكان عائداً على متن طائرته بعد انتهاء أعمال قمة الاتحاد الأوروبي والتي عقدت ببلشونة، حين قرر أن يهبط بطائرته على مطار سراييفو التي تحاصرها قوات الصرب منذ ثلاثة أشهر، وأكد قبل وصوله إلى سراييفو أنه يأمل في إعادة فتح المدينة أمام العالم الخارجي، وعندما علمت القوات الدولية في سراييفو أن ميتران سيهبط بعد قليل على أرض المطار مفاجئاً العالم، وفرت القوات الدولية الحماية لطائرة الرئيس وعندما وصل إلى المطار وجد القتال على أشده والسماء تمطر من حوله قذائف ثقيلة وخفيفة، وأن الدمار قد أطاح بنضرة هذه المدينة الجميلة الحاملة، وأفقدتها عذريتها وبساطتها.. ولم يكذب يخطو ميتران خطواته الأولى على أرض المطار حتى أصاب وابل من الرصاص أحد الجنود الذي كان يسير على بعد خطوات منه فسقط قتيلاً، وهنا دفعه حراسه دفعا إلى استراحة المطار، ثم اقنعوه بأن يرتد قميصاً من الرصاص، وبالفعل وافق ميتران، ولكنه أصر على أن يسير على أقدامه في شوارع سراييفو ليجذب أنظار العالم كله إلى حالة الدمار التي أصابت المدينة، وإلى أشلاء آلاف الجثث والضحايا التي غفلت عنها عيون العالم.. وقتها كان الرئيس حسنى مبارك في داكار ليشارك في أعمال القمة الأفريقية الثامنة

والعشرين وأرسل رسالة إلى ميتران قال فيها: نشكر لك موقفكم البطولي ونفخر بشجاعتم التي لفتت أنظار العالم إلى هذه المأساة..، وقد نقلت كل وكالات الأنباء العالمية زيارة ميتران إلى سراييفو، وأفردت الصحف العالمية صفحاتها الأولى لنشر صورة ميتران، وهو يسير تحت سماء تمطر الرصاص والبارود، وكتبوا تحت صورته.. «فرانسوا ميتران.. رئيس بلا حدود»..

وميتران صاحب الفكر الاشتراكي، أو شيخ الاشتراكيين كما كان يُطلق عليه، قد تسبب كثيراً في استفزاز الولايات المتحدة الأمريكية وإثارة قلقها.. فقد كانت الإدارة الأمريكية متوترة من فكره الاشتراكي الذي يعادى بالطبع الرأسمالية الأمريكية ويهدد فكرها وهويتها واستراتيجيتها التي تمس أمنها القومي بالتعبية، وازداد قلق أمريكا بعد أن أعلن ميتران آراءه المناصرة لحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره، والحصول على استقلاله وحرية، في الوقت الذي كان ميتران قد تحالف فيه مع الشيوعيين، وعين ثلاثة منهم في الوزارة، ولما اختلف معهم فقدوا مقاعدهم الوزارية في الحكومة الفرنسية..

وقد كثر الحديث عن حياة فرانسوا ميتران الاجتماعية والشخصية وعن علاقاته الغرامية، والمعروف أنه تزوج من دانييل عام ١٩٤٤ التي أحبها كثيراً ووقفت بجواره وقفة صامدة أثناء مقاومته للجيش الألماني في فترة الحرب العالمية الثانية، بل كانت تشاركه الرأي والفكر والتخطيط، وعاشت معه لحظات النجاح ولحظات الفشل، وأنجب منها أولاده جان كريستوف وجيلبير والذين كانوا بالنسبة لهما ثمرة هذا الحب ورمزا لقصة كفاحهما سوياً.. ولكن ميتران كانت له علاقة غير شرعية بإمراة تدعى أنا بينجو، والتي تعمل أمينة لمتحف أورساي بفرنسا، وأنجب منها عام ١٩٧٤ ابنة غير شرعية تدعى مازازين.. وظل فرانسوا ميتران يرفض الاعتراف بإننته حتى قبل شهور بسيطة من مفارقتها لقصر الإليزيه.. ولكن الأيام والظروف التي أحاطت به جعلته يعترف بها لتصبح مازازين هي الحقيقة الوحيدة في آخر أيام فرانسوا ميتران..

والمعروف أن ميتران كان عاشقا لمصر.. ومغرما بها ومتيما بآثارها، وكان لا بد أن يحضر كل عام لقضاء اجازته في أسوان، حيث كان يقيم بفندق أولد كاتراكت المظل على جزيرة فيله الساحرة.. وفي آخر زيارته لأسوان اصطحب ابنته مازازين وأمها أنا بينجو، وكان ميتران في أسوأ حالاته المرضية. ولكنه كان مُصراً على الإنتهاء من كتابة مذكراته، وساعدته مازازين في كتابة آخر جزء من هذه المذكرات بشرفة حجرتة في فندق أولد كاتراكت بأسوان، وكانت هذه هي المرة الأخيرة التي يزور فيها ميتران أسوان وبعد أقل من عشرة أيام مات فرانسوا ميتران في ٨ يناير ١٩٩٦ في شقته بشارع فريدريك لوبلاي بباريس..

ميتران يُخفي مرضه عن الشعب الفرنسي

كان ميتران بارعاً في إخفاء مرضه .. وهو الرجل الذي استطاع أن يسجن آلامه خلف قضبان الجسد قرابه أكثر من عشر سنوات دون أن يشعر واحد من أفراد الشعب أن رئيسه مريض بأخطر الأمراض التي قد تنهى حياته في أى لحظة ودون سابق إنذار .. لقد استطاع رجل واحد ان يخدع عشرات الملايين من البشر ويقنعهم بأنه معافى وسليم من الناحية الصحية، فيدفعهم ذلك إلى إعادة الثقة فى شخصه، وانتخابه دورة ثانية رئيساً لفرنسا .. وهذه الحقيقة ذكرها طبيب ميتران الخاص كلود جوبلر فى كتابه السر الكبير والذى نشره بعد وفاة ميتران ، وأكد فيه أنه ظل لمدة ١١ عام يصدر نشرات طبية باطلة عن حالة ميتران الصحية .. وأن بياناتها التي كانت تشير إلى أن الرئيس يتمتع بحالة صحية جيدة كانت بعيدة عن الواقع، ويكتنفها التزوير والتلفيق .. خاصة وأن ميتران على حد قول طبيبه الشخصى ، كان مصابا بالسرطان منذ عام ١٩٨١ وليس مع بداية عام ١٩٩٢ كما كان ميتران يدعى .. وقد دفع جوبلر ثمن كشفه لحقيقة الكذب السياسى، والذى استمر فترة طويلة لإخفاء حقيقة مرض الرئيس الفرنسي خاصة وأن ميتران كان قد وعد شعبه أثناء حملته الانتخابية عام ١٩٨١ أنه سيقدم تقرير فور توليه السلطة عن حالته الصحية .. وأن إخفاءه حقيقة مرضه ساعده على ضمان فترة رئاسة ثانية لمدة سبع سنوات، رغم أنه كان يموت من المرض ..

ومشكلة الطبيب كلود جوبلر أن الدنيا قامت فوق رأسه ولم تقعد بعد إذاعته هذا السر الخطير .. والذى أدى بطبيعة الحال إلى إنهيار صورة ميتران أمام شعبه الذى اعتبره خائناً ومخادعاً، وأنه ضلل المواطنين لئال أصواتهم .. وكان رد فعل أرملة الرئيس ميتران هو إقامة دعوة قضائية ضد جوبلر ، تطلب حظر نشر كتابه ومصادرته لأنه أفضى أسراراً مرضية خرق بها شرف المهنة واعتدى على قوانين حظر نشر الأسرار الطبية .. وبالفعل حصلت دانييل ميتران على أمر قضائى بحظر نشر الكتاب الذى باع ٤٠ ألف نسخة فى أول يوم لنشره، كما تلقى جوبلر أمراً بالسجن وغرامة ٦ آلاف جنيه استرلينى لانتهاكه الثقة الطبية، ومنعه مجلس الأطباء الفرنسيين من ممارسة مهنة الطب، كما أغلقت الحكومة أبوابها فى وجهه ونزعت منه أوسمة الشرف وميداليات الاستحقاق التى نالها فى عهد ميتران .

ويذكر جوبلر فى كتابه «السر الكبير» أن الأمر بدأ فى مؤتمر كانكون بالمكسيك وهو أول مؤتمر يحضره ميتران بعد فوزه برئاسة فرنسا عام ١٩٨١ ، وشعر بالآلام شديدة فى الظهر والركبة حتى ظهر أثناء سيره كمن يعرج قليلاً وقرر كلود جوبلر وطبيب آخر يدعى دورن كان اصطحبه ميتران فى زيارته للمكسيك أن يفحصا ميتران بعد العودة إلى فرنسا مع بعض أطباء مستشفى قال دو جراس العسكرى .. وفى المستشفى رأى الجنرال طبيب توماس أن حجم البروستاتا غير عادى وأنها صلبة قليلاً وأن الرئيس ميتران لا بد وأن يخضع لسلسلة من الأبحاث والفحوصات التى تستلزم تواجده بالمستشفى .. ولكن ميتران رفض بشدة فكرة دخول المستشفى من الأساس، وتم الاتفاق على حل آخر وهو أن يأتى ميتران إلى المستشفى

لاتمام الفحوص في أيام السبت، وهو عطلة رسمية في فرنسا حتى لاينتشر الخبر، وكان جوبلر يصطحب ميتران في عربته القديمة دون أى حراسة من قصر الإليزيه إلى مستشفى قال دوجراس العسكري لإجراء الأبحاث اللازمة، ثم يعود معه مرة أخرى إلى الإليزيه، وتأكيذا للسرية فقد تم تسجيل ميتران في سجلات المستشفى تحت اسم -البيريلوت - وهو الاسم الخاص بزواج شقيقه الجنرال طبيب توماس مدير المستشفى، وأظهرت التحاليل التي قام بها الأطباء العسكريون في فرنسا أن ميتران مصابا بسرطان البروستاتا، فتم على الفور استدعاء أدولف ستيج وهو طبيب عالمي متخصص في المسالك البولية، ويعمل في مستشفى كوشيان، وبعد أن قام بفحص ميتران ومراجعة الأبحاث الطبية التي أجريت له أخذ جوبلر جانباً وقال له: هناك إصابة بسرطان العظام وأصلها إصابة في البروستاتا، وأن ميتران لن يعيش أكثر من ثلاثة سنوات في أفضل الأحوال، وثلاثة أشهر فقط إذا لم يستجب جسمه للعلاج..

وتذمر الرئيس ميتران من هذا الحديث السرى فطلب أن يعرف الحقيقة فقال له ادولف ستيج إن واجبي يحتم على ألا أخفي عليك الحقيقة أنت مصاب بمرض سرطان العظام وهو منتشر بالبروستاتا...، فأظهر ميتران قلقه وفزعته وسأل ستيج: معنى ذلك أننى انتهيت؟ فرد عليه الدكتور ستيج بأنه لا يستطيع أن يجزم بذلك، ولا يمكن أبدا أن يقول أن الأمر قد انتهى ولكنه طلب من ميتران أن يستجيب لكل التعليمات العلاجية التي سيحددها مع الدكتور جوبلر طبيب ميتران الخاص. ووافق ميتران ورد أسفا: أنتم لاتتركون لى خيارا.

وعندما خرج ادولف ستيج سأل جوبلر الرئيس: هل أبلغ السيدة دانييل فأجاب ميتران بالرفض.. فقال جوبلر: إذن من يجب على أن أبلغه؟ فقال له ميتران بكل شدة: لا أحد.. لقد قررت أن يكون ذلك أحد أسرار الدولة وأنت ملتزم بهذا السر.. وكان هذا على حد قول جوبلر في ١٦ نوفمبر عام ١٩٨١ الساعة الثامنة مساء أى بعد شهور قليلة من تولى ميتران حكم فرنسا..

وكان ميتران حريصا كل الحرص على عدم إفشاء هذا السر، خاصة بعد أن أصدر نشرة طبية طمأن فيها الشعب الفرنسي على صحته.. كما أنه كان يعرف أن هناك محاولات كثيرة للتجسس عليه خاصة وأن انتخاب رئيس اشتراكي لفرنسا ساعد في إدخال الشيوعيين إلى الوزارة، وأثار هذا قلق الولايات المتحدة الأمريكية التي كانت ترصد بدقة كل تحركات وقرارات فرانسوا ميتران.. وبالطبع فإن إطلاع الخابرات الأمريكية على حقيقة مرضه سيجعلها تدرس كم من الوقت سيظل هذا الرئيس الذي يقلق أمريكا قابعا على كرسي الحكم؟..

وفي إحدى المرات كان ميتران في زيارة لإحدى دول أوروبا الشرقية وحاول جوبلر أن يهيم بالحديث معه عن صحته فأشار بأصبعه على فمه طالبا من طبيبه أن يصمت.. وفي كل رحلة كان ميتران يطلب من كلود جوبلر أن يتوخى الحذر في كلامه عن صحته، وأن يجمع كل المخلفات الخاصة بعلاجه مثل، الإبر الفارغة والقطن والامبولات ويحملها معه في حقيبته

ثم يتخلص منها فى باريس فور عودته، وظل ميتران حتى عام ١٩٩٢ يعالج فى الخفاء واستطاع بمقدرة عجيبة أن يكتفم هذا السر بذكاء شديد إلى الدرجة التى جعلته يفوز بفترة رئاسة ثانية فوزاً مضموناً.. ورفض ميتران فكرة العلاج بالعقاقير الكيميائية، لأنه كان يعلم أنها تسبب سقوط الشعر وتغيير ملامح الوجه والنحافة البالغة، بالإضافة إلى تأثيرها على الحالة الذهنية والعقلية، وبالطبع فقد نتج عن ذلك أن تفحل المرض فى جسده فأصاب العمود الفقري والمثانة البولية وعظام الحوض ..

وفى ١١ سبتمبر عام ١٩٩٢ عانى ميتران من احتباس بولى حاد نتيجة زيادة فى تضخم البروستاتا، ولم يكن هناك بُد من إجراء جراحة عاجلة للرئيس ميتران لاستئصال جزء من البروستاتا، ووجد ميتران أن هذا الأمر سيكتشف وليس من السهولة إخفائه، فطلب من جوبلر أن يصدر نشرة طبية يذكر فيها حقيقة إصابته بسرطان البروستاتا بشرط أن يؤكد على أن السرطان قد انتهى باستئصال الورم من البروستاتا جراحياً.. وبالفعل تم إجراء الجراحة للرئيس ميتران، لكن الأطباء أكدوا فيما بينهم أن ميتران سيضطر لإجراء جراحة كل ٣ أشهر لمعالجة مضاعفات السرطان، وأن حالته سيئة ولن يجدى معه العلاج الهرمونى لوقف نشاط الخلايا السرطانية، بالإضافة إلى أن هيكله العظمى أصبح شديد الهشاشة.. وأعلن جوبلر أن الرئيس مصاب بسرطان البروستاتا والذي تم القضاء عليه باستئصال هذه الخلايا السرطانية جراحياً.. وأن الرئيس ميتران قرر شخصياً أن يبلغ شعبه، وشدت الرئاسة الفرنسية على أن البيان الطبى يعود لرغبة شخصية من ميتران لإطلاع شعبه على حقيقة حالته الصحية..

وفى ٢٥ ديسمبر عام ١٩٩٢ صرح أطباء الرئاسة بأن ميتران لا يستجيب بدرجة كبيرة لعلاج سرطان البروستاتا، وسوف يقرر مصيره بعد الفحص الطبى القادم ومناظرة النتائج العملية.. وأثار هذا التصريح جوا من البلبلة خاصة وأن الحزب الاشتراكي كان يناضل من أجل الفوز بالانتخابات العامة.

وفى ١٥ سبتمبر عام ١٩٩٣ تعرض ميتران لحالة دوار قيل بأنها تعود إلى الحر الشديد أثناء حفل الاستقبال الذى أقيم له عند وصوله سول بكوريا الجنوبية، وكاد ميتران أن يسقط مغشياً عليه لولا أن أحد مرافقيه أمسك بيده حتى لا يقع على الأرض..

والمدهش أن شهر يوليو عام ١٩٩٤ كان شهراً مشيراً فى حياة أسرة ميتران، فقد أدخل ميتران مستشفى كوشان بباريس لاستئصال ورم سرطاني جديد بالأجزاء المتبقية من البروستاتا، والتي لم يتم إزالتها جراحياً، واضطر الجراحون إلى التوسع فى خطة الجراحة لتشمل الكلى، حيث تم استئصال بعض الأورام والألياف الصغيرة الأخرى باستخدام المنظار والتي كان يخشى منها على الكلى والمسالك البولية، وثبت أنها منتشرة من البروستاتا، وفى نفس الشهر كانت دانييل ميتران تجرى جراحة خطيرة فى القلب لتغيير ثلاثة صمامات بالقلب والأوعية دفعة واحدة، وقد أعلن قصر الإليزيه أن دانييل ميتران تتمثل للشفاء بعد العملية الجراحية التى أجرتها بنجاح..

وفى يوم ٢٠ يوليو عام ١٩٩٤ صدرت نشرة طبية تؤكد أن حالة ميتران الصحية مطمئنة بعد الجراحة التي أجراها.. وأنه يقوم بمهام الرئاسة داخل المستشفى حيث عرض عليه أدوار بلادير رئيس الوزراء الفرنسى جدول أعمال مجلس الوزراء الذى كان مقرر اجتماعه فى نفس اليوم.. وأعلن البروفيسور ديبريه رئيس قسم المسالك البولية بمستشفى كوشان بياريس وهو فى نفس الوقت نائب برلمانى معارض، أن الحالة الصحية للرئيس ميتران لا تطرح أى مشكلة وأنه سيخرج من المستشفى قبل نهاية الأسبوع وأن الجراحة تمت باستخدام المنظار لاستئصال الأنسجة السرطانية المنتشرة من البروستاتا والتي كانت تلتفت حول المسالك البولية..

ومنذ أن عرف العالم حقيقة مرض ميتران وأن شفاؤه أصبح أمراً ميئوس منه نظراً لتقدم عمره وضعف جهازه المناعى.. ووسائل الإعلام لا تكف عن ملاحقته وتتبع أخباره واستضافته فى برامج المخططات الإخبارية والتليفزيونية العالمية وبدا ميتران شجاعاً فى مواجهة المرض.. صلباً فى الاعتراف بالحقيقة فى هذه الجولة الأخيرة من صراعه مع المرض ولم يخجل فى أن يظهر على شاشات التليفزيون شاحباً ومخيفاً وبعد أن أجرى عملية استئصال جزء من البروستاتا سأله الصحفيون: هل سيؤثر ذلك على قدرتك فى التفكير والحكم على الأمور؟ فأجاب ساخراً: أن العملية لم تتم فى مخى!! وليس هذا هو موضع ومكان البروستاتا، ولا أعتقد أنهم أزالوا جزءاً من مخى.. وفى حديثه الذى أدلى به للقناة الثانية فى التليفزيون الفرنسى كان واضحاً عليه الإعياء الشديد وقال: إننى لا أخاف الموت واستعد له دائماً فهو حقيقة فى حياة كل إنسان، والخلود ليس للجسد وإنما للتاريخ فقط.. وعندما نصبت صحيفة لوفيجارو الفرنسية السيرك لميتران فى مقابلة معه نشرت على يومين، وحاولت الصحفية أن تحاكمه على فترة معينة فى تاريخه، وإتهامه بالتعامل مع حكومة فيشى ضد اليهود، قال ميتران فى رده على سؤال عن الوقت الذى سيترك فيه الحكم أننى أقاتل المرض وعندما اشعر أننى لم أعد قادراً على الاستمرار سأترك الحكم..

وفى لقاء تليفزيونى آخر.. سأله أحد المذيعين هل تشعر بالآلم؟ فقال له ميتران فى ثبات: هذا شئ لا يخصك.. ومع ذلك أقول لك أن المرض لم يقل رغم العلاج وأنا أمر بسلسلة مراحل من العلاج كل منها يستمر لمدة ٢١ يوماً وسوف تتكرر ثلاثة أو أربعة مرات..

وقد قام ميتران بتخفيض برنامج الأسبوعى لتقليل أعبائه ومهامه الرئاسية حتى يتفرغ قليلاً لخطة العلاج، وبدأ يحضر جلسات نفسية خاصة لتخفيف الألم، وتسكين النفس، كما كان يتردد على الفليسوف جان جوليت الذى يبلغ من العمر ٩٣ عاماً ليسأله عن الحياة بعد الموت.. بعد أن أكد له أطباؤه أنه لن يعيش أكثر من ستة شهور.. والمثير أن ميتران قد افتتح فى عام ١٩٨٦ عدداً من المراكز الطبية التى تؤهل المرضى المفقود الأمل فى شفائهم للموت.. وهو الآن واحداً من هؤلاء المرضى.. الذين يخضعون لتأهيل نفسى للموت تقوم به الطيبة النفسية مارى دى هانزال..

والمعروف أن شعبية ميتران كانت قد انخفضت قبل إنهيار حالته الصحية، لكن

إصراره على البقاء فى الحكم والقيام بأداء دوره الرئاسى رغم ظروفه الصحية السيئة، جعل الشعب يتعاطف معه، ويتذكر ميتران صاحب المبادئ العظيمة وكفاحه المستميت ضد النازية أثناء الحرب العالمية الثانية.. وارتفعت شعبيته بصورة ملفتة إلى الحد الذى وافق فيه ٦٨٪ من أبناء الشعب الفرنسى على أن يكمل ميتران فترة رئاسته الثانية التى كان مقرراً لها أن تنتهى فى مايو ١٩٩٥..

ومع افتقاد الأمل فى الشفاء بالعلاج الدوائى المتعارف عليه لجأ ميتران إلى الباحث ميركو بلجانسكى الطبيب بمركز باستير للأبحاث والذى قضى ٣٠ عاماً فى دراسة الطب الموازى، أو ما يعرف بالطب البديل، بعد أن عرف ميتران من صديق له يعمل فى الشرطة أنه استطاع أن يتوصل إلى تركيبة خاصة من الأعشاب تساعد على رفع مناعة الجسم وزيادة درجة المقاومة والقضاء على الخلايا السرطانية، وتناول ميتران هذه التركيبة والغريب أنه بدأ يتحسن بصورة مذهلة وبدأ يبدو معافياً تماماً.. ولكن يبدو أنها صحوة الموت وأنه كان على ميتران مع القدر.. والموت الذى لا فرار منه، وكان آخر ما طلبه أن يزور أسوان فى احتفالات رأس السنة الجديدة لعام ١٩٩٦ بصحبة ابنته مازارين وأمها وطبيب التخدير جان بيير تارو، وزوجته، فقد كان ميتران لا يستطيع فى أواخر أيامه أن يعيش بدون مخدر لمدة ساعة واحدة خاصة بعد أن اشتدت عليه أعراض المرض، ووجد نفسه فجأة مصاباً بفقدان القدرة على تحريك ذراعيه وقدميه.. وقضى إجازته هذه المرة فى شرفة غرفته بفندق أولد كاتراكت، وعندما حضر طبيبه إليه بالدواء سأله ميتران: ماذا يحدث لو لم أتناول هذا الدواء؟ فأجاب الطبيب على استحياء بأن الوفاة ستكون أمراً حتمياً.. فسأله ميتران: وكم من الوقت يمكن أن أعيش بدون دواء.. فأجاب الطبيب: ثلاثة أيام فقط، فقال ميتران: سأتوقف عن تناول الدواء ولا تعطينى أقراصاً بعد اليوم..

ومات فرانسوا ميتران بعد أسبوع واحد من زيارته الأخيرة لمصر، وكانت وصيته أنه لا يريد إقامة جنازة رسمية له.. ومع ذلك حضر مراسم دفنه أكثر من ١٢٠٠ شخصية سياسية من بينهم ٦١ رئيس دولة وكانت آخر كلماته: «أسطورة الموت والحياة لاحتل لها لكن علينا أن نعيش التجربة بعمق»..

ورحل فرانسوا ميتران.. مهندس الوحدة الأوروبية..

المرض يدفع ميتران ليصحح خطيئته

يقول هيوبرت فيدرين مستشار الرئيس الفرنسى فرانسوا ميتران عن ميتران فى أواخر فترة حكمه فى قصر الإليزيه عندما اشتدت عليه أعراض المرض وأصيب بالأعياء والإجهاد الشديد: أنه كان يصل إلى قصر الإليزيه فى التاسعة والنصف صباحاً ثم يسرع بالذهاب إلى فراشه فى شقته الخاصة بالقصر، فتأتى له الصحف والمجلات فيقرأها ثم ينام حتى موعد

الغذاء .. وكان يستقبل وهو على فراشه عددا قليلا من المستشارين والوزراء وكان من الصعب ان يوقع على أى قرار فى وقته .. وأحيانا لم يكن يوقع على الكثير من خطابات الاعتماد ، وتظل بالأسابيع حتى يفكر فى توقيعها مما كان يجعل رئيس البروتوكول بقصر الإليزيه يشد شعر رأسه على حد قول هيوبرت فيدرين ، وقد وصل الأمر بالرئيس إلى استقبال أحد رؤساء الدول من فوق السرير !! ..

وقد قال الطبيب كلود جوبلر فى كتابه والسر الكبير ، أن الرئيس ميتران أهمل تماماً شئون البلاد اعتبارا من نوفمبر عام ١٩٩٤ وهذا ما دفع إدوار بالادير رئيس الوزراء الفرنسى فى ذلك الوقت أن يستغل هذه الفرصة لإدارة شئون البلاد والسيطرة على مقاليد الحكم ، وقد أدى ذلك إلى ارتفاع شعبيته تماما قبل انتخابات الرئاسة التى كان ينوى خوضها بعد انتهاء ولاية فرانسوا ميتران فى مايو ١٩٩٥ ، وقد نفى جيلبير ميتران الابن الثانى للرئيس ميتران هذا الكلام وقال أن أبيه لم يهمل أمور الرئاسة وأنه لم يشك لحظة فى قدرته بل ومهارته فى وزن الأمور وتحليلها ، ويدلل على ذلك بأن ميتران قام قبل نهاية حكمه بيومين بجولة شملت لندن وبرلين وموسكو ، واستند جيلبير فى دفاعه عن أبيه إلى أن شارل ديغول نفسه كان يعانى من مرض سرطان البروستاتا مثل ميتران تماما وقد أجريت له عملية جراحية فى ١٧ ابريل عام ١٩٦٧ لاستئصال جزء من البروستاتا ، ولم يمنعه ذلك من ترشيح نفسه للرئاسة فى نوفمبر من نفس العام ..

ومهما كانت المبررات والدوافع فى حديث الناقدين أو المدافعين عن الفترة الأخيرة فى حكم فرانسوا ميتران فلاشك أنه تأثر بشدة من مرضه فى الفصل الأخير من رحلته مع السرطان .. وليس هناك دليل أقوى من أنه كان يصطحب معه طبيبا للتخدير فى كل تحركاته ليكون مستعدا للقضاء على آلام ميتران التى كانت تلازمه ولاتفارقه إلا بفعل الأدوية المخدرة ذات التأثير القوى .. وقد ثبت أن ميتران كان يعالج الألم فى البداية ببعض المسكنات التى تؤخذ عن طريق الفم أو بالحقن فى العضل أو الوريد ، ثم أنتقل بعد ذلك إلى استخدام المورفين كمخدر قوى يمكن أن يستخدمه أى طبيب فى القضاء على الآلام دون الحاجة إلى استشارة طبيب متخصص فى التخدير ، ولكن مع تكرار استخدام المورفين فى تسكين آلام فرانسوا ميتران ظهر أنه قد تعود عليه ولم يعد مؤثرا فيه ، وكان لزاما أن يتم تخديره بأدوية مخدرة ذات فعالية سريعة وقوية ، ولم يكن من الممكن أن يتناول ميتران هذه الأدوية والعقاقير إلا تحت إشراف طبيب متخصص فى التخدير ، ولذلك كان القرار بتخصيص طبيب تخدير يرافقه فى كل تحركاته .. وهذا يؤكد أن ميتران لم يكن يستطيع أن يتحمل آلام المرض ، وبالطبع فإنه من المستحيل أن يصدر الرئيس أى قرار أو يكون تفكيره متوازنا ، وهو مشغول بالآمه القاتلة ومرضه اللعين ويبحث بكل الطرق عن وسيلة يمكن أن يخرس بها صوت آلامه ..

وعموما فأنا مقتنع أن فرنسا نفسها لم تتأثر بمرض فرانسوا ميتران كثيرا حتى لو كان

هذا المرض هو مرض الموت .. ومجرد تأخر توقيع الرئيس على أوراق شكلية مثل أوراق اعتماد السفراء لا يصح أن تكون واقعة يتوقف عندها بعض الناقدين لعهد ميتران ليشبوا بها أنه لم يعد قادرا على الحكم .. فدولة مثل فرنسا هي دولة ديمقراطية وليست دولة شمولية حيث تلتخص السلطات كلها في يد الحاكم فإذا إنهار انهارت معه الدولة .. ولكن ميتران نفسه هو الذى تأثر كإنسان إلى حد كبير بمرضه وبفقدته الأمل فى العودة بشجرة الحياة إلى الإثمار من جديد ..

وهناك قرار خطير اتخذه ميتران وهو على فراش المرض وعلى بعد شهور قليلة من يومه الموعود .. فقد قرر بمنتهى الشجاعة أن يعترف بإبنته غير الشرعية مازارين ، والتي أنجبها من علاقة محرمة مع أنا بينجو التي كانت تعمل أمينة لمتحف أورساي بفرنسا .. وكان ميتران قد ظل لأكثر من عشرين عاما يرفض الإعلان عن حقيقة أن له ابنة غير شرعية تدرس الفلسفة فى السربون رغم أن هذه الابنة ذافت من الذل والهوان ما يكفى لأن يجعلها تمحو اسم والدها من وجودها وحياتها ..

وفى كتاب «الشرف الضائع لميتران» يذكر مؤلفه جون آلييه أن مازارين كان يطاردها سؤال هام أثناء طفولتها عندما كانت تلميذة فى مدرسة جاك بريفيير فى باريس ، وهذا السؤال هو ماذا يعمل والدك؟ وكان هذا السؤال الذى تسمعه من زميلاتها يذكرها دائما بأنها مجهولة النسب ، لكن أمها كانت قد أخبرتها أنها ابنة رئيس جمهورية فرنسا ، وعندما كانت مازارين تسمع هذا السؤال يتكرر على مسامعها من جديد كانت ترد : والذى رئيس الجمهورية .. فتصبح الإجابة مادة للسخرية بين زميلاتها وترد إحداهن باستنكار وهى تقول : أما أنا فالذى هو الامبراطور شارلمان وهو ملك فرنسى قديم ..

ورغم أن الحزب الاشتراكى الفرنسى بزعامة ميتران قد أيد عام ١٩٧٢ صدور قانون يقضى بالاعتراف بالإبوة للأبناء غير الشرعيين إلا أن ميتران ظل عازفا عن الاعتراف بمازارين حتى اشتد عليه المرض وبدأ يفكر فى نهايته .. وأحس فرانسوا ميتران الذى ضحى كثيرا من أجل الحقوق والحريات ، بأنه لم يكن بالجرأة التى تجعله يرد الحق لإبنته ، ويطلق سراحها ويمنحها حريتها بعد أن ظل بنفسه يقوم بمهمة سجانها فى معتقلات الذاكرة .. ولاشك أن ميتران أيقن أنه سيموت قريبا فمنذ خمسة عشرة عاما أكد له الأطباء أنه سيعيش ثلاثة سنوات فقط ولكنه عاش سنوات طويلة كاملة يحكم ويأمر وينهى وينهزم وينتصر ويسطع فى السماء ثم يندثر .. فقد عاش الحياة بكل ألوانها ..

وأقوى الحجج على أن ميتران كان يفكر فى الموت قبل أن يترك قصر الإليزيه ، أنه استعان بالطبيبة المتخصصة فى التحليل النفسى ماري دى هانزال لتقوم بتأهيله لفكرة الموت ، وبعد أن خرج من قصر الإليزيه كتب لها مقدمة كتابها «الموت الحميم» والتي تكلمت فيه عن اللحظات الأخيرة فى حياة بعض الزعماء ..

لقد كان الموت مسيطرا على عقل ميتران فى كل لحظة ، ولم يكن هناك هما له سوى أن

يرد لابنته بعضا من حقوقها، وقد تعمد ميتران قبل شهر من مغادرة قصر الإليزيه أن يسرب لأجهزة الإعلام معلومات عن مازارين كمحاولة منه للاعتراف بها أمام الجميع، لا لا أباغ إذا قلت أنها احتلت المقام الأول بلا منازع في شهر حياته الأخيرة.. وبالفعل أعاد ميتران ابنته إلى حضنه الدافئ، وقام بتغيير اسمها في كل الأوراق الرسمية من مازارين بينو نسبة إلى عائلة أمها إلى مازارين فرانسوا ميتران، وخصص لها ولأمها المبنى التابع لرئاسة الجمهورية على الضفة الثانية من نهر السين بالقرب من برج إيفل لتقيم فيه وتركته عندما غادر والدها قصر الإليزيه..

وبعد أن جمعت كل المعلومات عن شخصية فرانسوا ميتران وعن رحلته مع المرض استطيع أن أدفع بأن السبب الرئيسي في إصرار ميتران على استكمال فترة حكمه حتى نهايتها في ٥ مايو ١٩٩٥ رغم حصار المرض للعين له هو رغبته في أن يعلن ابنته للعالم وهو مازال في قصر الإليزيه رئيسا لفرنسا، ومحط أنظار العالم ونورة أضوائها المسلطة على أخباره بصفة مستمرة، لكنه كان يقاتل المرض على حد قوله -لا من أجل فرنسا، فقد أعطى فرنسا الكثير ولكن من أجل ابنته مازارين التي خشى أن يموت دون أن يرد اعتبارها أمام العالم.. وقد جمع ميتران زوجته دانييل ولديها منه جان كريستوف وجيلبير في حضور مازارين ووالدتها وقد أوصى أولاده وزوجته بابنته مازارين وبحقوقها الشرعية في كل ما يتركه.. وقد أبدت دانييل وأبنائها استعدادا طيبا لتنفيذ رغبة ميتران..

ومازارين التي ولدت عام ١٩٧٤ عندما كان ميتران في الثامنة والخمسين من عمره، هي فتاة متواضعة ورائعة الجمال..، إذا فكرت أن تنظر في عينها فعليك أن ترتدى نظارة شمسية من طراز أصلى حتى تحمي عينيك من شعاع عينيها الرائعتين، وهي رقيقة وحاملة، وفي الأيام الأخيرة في حياة والدها كانت تعيش قصة حب كبيرة مع حبيبها المسلم (على) وهو ابن سفير المغرب في السويد، والذي يدرس الفلسفة أيضا في السربون ويسكن بجوارها في حي سان جيرمان بباريس، والغريب أنه رغم اشتداد المرض على ميتران إلا أن حالته النفسية قد تحسنت كثيرا بعد أن اقتربت مازارين منه وبدأت تساعده في كتابة بعض مؤلفاته التي لم ينقطع لحظة عن الاستمرار في كتابتها، فقد كان يعكف على الانتهاء من تأليف كتابين الأول عن السياسة الدولية والآخر عن الوحدة في السلطة، وقبل أن يبدأ في تأليفهما وضع الخطوط الرئيسية وبعض الأفكار التي سيضمها موضوع الكتابين لتحتفظ بها مازارين حتى تستطيع إكمال المهمة إذا توفى ميتران قبل الانتهاء من تأليف الكتابين، كما أنها شاركته في كتابة وتسجيل مذكراته وكتبت معه العشرين صفحة الأخيرة من هذه المذكرات في شرفة فندق أولد كتر اكت بأسوان أمام صفحة النيل الخالد في آخر زيارة له لأرض الحضارة حيث كان يحب دائما أن يعيش في عقب التاريخ..

ومهما قال المعارضون لفترة حكم ميتران بعد وفاته من أنه كان مخادعا وغشاشا ولم يحصل على وسام من جيش المقاومة السرى أثناء الحرب العالمية الثانية، ولم يكن مخلصا في

حياته الزوجية، ولم يكن صادقاً في تقاريره الطبية، وأنه كان يستعين بالمتجملين والسحرة قبل إصدار القرارات الهامة.. وأنه أقام لشبكة تصنت على معارضيه، فسوف يظل قراره بالاعتراف بإبنته مازارين هو أهم قرار في حياة ميتران يكون دافعه المرض..

وسيفسّل هذا الاعتراف بعض السقطات التي يمكن أن يكون ميتران قد وقع فيها طوال عمله السياسي سواء كانت هذه السقطات تتعلق بحياته الشخصية أو سياسته العامة في الحكم..

وقبل أن يترك ميتران الحكم اشترى مقبرة في منطقة الغال القديمة في وسط فرنسا تبلغ مساحتها مائة متر مربع. وشئ غريب أن يظل زعيم سياسي مثل فرانسوا ميتران، وصاحب باب كامل من أبواب التاريخ الفرنسي، كل هذه السنوات الطويلة من حياته التي تعرض فيها أكثر من مرة للموت الأكيد، وكان ينجو منه بأعجوبة ثم لا يفكر أن يشتري مقبرة حتى يدفن فيها بعد موته إلا في هذه المرة!!

ولا أجدني كطبيب مجبراً على تفسير بعض الظواهر الطبية في التاريخ المرضي الخاص بالرئيس الفرنسي الراحل فرانسوا ميتران ولا أن أحلل قراراته في ضوء حالته الصحية تحليلاً ينصب في المقام الأول على تأثير فعاليات المرض على عقله.. ولن أتطرق للحديث عن العلاج الكيميائي وتأثيره على القدرة الذهنية لميتران بعد أن اضطر في أواخر فترات حكمه للخضوع لسلسلة من جلسات العلاج الكيميائي في محاولة أخيرة لخصار السرطان، لأن الأمانة تقتضي أن أؤكد للقارئ أنني لم أجد في ملف الرئيس ميتران الصحي ما يدفني أن أقول أنه فعل كذا لأن الغدة الدرقية على سبيل المثال أفرزت هرمونها فصدر منه كذا.. وكان تصرفاً راجعاً لتأثير هذا الهرمون على سلوكه العام.. ولكن في حالة ميتران كان للمرض إنعكاس إيجابي على سلوكه وتفكيره وهو الرئيس الذي أقطع بأن المرض أرسى فيه مبادئ جديدة سيظل يحفظها التاريخ عن ظهر قلب.. وأن الإنسان الذي وجد على الأرض في صورة جسد كامل الأعضاء ما كان سيصبح أعظم الخلوقات لو لم يدفع الله فيه نفساً وروحاً تسيطر على هذا الجسد وما فيه من عقل.. وينبغي أن نعلم أن مرض السرطان سيطر على نفسية وشخصية ميتران كما سيطر على جسده ولكن كان تأثيره على النفس أكثر إيجابية من تأثيره على الجسد بل كان بمثابة تنشيط جديد لروح ميتران وتدمير أكيد لجسده.. ولكن ما فائدة الجسد بلا نفس عاقلة!!؟

وفي اعتقادي أن الله سبحانه وتعالى إذا أراد للرئيس ميتران أن يكون معنا الآن وإذا كان قد أنعم عليه بنعمة الشفاء من هذا الداء، وكانت أمامه فرصة أخرى لرئاسة فرنسا ووجد ابنته مازارين في أحضانه، وبالقرب من قلبه، فإن فرانسوا ميتران كان سيصبح في فترة رئاسته الجديدة أعظم حكام الحقبة التي نعيشها، بل لا أبالغ إذا قلت أنه كان سيصبح بعد تجربة الشفاء من المرض واحداً من أعظم الحكام في التاريخ..

بوريس يلتسين

«أسد جبلي يتحول إلى قطة»

الرئيس الروسي الأسبق بوريس يلتسين، كان بالفعل مثلاً حقيقياً للزعيم الذي لعب المرض والشيخوخة برأسه إلى الحد الذي أصبحت فيه حالته الصحية تشكل خطراً قومياً وأكدداً على مصلحة روسيا.. وفي اعتقادي أن بوريس يلتسين زعيم قوى للغاية.. ولو لم تشأ الأقدار لأن يتسلم الاتحاد السوفيتي صريعاً ومنهاراً على يد سلفه ميخائيل جورباتشوف لاستطاع يلتسين أن يجعل الاتحاد السوفيتي قوة أولى في العالم بلا منازع.. بشرط واحد هو سلامة حالته الصحية وعدم تأثر قراراته بمضاعفات الأمراض التي تعرض لها..

وقد ولد يلتسين في أول فبراير عام ١٩٣١ في قرية بوتكو بمنطقة ناليتسكي في مقاطعة سفيردلوفسك حيث كان أجداده يحرثون الأرض، ويبدرون الحبوب ويعيشون على الزراعة حتى انقضت حياتهم مثل حياة الآلاف من كل أهل الريف الآخرين، وكان من بين سكان القرية أسرة يلتسين وهي أسرة والده وأسرة ستاريجين، وهي أسرة والدته، وقد تزوج أبوه وأمه في هذه القرية الصغيرة وسرعان ما أثمر هذا الزواج عن طفلهما الأول الذي تم تعميده في الكنيسة الوحيدة الصغيرة في منطقة ناليتسكي كلها، وقد قرر القس أن يطلق عليه اسم «بوريس».. ومرت طفولته صعبة للغاية.. فلقد كان الفقير صديقاً حميماً لأسرته.. وكان الإنتاج الزراعي في أسوأ حالاته إلى الدرجة التي أصبحت معها آلاف الأفدنة لا تدر سوى محصول يمكن أن ينتج عن بضعة عشرات من أفدنة الأرض الزراعية فقط، وكان الغذاء قليلاً والحياة صعبة، واضطر أن يعمل مع أسرته كفلاحين أجراء في أراضي الغير حتى يستطيعوا أن يحصلوا على قوت يومهم، وأن يسكتوا بطونهم التي تصرخ من الجوع والفقير.. وكلما عاد يلتسين وأسرته بحصيلة رزقهم بعد يوم عمل شاق وأجور تافهة، تعرضوا لهجوم عصابات المجرمين التي كانت تعيش في ذلك الوقت على لحم المكدرين والمطحونين من أبناء الشعب الأذلاء..

وأمام هذا البطش والإجرام الذي لم يتوقف يوماً واحداً قرر والد يلتسين في عام ١٩٣٥ مغادرة العمل في المزرعة التي كان يأكل منها لقمة العيش للعمل في أحد مواقع البناء في الفترة التي أطلق عليها ستالين «فترة التصنيع» وانتقل الأب إلى بريزنكي بمقاطعة بيرم حيث اشتغل عاملاً للبناء في موقع تشييد مصنعاً لصناعة البوتاس، وفي هذا الوقت أقامت الأسرة في كوخ جماعي يضم ٢٠ غرفة تقيم فيها ٢٠ أسرة تشترك جميعها في مرحاض واحد.. وبلغ الفقر ذروته بأسرة يلتسين إلى الحد الذي جعل أمه تساعد جيرانها في أعمال

المنزل مقابل نصف رغيف من الخبز أو أى نوع آخر من الطعام ..

وكان يلتسين في طفولته ولدأ شقياً وعنيفاً للغاية، وقد حدث أنه تشاجر مع معلمته عندما كان تلميذاً في الصف الأول الابتدائي، لأن هذه المعلمة كانت تأمر تلاميذها الصغار أن يحملوا قموين المنزل من كاتنين المدرسة إلى مطبخ البيت .. وقد استاء الطفل بوريس لهذا الوضع وثار على معلمته، ورفض أن يعمل خادماً لهذه المعلمة المتسلطة، وشكاها إلى ناظر المدرسة الذى قرر أن يفصلها على الفور .. أما معاركه وصولاته فلم تتوقف يوماً واحداً .. فقد كان دائم التشاجر مع زملائه، وذات مرة أشدت وطيس المعركة بينه وبين زميلاً له يفوقه في الجسم والقوة، واشتعلت نيران الكرامة وفارت الدماء في رأس خصمه فتمكن من توجيه لكمة لبوريس تسببت في كسر أنفه، ومازال هذا الكسر واضحاً حتى الآن ... ويقول يلتسين نفسه عن أبيه أنه كان شديداً وصارماً على عكس أمه التي كانت رقيقة وحاملة بطبعها .. وعندما يخطئ الطفل بوريس لم يكن أبوه يعرف سوى الكبراج .. فكان يطلب من ابنه أن يرقد وينزع قميصه ويدلى بسروره ثم يهوى بالكبراج على جسده، ولكن بوريس كان يضغظ على أسنانه حتى لا يصدر صوتاً يزيد من ثورة والده .. ولم يكن ينقذ يلتسين في هذا الوقت سوى تدخل أمه الحنون التي كانت لا تقبل أن ترى ابنها وهو يجلد مثل العبيد خاصة وأنه كان طفلاً ناعماً الأظافر .

وما يقال عن شقاوة هذا الولد يمكن أن نرصد له كتاباً خاصاً، فقد عثر يوماً على قبيلة يدوية أثناء الحرب العالمية الثانية .. وحملها إلى مكان بعيد وهو لا يدرك خطورتها لو انفجرت في وجهه ... ولكن هذا الولد الشقى صمم على تحطيم هذه القبيلة بمطرقة صغيرة، وكانت النتيجة أنها انفجرت في يده وطار معها أثنان من أصابع يده اليسرى، وبعد ذلك وجد ضالته في الرياضة .. فقد كان يلتسين متميزاً بطاقة جسمانية غير عادية، فبرع في لعبة القولى بول حتى أصبح مدرباً لفريق من الأنسات اللاتي تسابقن الواحدة تلو الأخرى لكسب وده وجهه ولكنه كان يزداد دلالاً مع كل محاولة جديدة للتقرب منه .

وقرر يلتسين بعد ذلك أن يلتحق بقسم الهندسة المدنية في معهد العلوم التطبيقية في سفيردلوفسك بمنطقة الأورال^(١) وهو المعهد الذى يعادل معهد ماسوشس للتكنولوجيا في الولايات المتحدة الأمريكية .. ويقول يلتسين عن هذه الفترة: أنه حتى هذا الوقت لم يكن قد رأى معالم بلاده، ولا حتى شاطئ البحر .. بل لم يكن قد خرج من قريته أصلاً ..

واضطر يلتسين أن يستقل القطار ليسافر إلى المعهد في عاصمة المقاطعة، وفي القطار تعرض لبلطجة بعض الشباب المشاغبين الذين يكبرونه في السن، ويتفوقون عليه في القوة العضلية، وكان مطلبهم أن يلعب معهم لعبة البوكر .. ولكن يلتسين كان يرفض بشدة لأنه

(١) جبال الأورال هي الفاصل الجغرافي بين قارتي آسيا وأوروبا، ويمش بها أمالي الجبال وتتصارع داخلها النزعات الأوروبية الآسيوية.

لم يتعود من قبل على لعب القمار.. ولكن رفضه هذا قوبل من شلة البلطجية بمزيد من البطش والضرب والأذى حتى تورم رقفاً، يلتسين من الضرب، وانتشرت الكدمات في سيقانه من الركل.. وكلما زاد اعتقاد هؤلاء البلطجية بأنه بطة سميئة مليئة بالكنوز كلما زادت سطوتهم، واشتعل بطشهم به وهم لا يعلمون الحقيقة.. فهو لا يحمل روبل واحد في جيبه!!.. واضطر يلتسين مجبراً في النهاية أن يتعلم البوكر حتى ينقذ حياته من هؤلاء القراصنة خاصة بعد أن شهروا في وجهه أسلحتهم البيضاء.. وخلال الرحلة إلى العاصمة كان الولد الشقى قد تعلم البوكر واتقنها.. بل فاز في النهاية على شلة الضائعين ونزلوا من القطار في سفيردولفسك بملايسهم الداخلية رحمة وشفقة من العبقرى يلتسين..

واستمرت سنوات الدراسة على هذا النحو، فقد كان بوريس يلتسين دائم التنقل بين البلد التي استقر فيها مع عائلته، وبين مقاطعة سفيردولفسك حيث معهد العلوم التطبيقية.. وفي سفيردولفسك كون شلة من زملائه من الفتيان والفتيات الغتريين وقرروا أن يعيشوا في مسكن واحد وأن يقتسموا شقتين متجاورتين لتقييم الفتيات في شقة وليقيم يلتسين مع رفاقه في الشقة الجاورة... وهناك دق قلبه لأول مرة في حياته وأنجذب إلى نانيا جيريينا والتي كان اسمها الحقيقي أناستاسيا، وكان يحب أن يناديها دائماً بـ (ديفوشكا) أى يا فتاة.. وكانت نانيا متواضعة وساحرة ولها شخصية رقيقة وحاملة، وهذه بالطبع صفات متناقضة تماماً لطبيعة شخصية يلتسين ذات الأبعاد المختلفة..

وذات ليلة كان بوريس عائداً إلى بلدته في إجازة قصيرة.. لكنه كان مفلساً كالعادة فاضطر إلى اعتلاء سطح القطار والنوم على ظهره حتى يفر من المحصل الذي كان سيلقيه من شباك القطار لو عرف أنه لا يحمل تذكرة لركوب القطار.. وكانت النتيجة أنه أصيب بنزلة برد حادة واحتقان شديد باللوزتين، وارتفعت درجة حرارته، ونقل إلى المستشفى ثم أصيب بالتهاب روماتيزمى، وهنا قرر الطبيب أن يلزم يلتسين الفراش لمدة أربعة شهور، وإلا أصيب القلب بالروماتيزم.. لكن يلتسين المتمرد دائماً رفض الفكرة شكلاً ومضموناً، وهرب من الطابق العلوى للمستشفى بعد أن صنع من ملاءات السرير حبلاً استخدمه في الهبوط والهرب من شباك غرفته.

وكان طبيعياً أن يتخرج بوريس يلتسين في معهد العلوم التطبيقية بتقدير ممتاز.. فقد كان ذكاًؤه متوقداً وحماسه زائداً وعقله حاضراً بصفة دائمة.. ونظراً لطبيعة الخلاف والتناقض الموجود في شخصية يلتسين ونانيا فقد قرر رغم الحب القوي الذي جمع بينهما أن يؤجلا زواجهما لمدة عام واحد حتى يستطيعا أن يقيما مشاعرهما، وتكون موضع اختبار في هذه الفترة على أن يلتقيا في العام القادم في أرض محايدة.. وبالفعل التقيا بعد عام ولكن حرارة الحب كانت قد وصلت النهاية، وقرر بوريس يلتسين على الفور أن يتزوج نانيا لتبدأ معه رحلة الوصول إلى الكرملين.. وفي هذه الفترة عين كرئيس عمال في اتحاد الأورال

لتصنيع الأنابيب الثقيلة ، ثم سرعان ما أثبت نفسه وتفوق في مهام عمله حتى تم تعينه كبيراً للمهندسين في إدارة التشييد بنفس الاتحاد.. وقضى في هذا المنصب ١٤ عاماً اكتسب فيها خبرة كبيرة في مجال التشييد والمقاومات والتخطيط العمراني، ولما ذاع صيته وأصبحت كفاءته محل تقدير واحترام تلقى يلتسين دعوة ليرأس قطاع اللجنة الإقليمية للتشييد في الحزب الشيوعي بمقاطعة سفيردولوفسك، وقد ساعد على هذا الاختيار أن نضوج يلتسين السياسي قد بدأ في الظهور خاصة وأنه كان يشارك في العمل الحزبي بعد ساعات العمل - وكعادته في إثبات نفسه - فلم يمر وقت طويل حتى انتخب سكرتيراً للجنة كلها وبعد عامين ذهب إلى موسكو لحضور دورة في دراسة العلوم الاجتماعية لمدة أسبوعين في أكاديمية العلوم الاجتماعية، وكان يلتسين أنشط المشاركين في هذه الدورة وأكثرهم توقداً وذكاءً.. وكان يناقش كل صغيرة وكبيرة يسميها في المحاضرات التي كانت تلقى عليه في الأكاديمية، وعندما قرر المسئول عن الدورة التدريبية أن يقدم تقريراً عن الدورة إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي وقع اختياره على المهندس بوريس يلتسين ليقدّم هذا التقرير الذي نال تقدير واحترام أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، مما جعل بريجنيف مصراً على رؤيته والتعرف على هذا الشاب الذي يسمع أخباره من حين لآخر، ويضرب بذكائه ونشاطه المثل..

وبالفعل ذهب بوريس لمقابلة الرئيس السوفييتي بريجنيف بصحبة اثنين من سكرتيري اللجنة المركزية وهم كاييتونوف وريابيف، وبعد هذه المقابلة تم تعيين يلتسين سكرتيراً أول للجنة الحزب الإقليمية في سفيردولوفسك في الأورال وهو المنصب الذي يعادل في مصر أمين عام الحزب في إحدى محافظات الجمهورية.. واستمر يلتسين في نبوغه السياسي ونجحته يتصاعد يوماً بعد يوم.. فلما لبث أن دفعته طموحاته السياسية إلى المقدمة وبصبح هذا الرجل حديث الحزب الشيوعي كله، بعد أن لفت الأنظار بالأفعال لا بالأقوال وبسياسته البارعة في إدارة لجنة الحزب في سفيردولوفسك..

وفي هذا الوقت تعرف يلتسين على ميخائيل جورباتشوف والذي كان يشغل منصب السكرتير الأول للجنة الحزب في ستافروبول، وهو المنصب الذي يناظر منصب يلتسين في سفيردولوفسك وتوطدت بينهما علاقة حميمة، فقد اتفقا على الأهداف والمبادئ وحلما سوياً بوجه آخر للاتحاد السوفييتي بخرجه من حالة الجمود التي يعيشها لينطلق نحو الانفتاح ولا يصبح قوة عظيمة في قدراته التسليحية فقط، ولكن يتعدى الأمر ذلك لتكون له الصدارة أيضاً في الاقتصاد والصناعة والتجارة والدبلوماسية العالمية..

وبعد أن تولى جورباتشوف السلطة أفتح رفيقه يلتسين بأن يتحرك سفيردولوفسك وأن يحضر إلى موسكو ليشاركه العمل السياسي في العاصمة.. ولكن يلتسين كان متمسكاً بانتمائه إلى هذه المقاطعة، ويرفض أن يتركها بعد أن قضى كل حياته فيها وأنجب كل أولاده

بها وحقق وضعاً سياسياً يؤهله لأن يخوض الانتخابات النيابية .. ولكن ضغوط جورباتشوف كانت أقوى من أن يرفضها يلتسين .. مما جعله يصطحب أسرته إلى موسكو حيث اختاره جورباتشوف لرئاسة لجنة الحزب في موسكو، وعضواً احتياطياً بالمكتب السياسى عام ١٩٨٥ رغم أن جورباتشوف يعلم جيداً أن يلتسين بدأ يعارض بعض سياسات الحزب الشيوعى ويبدو ناقماً عليها وغير راض عن سياسة جورباتشوف نفسه .. ولكن الأخير كان يريد أن يتخلص من فيكتور جبرلشين رئيس لجنة الحزب في موسكو فأعد خطة للإطاحة به ونجح فى تنفيذها، ولم يكن أمامه سوى يلتسين ليشتغل هذا المكان .. فهو يثق فيه رغم إختلاف الرأى بينهما فى بعض القضايا الهامة .. ولم يمر شهران حتى أصبح بوريس يلتسين عضواً معيناً بالمكتب السياسى ثم ترقى بسرعة ليصبح عضواً كامل العضوية فى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى .. ومنذ ذلك الوقت ذاع اسم يلتسين ..، وملاً صيته كل الأذان إلى الحد الذى جعله يفوز بانتخاب عضوية مجلس نواب الشعب عن دائرة موسكو فى شهر ديسمبر عام ١٩٨٥، وهى الدائرة التى لم يكون فيها مستقبله السياسى ولم يكن له رصيد شعبى عند أهالى موسكو كما هو الحال فى سفيردولوفسك .. ولكن يبدو أن سيرته وقوة شخصيته ومبادئه الجديدة التى يدعو لها كانت قد سبقته إلى موسكو قبل أن يترك سفيردولوفسك .

ولكن بوريس يلتسين كان الجواد الجامح على مسرح السياسة فى الاتحاد السوفيتى .. ورفض الخضوع لبيروقراطية الحزب الشيوعى، وهو فى أوج مجده وعنفوانه، وتحدى الزعيم ميخائيل جورباتشوف، وشن هجوماً عنيفاً وفاضحاً ضد الامتيازات التى يحوزها النخبة من قيادات الحزب لأنفسهم خاصة بعد أن اكتشف أنهم يعيشون فى القصور، ويفرقون فى الملذات والمتع وأفراد الشعب يموتون من الفقر والمرض وقسوة السجن الشيوعى .. ولم تسلم البروسترويكيا أو حركة إعادة البناء التى تبناها جورباتشوف من نقد يلتسين اللاذع رغم أنه كان مقتنعاً بها ومؤيداً لها وحركة الجلاستوت، أو المكاشفة والديمقراطية التى كان يدعو جورباتشوف أيضاً لها .. وسبب معارضة يلتسين يأتى من إحساسه بأن جورباتشوف يسير بسرعة السلحفاء نحو طريق الإصلاح، وأن هناك بطناً متعمداً من جورباتشوف فى المضى قدما لرفع معدل تنفيذ البروسترويكيا فى الاتحاد السوفيتى، والتى كان يلتسين يرى أنها المخرج الوحيد للاتحاد السوفيتى من أزماته ... ولكن جورباتشوف الذى ضاق زراعاً بيلتسين وهو يشعر بهذا الأسد الجبلى يهدد زعماته ويناطحه القيادة .. قرر أن يطيح ببوريس يلتسين من الحزب والمكتب السياسى، وأقصاه من رئاسة لجنة الحزب بموسكو عام ١٩٨٧ وقد تسبب ذلك فى إصابته بإكتئاب شديد وهو يرى طعنة الغدر تأتى من رفيق كفاحه والذى حلم معه لحظة بلحظة بميلاد الحرية والديمقراطية وشروق شمسها على أرض الاتحاد السوفيتى .

لكن الشعب المطحون والمكدود لم يسكت .. ولم يرض أن تكون هذه هى نهاية الأسود

عندما تثور ضد الفساد .. وبعد عام ونصف أعادت الإرادة الشعبية بوريس يلتسين إلى البرلمان من أوسع الأبواب بعد أن خاض المعركة الانتخابية مستقلاً في مارس ١٩٨٩ ، حيث حصل على ٨٤.٥% من أصوات الناخبين في موسكو محققاً الفوز على منافسه وهو أحد كبار رجال الأعمال ومدير إحدى شركات إنتاج السيارات والذي يحظى بتأييد الحزب الشيوعي وجورباتشوف شخصياً، وقد ذكر وقتها أنه حصل على ثقة ٦ ملايين ناخب، وأن الجامعات والمؤسسات الرسمية والشعبية في الولايات المتحدة الأمريكية عرضت عليه إلقاء عدة محاضرات في أمريكا مقابل ١٢ ألف دولار عن كل محاضرة يلقيها، خاصة بعد أن أصبح المعارض الأول للحزب الشيوعي السوفييتي، والرجل الذي يهدد جورباتشوف في كل لحظة بمنافسته على زعامة البلاد.

ولم يهدأ بوريس يلتسين عن مهاجمته للبروسترويكما البطيئة والجلاستوت الضائعة في قيود الشيوعية .. بل إشتد هجومه بعنف على جورباتشوف وإيجور ليغاشوف الرجل الثاني في الحزب الشيوعي السوفييتي ...

ولم تمر أيام حتى تعرض يلتسين على حد قوله إلى واحدة من أشهر محاولات الاغتيال في تاريخ الزعماء .. بعدما انتهى لتوه من اجتماع مع أهالي دائرته الانتخابية، ثم قرر أن يذهب ليزور صديقاً قديماً له في قرية أوسبيتسكوى .. ولما وصل القرية صرف سائقه وقرر أن يأخذ المسافة سيراً على الأقدام حتى منزل صديقه ليستنشق النسيم الليلي الناعم بعد عناء العمل، وما لبث أن فوجئ يلتسين بسيارة تطارده ثم نزل منها مجموعة من الرجال الأقوياء وأوسعوه ضرباً وركلاً ثم ألغرو عليه بشوالم كبير غطى كل جسمه وربطوا فتحته بحبل قوى، وهو يصارعهم بشدته وعنفوانه ولكن دون جدوى حتى حملوه داخل الشوالم وألقوا به في نهر «مسكفا على حد قوله في مذكراته التي نشر فيها سيرته الذاتية بعنوان Against The Grain أو «ضد مزاج الفرد» حيث أكد أنه استطاع أن يتخلص من الشوالم قبل أن يسقط في الماء وأخذ يسبح ويصارع دوامات النهر وسط البرودة الشديدة حتى وصل إلى إحدى ضفتيه .. ثم وصل إلى مقر الشرطة وقد بدأ عليه إعياء شديد، وفي قسم الشرطة تعرف عليه الضباط بسهولة وأعطوه ملابس جديدة وبطاطين ليحمى بها نفسه من البرد القارس، ورغم أن يلتسين يتهم في مذكراته الحزب الشيوعي بتدبير هذه المحاولة لاغتياله، إلا أنه رفض أن يقوم الضباط بقسم الشرطة بالكشف عن شخصيته أو إبلاغ أحد المسئولين .. ولكن وزير الداخلية السوفييتي في ذلك الوقت أنكر هذه القصة ونفاها تماماً وأكد أنها من وحى يلتسين لاستدراار عطف الشعب نحوه ...

ووقف يلتسين يقول في مؤتمر شعبي حاشد إن آلهة الحزب الشيوعي لن تهرب من مصيرها، ولا بد أن يأتي اليوم الذي يواجه فيه هؤلاء الزبانية حساب الشعب، بل إن بعضهم بدأ يواجه الحساب فعلاً بعد الاخفاقات التي حققها الحزب .. واستجاب الناس لحمولات

يلتسين لحشد تأييدهم حتى فاز برئاسة جمهورية روسيا في ١٦ مايو ١٩٩٠.. وسوف نتأكد من مدى القلق والتوتر الذى سيطر على قادة الحزب الشيوعى وجورباتشوف بصفة خاصة والذى كان عائداً لتوه من قمة أمريكية سوفيتية بالولايات المتحدة الأمريكية مع الرئيس الأمريكى جورج بوش.. إذا عرفنا أن جمهورية روسيا التى فاز يلتسين برئاستها تمثل نصف مساحة الاتحاد السوفيتى تقريباً ويعيش فيها ٥٢٪ من سكانه وتتركز بها المراكز الصناعية ومناجم الثروات والبترول..

ولم يوقف بوريس يلتسين ما أبداه جورباتشوف ورفاقه من غضب وتكشير عن أنيابهم فقد كان لهذا الأسد الجبلى أنياب أقوى من أنياب جورباتشوف وأظافر أكثر حدة من أظافر عواجيز الحزب الشيوعى.. وقاعدة شعبية حقيقية تضاعفت بعد أن نادى يلتسين بإنهاء زعامة الحزب الشيوعى للبلاد، وطالب بتعدد الأحزاب وحرية التعبير عن الرأى.. وقد ساهمت هذا الشعبية الطاغية التى حققها فى فوزه برئاسة مجلس السوفيتات الأعلى (البرلمان) فى شهر يونيو عام ١٩٩٠ بعد حصوله على ٥٣٢ صوتاً من أصوات مؤتمر الشعب الروسى الأول والبالغ عددها ١٠٦٠ صوتاً..

ويبلغ تأثير بوريس يلتسين على الشعب أقصى مداه فى الاضطرابات التى حدثت فى أغسطس ١٩٩١، ويبدو كما لو كان ساحراً ضليعاً فى سحره الذى يسيطر به على جماهير الشعب ويحدد اتجاهها، وفى نفس الوقت ظهر كأن لسان حاله يقول لجورباتشوف: أننى الرجل الأقوى فى هذه الدولة العظمى.. وأستطيع أن أحمى كرسيك الذى لا تستطيع أن تحميه وأنت رئيس إحدى القوتين العظمتين فى العالم...، وقتها قاد مجموعة من الانقلابيين تمرداً ضد جورباتشوف وانقلبوا عليه وساعدهم فى ذلك بعض قوات الجيش التى خرجت بدباباتها لتحيط الكرملين ومقر البرلمان ومقر الإذاعة والتليفزيون والوحدات والمؤسسات الحيوية فى موسكو، ووصلت إلى يلتسين الأنباء بأن الانقلابيين قد إعتقلوا جورباتشوف بجزيرة القرم، وأنه قد استسلم لهم ووافق أن يتخلى عن السلطة.. فخرج بوريس يلتسين فى ملحمة نضالية سيذكرها التاريخ كثيراً إلى الانقلابيين ووقف فوق إحدى دباباتهم وجموع الشعب المسحور به تلتف حوله ليقول لقادة الانقلاب: تستطيعون أن تأتوا إلى السلطة من فوق الدبابات ولكن لن تستطيعوا الجلوس طويلاً داخل برج الدبابة، إن الاشتراكية لا تصنع بالدبابة والدبابة لا يمكن أن تخيفنا ونحن الذين دفعنا ثمنها من عرقنا وكدنا وكان ينبغى على الانقلابيين أن يستخدموا الدبابات لحماية الشعب من أى عدوان خارجى أو تهديد أجنبى ولكنهم قلبوا الأمر وأطلقوا الدبابات إلى الشوارع والميادين لكى ترهب الشعب وتروعه،... واستدار يلتسين لجموع الشعب وطلب منهم أن يجعلوا أجسامهم سياجاً تقف فى وجه الدبابات لكى تصبح كل دبابة مثل البطة العرجاء.. وهكذا تحول جنود وقادة الانقلاب إلى أسرى داخل دباباتهم وانهزم الانقلابيون واستسلموا أمام

الرجل الأعزل الذى لا يملك سلاحاً سوى إرادة الجماهير وذلك بعد ٦٠ ساعة فقط من وقوع الانقلاب . وأمر بنفسه أن يُفك اعتقال جورباتشوف الذى أطاح به وخذله من قبل .

وترك جورباتشوف الحكم بعد أن قدم أعظم الخدمات إلى الولايات المتحدة الأمريكية قبل أن يرحل . . فلقد فكك الاتحاد السوفيتى إلى دويلات صغيرة وأنهى الوحدة السوفيتية التى كانت القوة العظمى الأولى التى تواجه قوة الولايات المتحدة الأمريكية وبدد آلاف الرؤوس النووية فى دول حلف وارسو . . وأطلق الرصاص من مسدسه على الشيوعيين والحزب الشيوعى السوفيتى الذى كان يوماً زعيماً وقائداً له . . وأصبح بوريس يلتسين هو الرمز الحقيقى لمجموع الشعب والمتحدث الرسمى بإرادتهم خاصة وأنه يحكم أكبر جمهوريات الاتحاد السوفيتى المفكك . . وكان يلتسين يعمل أكثر من ٢٠ ساعة يومياً فضلاً عن التزامه الشديد بالدقة والنظام وتمسكه بأرائه ومبادئه وحماسه فى الدفاع عنها .

يلتسين يتحول إلى النقيض

والشير للدهشة فى شخصية يلتسين أنه تحول للنقيض تماماً بعد أن تمكن من فرض سيطرته وسياساته على البلاد . . وبلغ هذا التحول حداً غير عادى يفوق تصور العقل والمنطق . . فهذا الأسد الجبلى النازح من جبال الأورال ذات الطبيعة الخشنة تحول إلى دب روسى سمين . . وهذا المدافع الأول عن الحرية والديمقراطية والعدالة والرخاء كان أول من وأد الديمقراطية واخترق الدستور وكشر عن أنيابه ليصفع الحريات على وجهها ويدخل بالبلاد إلى حالة من الاقتصاد المتردى والتهالك والذى هوى بروسيا إلى القاع لتبدو كما لو كانت تلفظ آخر أنفاسها . . وفى أواخر أيامه اتهم بالفساد والرشوة مع ابنته تاتيانا التى كان يثق فيها ويضعها فى منصب مستشاره الخاص ، ورئيس الجهاز الإدارى بالكرملين ويترك فى يدها كثير من الصلاحيات وسلطات التصرف ، ولكنها فى النهاية غرقت مع أبيها فى فضيحة «مابيتيكس» وهى الشركة السويسرية التى تولت أعمال تجديد مقر الكرملين وغيره من المباني والقصور الرئاسية ، وثبت أنها تورطت مع أبيها يلتسين فى تقاضى رشوة لترسية أعمال الإصلاحات على هذه الشركة . . وقال مدير هذه الشركة : إن يلتسين وابنته تاتيانا أنفقا ما يقرب من ٨٧ ألف دولار على مدى ٤ سنوات باستخدام بطاقات الائتمان التى منحتها لهم الشركة مقابل ترسية أعمال الترميم والتجديد والإنشاءات لصالح شركته . . بخلاف أن الأوراق الرسمية والفواتير تؤكد أنه أنفق على ترميم الكرملين ٢٥ مليون دولار وهو رقم غير حقيقى ومبالغ فيه بشكل كبير على حد قول مدير الشركة السويسرية . . ولم تقتصر قضايا الفساد التى اتهم بها يلتسين عند هذا الحد فقط . . فقد احترفت عائلته لعبة توظيف الأموال لاغتصاب الثروات كما تم إدراج إبنتيه تاتيانا وإيلينا فى قضايا فساد ورشوة على أرض سويسرا .

وفي ٣١ أكتوبر ١٩٩٩ أدلى بافيل بورودين المدير السابق لمكتب الكرملين - وهو مكتب تابع للرئيس يلتسين - بتحديث لشبكة تلفزيون روسية أكد فيه أن الكرملين في عهد يلتسين - كان يتحكم في أصول قيمتها ٦٥٠ مليار دولار.. وأن المكتب الذي كان يرأسه مدير ٦٠ شركة منفصلة من بينها ١٠ شركات للمقاولات و٨ مزارع ومصنع واحد للأثاث و١٠٠٠ مصحة ودار إيواء وفندق بريدنت في موسكو وهو فندق الصفوة والرؤساء بالإضافة إلى العديد من الفنادق المنتشرة في البلاد وقال بافيل بورودين أن يلتسين أمره بصرف عائد هذه المشاريع على حملته الانتخابية الأخيرة.

وقد قام يلتسين أكثر من مرة بتقويم راتبه بزيادات طردية مستمرة كما أنه تملك ملكاً شخصياً أربعة استراحات ريفية منها واحدة تقع على البحر الأسود، وتحت إمرته طائرة بوشن ٩٦ تتكلف ٤٢ ألف دولار لكل ساعة طيران.. وأن هناك قوة مكونة من ٦٥٠ فرداً تحميه في كل تنقلاته وتحركاته.

وفي مارس ١٩٩٩ فجر الجنرال الكسندر كورجاروف الحارس الشخصي السابق للرئيس يلتسين وكاتم أسراره لأكثر من عشر سنوات فضيحة كبرى هزت الأوساط السياسية في روسيا وخارجها، حين أكد تورط يلتسين في العديد من العلاقات الغرامية غير المشروعة، وأنه إذا كانت مونيكا لوينسكي، امرأة واحدة هزت البيت الأبيض بواشنطن فإن في موسكو أكثر من مونيكا في حياة يلتسين.. وفي تصريحات نشرتها صحيفة بارليانت سكاي الروسية أكد الحارس الخاص أن يلتسين كان يمنح عشيقاته الشقق السكنية التي تملكها الدولة مقابل إقامة علاقة غرامية معهم.

وفي عهد يلتسين كان غرق الدستور والقوانين واضحاً.. وأطاح الدب الروسي السمين بكرامة البرلمان أكثر من مرة، وكلما أصدر قانوناً لا يلائم يلتسين كان يهدد بحل البرلمان.. حتى ثار البرلمان عليه في مارس ١٩٩٣ وأجرى محاولة فاشلة للإطاحة به، لكن يلتسين لم يكن مستعداً للتخلي عن السلطة ولا سيما بعد أن أبده الشعب في استفتاء رسمي.. ولكن المعارضة كانت قد ضيقت الحنق حولته بالإضافة إلى أنه وصل لأقصى درجات الضجر والغضب من معارضيه في البرلمان فأصدر قراراً في ٢١ سبتمبر عام ١٩٩٣ بحل البرلمان وكان هذا القرار غير دستوري، ولا يستند لأي أسباب قانونية، ولكنه اتخذته بحذر في منتجع خارج موسكو مع وزير دفاعه بافيل جراتشيف والعديد من مستشاريه، ولكن النواب رفضوا تنفيذ القرار واعتصموا داخل البرلمان وأقاموا المتاريس، وتجمع حولهم المؤيدون والقناصة التابعون وتهددوا بحماية مبنى البرلمان من يلتسين وقواته، وكان بادياً عليهم الإصرار وأنهم لن يتراجعوا مهما كانت التضحيات وظل جراتشيف يطمئن يلتسين ويخفف من قلقه، ويؤكد له أن كل شيء مخطط وأن قواته على أهبة الاستعداد.. وعاد يلتسين سريعا من منتجعه إلى الكرملين وثار ثورته عندما عرف أن قوات الكرملين ذهبت لتحمي وزارة

الدفاع وقال : المفروض أن تحمى هذه القوات الرئيس .. وظلت الأمور معلقة بعض الوقت حتى قام أحد القناصة التابعين لقادة التمرد بإطلاق النار على أحد الجنود فأسقطوه قتيلاً .. وهنا وجد يلتسين المبرر لإفتحام مبنى البرلمان .. بل أكثر من ذلك فقد قذفه بوابل من دانات مدافع الدبابات ، واستطاع أن ينهى الاعتصام وأن تقتاد قواته حسبالاتوف والكسندر روتسكووى قادة التمرد إلى سجن ليفورتوفو .. وبعدها أقام يلتسين حفلاً ضخماً شرب فيه نخب الانتصار، ورقص حتى الصباح وهو لا يعرف أن الأرض التى يرقص عليها مليئة بأشلاء جثث الضحايا ودماء شهداء الدفاع عن القانون والدستور والمبادئ، وهى التى كان يلتسين يدافع عنها فى يوم من الأيام وكاد أن يفقد حياته غريقاً فى نهر مسكفا، مناضلاً من أجلها على حد قوله فى مذكراته .

وحاول يلتسين كثيراً أن يخترق القانون ، فقد حشد مستشاريه لبيحثوا له عن مخرج يجعله يحتفظ بالرئاسة لأطول فترة ممكنة وتفتق ذهن مستشاريه عن عدم الاعتداد بفترة الرئاسة الأولى لأنها بدأت فى ظل النظام الشيوعى السابق، ولكن البرلمان وقف له بالمرصاد وأوضح أن الدستور ينص على فترتين رئاستين مهما اختلفت الأنظمة .. وفكر يلتسين أن يعلن الوحدة مع روسيا البيضاء للتحايل على الدستور والفوز بفترة رئاسية ثالثة .. وبدأ بالفعل يعد لهذا الاتحاد ولكن الرياح جاءت بما لا تشتهي السفن .

ومنذ بداية الدورة الأولى لرئاسته اندلعت ثورة الشيشان وقابلها بمنتهى الوحشية فى استخدام الآلة العسكرية ضد الإنسان الذى يدافع عن قضيته ودينه وهويته .. وبعد يومين من استقالته نشرت مجلة نيوزويك أنه ربما تكون هناك علاقة بين يلتسين وعملية تسييل أموال فى ١٢ حساباً مصرفياً ببنوك سويسرا، خاصة بعدد من رجال الأعمال الروس والأجانب وتبلغ فى مجموعها ١٥ مليون دولار، ثم قررت الحكومة السويسرية أن تجمد هذه الحسابات لحين انتهاء التحقيق بشأنها .

ولم يكن بوريس يلتسين يفارق زجاجة الفودكا .. فقد كان سكيراً على الدوام وكانت صحته أشبه بورقة ذابله سقطت من فرعها ولن تعود إليه أبداً لذلك لا يمكن أن تحيا من جديد .. وأمام حالة الغضب التى بدأ يواجه حداثها خاصة بعد أن عرف الشعب حقيقة يلتسين الذى نادى بما لا يطبق، وثار على الشمولية الشيوعية من أجل شموليته الخاصة .. ، لم يجد بداً من ترك الحكم، ولكنه كان يخشى أن يحدث معه ما حدث مع شاوشيسكو فى رومانيا : ولذلك ناور من أجل ترك الحكم بأقل الخسائر فى صفقة سياسية قال عنها المحللون أنها انقلاب هادئ أراد به يلتسين أن يحتفظ بالسلطة وهو خارج الكرملين، ولم يكن أمامه سوى رئيس وزرائه وتلميذه النجيب فلاديمير بوتين ليتنازل له عن الحكم فى هدوء طبقاً للدستور الذى يقضى بأن يتولى رئيس الوزراء منصب الرئيس فى حالة استقالته حتى إجراء أول انتخابات رئاسية .

ولا شك فإن بوتين كان له شعبية لا يستهان بها وكان مرشحاً للفوز بانتخابات الرئاسة إذا ما فكر في خوضها، وهذا ما حدث بعد ذلك ووافق بوتين على صفقة يلتسين والتي طلب أن تصدر بمرسوم رئاسي لحين إقراره كقانون يتطلب التصديق عليه من البرلمان الروسي (مجلس الدوما) وكان هذا المرسوم يضمن ليوريس يلتسين ضمان نقدي شهري مدى الحياة يقدر بـ ٧٥٪ من مرتب رئيس روسيا الاتحادية وحراسة شخصية مدى الحياة في أماكن وجوده الدائمة والمؤقتة بموجب كل الإجراءات التي ينص عليها القانون الاتحادي حول الحراسات الحكومية بما في ذلك توفير أجهزة الاتصالات الخاصة، وسبل المواصلات.. وتتضمن الرسوم أيضاً احتفاظ يلتسين وأسرته المقيمة معه بحق التمتع بالخدمات الطبية التي كان يتمتع بها حتى لحظة توقيعه عن القيام بمهامه، والتأمين الإجباري على حياته وصحته خصماً من مصروفات الميزانية العامة للدولة بقييم تعادل المرتب السنوي لرئيس روسيا الاتحادية، وأيضاً شملت بنود الصفقة حق يلتسين في الاحتفاظ بحصانته وعدم محاسبته جنائياً أو إدارياً وعدم احتجازه أو اعتقاله أو تفتيشه أو مسائلته بالإضافة إلى حق توظيف طاقم من المساعدين على حساب الميزانية العامة للدولة..

وقمت الصفقة.. ووقع فلاديمير بوتين على المرسوم الرئاسي بحماية يلتسين وتسلم منه مقاليد الحكم وسلطان الرئاسة ونجا يلتسين من مقصلة الشعب والمعارضين باستقالته في ٣١/١٢/١٩٩٩ وهو يطلب من شعبه عبر شاشات التليفزيون أن يصفح عنه لأنه لم يستطع أن يفعل له ما يريد.

رحلة يلتسين مع المرض

كما ذكرت في بداية حديثي عن الرئيس بوريس يلتسين أنه الرجل الذي كان يستطيع أن يقود الاتحاد السوفييتي لو بقي إلى اليوم دون انهيار أو تفكك وبشرط ألا يتعرض يلتسين لحملة الأمراض المستعصية التي أثرت بلا شك على قراراته.. ويمكننا القول بأن يلتسين هو رئيس الدولة الذي ينطبق عليه مقولة «ذهب عقله ثمناً للمرض وإدمان القوداك»، والمعروف أن يلتسين فقد أصعب الإبهام والسبابة في يده اليسرى منذ طفولته عندما عبث بقنبلة يدوية ودمرها بمطرقة فإذا بالقنبلة ترد الصفعة في عاهة مستديمة أثرت على نفسية يلتسين طوال حياته فظل يخفي يده اليسرى دائماً في جيب سطلونه حتى يبعد الأنظار وكاميرات المصورين وعيون الناس عن عاهته، كما أن الرئيس يلتسين قد تعرض مراراً أثناء طفولته وشبابه إلى حمى روماتيزمية وإحتقان اللوزتين، ودخل في إحدى هجمات المرض الشديد إلى مستشفى القرية وأضطر أن يقيم بها أربعة شهور لخوف الأطباء من انتقال المرض إلى قلبه ولكنه تمكن من الهرب بخطة ذكية.

وخلال فترتي حكم يلتسين ساءت حالته الصحية جداً ويقول حارسه الخاص ألكسندر

كورزاكوف في مذكراته: أنه كان على طائرة الرئيس يلتسين في رحلة العودة من واشنطن إلى موسكو، وفوجئ بأن زوجة يلتسين تدخل عليه استراحتته وتوقظه من نومه وتقول له: بوريس وقع وبلبل نفسه.. استيقظ ليذهب للحمام لكنه يرقد هناك الآن.. وطلب منها الحارس الشخصي أن تستدعي أطباءه فوراً، وذهب إليه فوجده ملقى بجسده الثقيل على أرض الحمام، وفشل في حمله فاضطر إلى سحبه جراً على الأرض من أرضية الحمام وحتى حجرة نومه ثم، رفعه على سريره بمساعدة الآخرين وكان واضحاً أنه أصيب بأزمة قلبية وهو يواجه الموت.. وبسرعة شديدة تدخل أطباءوه وحاولوا إنقاذه وكان من المفروض أنه سيجرى مباحثات لمدة ٤٠ دقيقة مع رئيس وزراء إيرلندا في طريق عودته إلى موسكو والذي كان ينتظره في المطار.. وصرخ يلتسين في أطباءه: اجعلوني أبدو طبيعياً وإلا أذهبوا للجحيم.. وكان مرتدياً ملابس الداخلية فقط فطلب ملابسه الخارجية ليستعد للمحادثات، ولكن حارسه الخاص على حد قوله يذكر أنه منعه، ولكن بوريس أصر على النزول لمقابلة رئيس وزراء إيرلندا بعد أن توقفت الطائرة تماماً على أرض المطار، وما يكاد يلتسين أن يفكر في القيام ليرتدى ملابسه حتى يسقط مرة أخرى هاوياً على فراشه وقال له حارسه: لن أتركك تنزل من الطائرة مهما كان الثمن، فقال له يلتسين الذي كان ثملاً: ألحقت بي العار أمام العالم كله بما فعلته.. فرد حارسه الخاص وصديقه المقرب: أنت الذي كدت أن تلحق بنفسك وبروسيا العار.. وكادت هذه الواقعة في أكتوبر ١٩٩٤ على أرض مطار شانون بأيرلندا، حيث كان رئيس وزرائها ألبرت رينولدز في انتظاره.. وذكر هذا الحارس أيضاً أنه قبل هذه الواقعة كان كلينتون يودع يلتسين في حفل أقامه له في واشنطن، وظل يلتسين يشرب كافة أنواع الخمور حتى فقد وعيه، وبدأ يهزى بكلام خارج ونكات بذئنة، وترنح كثيراً، وكاد أن يسقط أكثر من مرة، وشعر الرئيس كلينتون بكثير من الحرج أمام ضيوفه الذي دعاهم على شرف بوريس يلتسين، وفي ٢٥ فبراير ١٩٩٥ شعر يلتسين لأول مرة بالآلام شديدة يظهره وعموده الفقري وقد نصحه أطباؤه بالخضوع لنظام دوائي يعتمد على المسكنات ومضادات الالتهاب.

وفي ١٤ يوليو عام ١٩٩٥ نُقل إلى المستشفى المركزي بسبب اضطرابات بالقلب وارتفاع حاد بضغط الدم وقام أطباؤه بالسيطرة على الموقف ومراقبة اضطرابات القلب بغرفة العناية المركزة حتى تماثل للشفاء وخرج من المستشفى في ٢٥ يوليو عام ١٩٩٥ متوجهاً إلى إحدى المصحات خارج العاصمة الروسية، وبعد ١٢ يوماً عاد لإجراء فحوصات طبية ومعملية بالمركز الطبي بموسكو، وفي ٢٧ أكتوبر ١٩٩٥ كان مجلس الدوما يناقش سحب الثقة من الرئيس يلتسين، وقد أثار ذلك غضبه وانفعاله فأصيب بأزمة قلبية حادة شخصت على أنها جلطة بشرايين القلب التاجية، وتم نقله إلى المستشفى المركزي بموسكو، وفي اليوم الثاني صرح أطباؤه بأنه يعاني من صعوبات في تدفق الدم من القلب، وانتشرت الإشاعات بوفاة

يلتسين إلى الدرجة التي جعلت النائب باتريك كومارك عضو مجلس النواب البريطاني أن يعلن أثناء عقد جلسات المجلس وفاة بوريس يلتسين، وقد عقدت نانيا يلتسين زوجة الرئيس لقاء صحفياً في ذلك الوقت انتقدت فيه هذه الإشاعات المغرضة التي يروجها أعداء زوجها ومعارضوه.

وفي نوفمبر ١٩٩٥ عاد يلتسين إلى المستشفى المركزي بموسكو مرة أخرى لإصابته بأزمة قلبية جديدة، واضطراب في ضربات القلب، ولكنه تماثل للشفاء سريعاً وأثناء المعركة الانتخابية الرئاسية الثانية في عام ١٩٩٦ أصيب يلتسين بأزمة قلبية حادة مرة أخرى، وفي ذلك الوقت أرسلت الولايات المتحدة الأمريكية اثنين من أبرز خبراءها في الدعايا الانتخابية لا لكي يروجوا لانتخابه ولكن لكي يحجبا عن الرأي العام الروسي حقيقة حالته الصحية وأيضاً ليقنعا أن يؤدي أمام الرأي العام رقصة الدببة التي لا يقدر عليها سوى شخص يعيش بقلب سليم، ولكن يلتسين اقتنع بأدائها وأصر على ذلك وقام بأداء الرقصة بقلب مصاب بالجلطة وانسداد بالشرايين التاجية، وفور إعلان النتيجة وفوزه بمنصب الرئاسة لفترة ثانية شرب عشرات الأنخاب التي لا يقدر على احتوائها سوى دب روسي سمين. وكان يلتسين مسرفاً إلى حد كبير في شرب الخمر والكحوليات وتجرع الفودكا الروسية والنيبيذ الفرنسي والجين الإسكتلندي والمارتينى الإيطالي بكميات غير عادية حتى أنه كثيراً ما كان يغيب عن الوعي ولا يستطيع أن يمارس مهام عمله كرئيس لدولة مهمة وقد كلفه سكره هذا كثيراً عندما دخل ذات مرة مكتبه وهو ثمل وعندما مر بإحدى سكرتيراته قام بقرصها من وسطها وأمسك بمؤخرتها وسط اندهاش جميع مستشاريه ومساعديه وقد استطاع أحد مصطوري الصحف أن يصور هذه الواقعة وينقلها إلى صحف العالم حيث إستاء الرأي العام العالمي من ذلك العجوز المتصابى بوريس يلتسين.

وفي بداية فترة رئاسته الثانية بدأ الأمر يتفجر، ويبدو واضحاً أمام المتابعين لصحة يلتسين على شاشات التلفزيون والمحطات الإخبارية العالمية، ففي مارس ١٩٩٦ انعقدت قمة شرم الشيخ وحرص بوريس يلتسين على حضور القمة وأصر على إلقاء كلمة إضافية لم يكن معداً لها من قبل وعندما انتهى منها سقط متكناً على أكتاف مساعديه على مرثى ومسمع من العالم كله الذي يتابع المؤتمر من خلال الأقمار الصناعية وعلى الفور حملته مساعده إلى طائرته وانطلقوا به إلى موسكو. وعلى الفور تم إدخاله المستشفى المركزي بموسكو حيث أكدت تقارير الأطباء أنه يعاني من قصور شديد في الشرايين التاجية التي تغذى عضلة القلب، وقصوراً في وظائف الكبد والكلى والرئتين، وتضخماً شديداً في البروستاتا والتهاب في الأذن الوسطى بسبب له الغثيان والصداع المستمر وارتفاعاً حاد بضغط الدم. وقد اجتمع حوله كونسولتو من أشهر أطباء العالم في جراحة القلب جاء ثلاثة منهم خصيصاً من الولايات المتحدة الأمريكية وعلى رأسهم جراح القلب العالمي مايكل ديبكى وهو من أصل

لبناني وكان يبلغ وقتها من العمر ٨٨ عاماً، كما أرسل المستشار الألماني - في ذلك الوقت - هيلموت كول بإثنين من كبار جراحي القلب في ألمانيا بالإضافة إلى اشتراك نخبة كبيرة من أشهر أخصائي القلب في روسيا، وقد اتفقوا جميعاً على أن حالة الرئيس الصحية حرجة للغاية وأنه يحتاج لجراحة عاجلة لإنقاذ حياته، واستبدال الشرايين التاجية المصابة بالإنسداد بنسب مختلفة بوصلات شريانية ووريدية جديدة، وبالفعل تم إجراء الجراحة بنجاح كبير، واستأنف يلتسين حياته من جديد، ولكنه كان يعود إلى المستشفى من وقت لآخر، ويخرج منها لقضاء النقاهاة في إحدى المصحات، ويبدو أن أزمات القلب كانت تعاوده من حين لآخر مرة أخرى، وأن الجراحة لم تضع حداً لآلام قلب الرئيس يلتسين، ولكن في كل مرة كانت التقارير الرسمية تتفاوت ما بين الإصابة بنزلات البرد والأنفلونزا وهبوط في ضغط الدم.

وفي ١٢ يناير ١٩٩٧ أعلن سيرجي ميرونوف كبير أطباء الكرملين أن الرئيس بوريس يلتسين مصاب باكتئاب شديد بسبب نوبات المرض التي كانت تعاوده من حين لآخر رغم إجراء جراحة القلب وبسبب تكرار إصابته بالالتهاب الرئوي الذي أضعف جهازه التنفسي بصورة ملحوظة...، ولا شك أن هذا التصريح الشائك على لسان كبير أطباء الكرملين قد أثار جواً من البلبلة والتشكيك في قدرة الرئيس يلتسين في الاستمرار في الحكم وهذا ما دعا فيكتور تشيرنومردين رئيس وزراء روسيا في ذلك الوقت لأن يدفع بالشك في مدى صحة الرئيس وامكانية ممارسة مهامه الرئاسية ويؤكد من خلال اقترابه منه أنه لم يعد مؤهلاً لقيادة البلاد..

وفي ٢ مارس ١٩٩٧ نشرت إحدى الصحف الروسية أن يلتسين يعالج علاجاً روحياً على يد المعالجة الروحية جوانا، والتي عالجته من قبل الرئيس بريجينييف، وذكر أن يلتسين بدأ يستجيب من الناحية النفسية للعلاج الروحي وأنه يتعاطى مجموعة من العقاقير الطبية المنشطة والمستخلصة من الحيوانات الشديدة عن طريق الحقن في محاولة للتماسك وإثبات قدرته الصحية.

وفي ١٢ ديسمبر ١٩٩٧.. نقل يلتسين مرة أخرى إلى مستشفى موسكو المركزي إثر شعوره بآلام حادة في الصدر، وتبين في المستشفى أنها أزمة قلبية جديدة، وقد قام أطباء الرئيس بالسيطرة الفورية على الأزمة القلبية التي أصابته بالعقاقير والأدوية، وقد أظهرت رسومات القلب والتحليل المعملية التي أجراها الأطباء أن الرئيس تعرض لتقلص شديد في الشرايين التاجية نتيجة قصور في دورتها الدموية، وبمجرد تماثله للشفاء فضل كعادته أن يقضى فترة نقاهة في المصححة الريفية بارييجا، وأعلن فالنتين يوماشيف رئيس إدارة الرئاسة بالمصححة أن الرئيس مصاب بنزلة برد وكان هذا على غير الواقع والحقيقة، وفي الاتحاد السوفييتي القديم كانت جملة «نزلة برد» عبارة عن مصطلح يعني قرب الوفاة، فقد أصيب الزعيم السوفييتي بريجينييف بمرض خطير أدى بعد ذلك إلى وفاته، ووقتها قال أطباؤه أنه

مصاب بنزلة برد... وقالوا أيضاً أن قوسطنطين تشرنينكو مصاب بنزلة برد ثم اختفى بعد ذلك، وكذلك أكدت النشرات الطبية الصادرة عن صحة يورى أندروبوف رئيس جهاز الاستخبارات السوفيتية كى.جى.بى أنه مصاب بنزلة برد ثم مات فى غضون أسابيع قليلة بعد صدور هذه النشرة.

وخلال شهر أكتوبر عام ١٩٩٨ قام يلتسين بزيارة إلى جمهورية قازخستان، وأبدى مجهوداً غير عادى فى زيارتها مما اضطره لقطع زيارتها بناء على إصرار الأطباء الذين لاحظوا عليه الإعياء الشديد، خاصة بعد أن بدأ يشكو من آلام بالصدر وضيق شديد بالتنفس أدى إلى مرور يلتسين بحالات إغماء يرجع السبب فيها إلى نقص الأوكسجين بالدورة الدموية نتيجة وجود خلل فى وظائف تبادل الغازات بجهازه التنفسى، وصرح طبيبه الشخصى بأن يلتسين يعانى من إتهاب رئوى وسيتم علاجه بالمضادات الحيوية فى منزله دون الحاجة إلى دخول المستشفى، وفى نفس الوقت قام يلتسين بنقل سلطاته إلى رئيس وزرائه فى ذلك الوقت يفجينى بريماكوف مما يجعلنا نشك أن مرض يلتسين لم يكن متعلقاً بإصابته بالتهاب رئوى ولكن يبدو أن الأمر كان أكثر مما صرح به طبيبه الشخصى.

وفى زيارة أخرى لبوريس يلتسين إلى أوزبكستان كان يبدو وكأنه فاقد الذاكرة ولا يدرك أنه خارج روسيا فى زيارة رسمية لدولة أخرى، وقد تحدث مع مساعديه بشكل عنيف وبغضب شديد أمام أعضاء حكومة الدولة المضيئة عن تأخرهم عن موعد اجتماعهم به، كما لو كان يوبخهم فى قصر الكرملين.. وقتها قالوا أنه قد بدأ يفقد الذاكرة وذكرت مصادر طبية أن بوريس يلتسين قد أصيب بمرض الزهايمر الذى يؤدى فى النهاية إلى فقدان المريض لذاكرته تماماً فيصبح غير مدرك لمن حوله حتى أقرب المقربين من أفراد أسرته، وخلال شهر نوفمبر ١٩٩٨ ألغى يلتسين برنامج زيارته لماليزيا لحضور منتدى التعاون الاقتصادى لدول آسيا والمحيط الهادى وسط تكهنات حول ارتباط ذلك القرار بتدهور حالته الصحية، خاصة وأنه أوفد يفجينى بريماكوف على رأس وفد البلاد إلى العاصمة كوالالمبور يومى ١٦، ١٧ نوفمبر لحضور جلسات المنتدى..

وفى أول يناير عام ١٩٩٩ العام الأخير فى رئاسته أصيب يلتسين بنزيف وقى دموى نتيجة إصابته بقرحه نازفة فى المعدة وكالعادة انتقل إلى مستشفى موسكو المركزى وقام أطباؤه بعمل أشعة ملونة على معدته لمعرفة سبب القرحه، ولكن ديمترى باكوشكين المتحدث الرسمى باسم الكرملين أعلن أن الرئيس لم يفوض أحداً فى نقل سلطاته إليه، وأنه تم عمل منظار على المعدة لبوريس يلتسين لسحب عينة من نسيج المعدة لفحصها خلويًا لمعرفة احتمال التدخل الجراحى من عدمه.. وذكر ديمترى باكوشكين أيضاً أن يلتسين قرر تأجيل زيارته إلى فرنسا يوم ٢٨، ٢٩ يناير لمقابلة الرئيس شيراك وعقد مباحثات ثنائية معه إلى أن تم تمديد موعد آخر فى ٢١ من الشهر نفسه ذكر نيكولاى بورديما رئيس الإدارة

الصحية بالكرملين أحالة يلتسين لن تحتاج إلى تدخل جراحى ..

هكذا قضى بوريس يلتسين فترة رئاسته الثانية فى التردد على المستشفيات والمصحات ومركز التأهيل .. وأن المرض لم يتركه يوماً واحداً إلا وكان ضيفاً ثقيلاً على حياته وعلى فكره وقراراته .

يلتسين.. الرجل الذى فقد عقله !!

فى مذكراته الشخصية «ضد مزاج الفرد» ضحك يلتسين على الزعيم السوفييتى الشهير ليونيد بريجنيف، وقال عنه أنه فى المرحلة الأخيرة من حياته أنه لم يكن لديه رأى شخصى أو فكرة عن ما يفعله، أو يوقع عليه أو يقوله .. واستشهد يلتسين بحكاية بريجنيف ومترو الأنفاق فى سفيردولوفسك، وقال عن هذه القصة: أنه ذهب إلى ليونيد بريجنيف ليستأذنه فى السماح له بإعداد خطة لإقامة مترو أنفاق فى مقاطعة سفيردولوفسك التى كان يعيش فيها فى ذلك الوقت ٢ مليون و ٢٠٠ ألف نسمة ولكن شعر من الحديث مع بريجنيف بأنه لا يفهم شيئاً ولا يدرك ما يقوله وعندما شعر بريجنيف بأنه لا يستطيع أن يشحذ تركيزه مع يلتسين قال له: ماذا ينبغى أن أكتب؟ . فأملأه يلتسين صيغة الموافقة على مشروع مترو الأنفاق ..

وكما تدين تدان !! وما أشبه اليوم بالبارحة !!! وكما قال يلتسين مقولته عن بريجنيف، فقد قالت الدنيا كلها مقولتها عن بوريس يلتسين، ولم يترك خصومه فرصة إلا ولوحوا له بضغفه، وشهروا بمرضه وأنه أصبح شخصاً آيلاً للسقوط .. وما أكثر ما أكد قادة المعارضة الروسية رغبتهم فى خلع يلتسين المريض، مؤكدين عدم قدرته على إدارة شئون البلاد بالرغم من أنه فى ذلك الوقت كان قد أحال معظم سلطاته إلى رئيس وزراء يفجيني بريماكوف .. كما أكد زعيم الحزب الشيوعى المعارض جينارى زيوجانوف أن يلتسين لم يعمل منذ عام ١٩٩٥ .. والثابت فى مقالات صحيفة «الدلى ميل» البريطانية أن يلتسين أدمن الخمر وأمضى عام ١٩٩٢ فى حالة سكر متواصل وأنه أصيب بورم خبيث فى أحد أعضاء جسمه، وربما يكون ذلك متعلقاً بالمعدة كما عانى من اضطراب بالدورة الدموية، وتلف فى الجهاز العصبى المركزى، وقرر الأطباء أكثر من مرة نقل كميات من الدم إليه .. وذكرت الصحيفة أيضاً أنه لا يستطيع أن ينحنى دون أن يفقد توازنه، ويستند على الأرض وأنه يبدو متبلداً ومتلعثماً فى حديثه ومتعثراً فى خطاه، وشارداً فى فكره ويعيد إلينا صورة ليونيد بريجنيف فى أواخر أيامه ..

ويالا الدهشة .. فعندما تكلم يلتسين فى مذكراتها عن الحكام المرضى .. تكلم عن بريجنيف وعندما أرادت «الدلى ميل» أن توصفه فى مرضه وضياعه ذهنى شبهته ببريجنيف نفسه !!! ..

وبالفعل لقد ضاع عقل يلتسين في آخر أعوام حكمه .. لحسته الفودكا .. وهزمته الشيخوخة، وتسبب قلبه الضعيف في عدم وصول الدماء الكافية لتغذية مخه .. وإذا وصلت فلا يكون الأكسجين مذاباً فيها بالصورة المناسبة التي تسمح له بالتركيز والإدراك .. وفي مارس عام ١٩٩٨ كانت خيبة الأمل شديدة والشعب الروسى يرى رئيسه يهذى أمام العالم فى افتتاح أعمال القمة الثلاثية بموسكو، والتي دعى يلتسين إليها بجانبه كل من الرئيس الفرنسى جاك شيراك، والمستشار الألماني هيلموت كول .. وعندما وقف ليعلن افتتاح القمة وبداية المحادثات قال وسط ذهول الجميع: أعلن افتتاح المؤتمر الصحفى بدلاً من أن يقول: أعلن افتتاح القمة .. وأسرع سكرتيره الخاص وهو يعدو فى اتجاهه لجعله يتدارك الموقف بهدوء ويذكره بأنه يفتتح القمة الثلاثية وليس المؤتمر الصحفى .. ولكن يلتسين نظر إليه بإحتقار ومضى يدعو الصحفيين لطرح الأسئلة وحاك شيراك وهيلموت كول يضربان كفا بكف ولسان حالهما يقول: لاحول ولا قوة إلا بالله !!

وللرئيس بوريس يلتسين تصرفات وقرارات غريبة وخطيرة، فلقد كان يواجه الأزمات بسياسة الصدمات ويتعامل مع معارضيه بقسوة ووحشية .. فهذا هو يضرب البرلمان بدانات مدافع الدبابات وهو لا يعلم أنه بهذا التصرف الطائش خسر كثيراً من تأييد شعبه، وبدأ يدق المسمار الأخير فى نعشه ...

ولا شك أن قسوته فى تعامله مع المعارضين تعود إلى عقد شخصية ترسبت فى ذاته وكيانه منذ الصغر، حين كان أبوه يتعامل معه بالكرباج إذا أخطأ .. وعلينا أن نتصور ما هى نفسية الإنسان الذى نشأ فى طفولته على كل هذا القدر من الوحشية فى التعامل مع براءة الطفولة وورقتها !!! وإذا كان أبوه يتعامل مع طفله بالكرباج .. فإن أبسط شئ أن يتعامل الابن مع المعارضين من أبناء شعبه بالمدفع والطائرة والدبابة .. يدوسهم بحذائه ويسحقهم بزبانية ويلقيهم فى معتقلات الظلام والبؤس، ولا غرابة فى ذلك فهذا الرجل أكمل طفولته مشاغباً وشرساً، فهو عندما يلعب .. لا يفكر إلا فى القنابل بالسندان والمطرفة.

وعندما يدخل فى معركة مع أقرانه تكسر له أنفه .. ويكسر للأخرين ذراعاً أو ساقاً .. ما هذا الوحش .. وما هذه الطفولة؟!

وهناك ملاحظة مهمة أيضاً .. فقد ذكرت جريدة «صنداي إكسبريس» سراً يذاع لأول مرة عن أحداث أكتوبر عام ١٩٩٣ والذى عرف بأكتوبر الأحمر، عندما هاجم الجيش الروسى البرلمان الشيوعى، وهذا السر هو أن يلتسين أصيب بأزمة قلبية أثناء حصار البرلمان، وذهب للعلاج فى المصحة الفاخرة التى كان معتاداً أن ينزل بها عند مرضه، والتي أنشئت خصيصاً لعلاج الزعماء السوفييت السابقين .. وهى متخصصة فى أمراض القلب .. وقد حمله رجاله سراً إلى الطائرة الهليكوبتر التى نقلته إلى المصحة البعيدة مسافة ٢٠ ميلاً عن موسكو .. وهناك اكتشف أطباؤه أن انقباض عضلة القلب ضعيف بصورة ملفتة، وأن هناك قصوراً فى وصول الدم إلى مخ يلتسين مما كان يصيبه بحالات من عدم التركيز وفقدان

الوعى، وقد ذكرت من قبل أنه كان قد أخذ قراره بإقتحام مبنى البرلمان فى منتجع المريض، مع وزير دفاعه وبعض مستشاريه، ولكن هذا المنتجع للأسف كان هو هذه المصححة التى نتكلم عنها الآن... وكيف يكون الحال ورجل يفقد السيطرة على وعيه يقرر فى غفلة عن واقعه أن يضرب برلمان بلاده بالدبابات والقنابل؟!

ومن قرارات يلتسين الغريبة أيضاً أنه قام بتعيين أربعة رؤساء حكومات، ثم أقالهم بدون أسباب واضحة فى زمن قياسي بمعدل مائة يوم لكل منهم، وأغلب الظن أنه لم يكن يتذكر متى قام بتعيين رئيس الحكومة؟! ولا لماذا يقوم بتغيير هؤلاء القادة؟! ولكن الحقيقة الأكيدة فى هذا الأمر أنه أضاف إلى أعدائه أعداءاً جديداً انضموا إلى صفوف معارضيهِ بعد أن كانوا من رجاله فى يوم من الأيام.. وهذا التصرف الغريب يجعلنا نؤكد ما ذكر عن صحة يلتسين بأنه أصيب بإختلال فى الجهاز العصبى المركزى...

وفى سنوات حكمه الأخيرة بدأ مرض الزهايمر يقطع معه شوطاً جديداً من أشواط المرض، وهذا المرض يجعل الإنسان يفقد ذاكرته شيئاً فشيئاً إلى أن تأتى عليه فترات يمكن أن يفقد فيها ذاكرته إلى حد كبير، فلا يستطيع أن يميز بين أفراد أسرته.. ولكن يلتسين لم يصل إلى هذه الدرجة من فقد الذاكرة، ولكن يمكن القول أن كل ما تناولته الصحف عن أخباره بالإضافة إلى المذكرات الشخصية التى كتبها المقربون منه بعد زوال حكمه أكدت أنه أحياناً كان ينسى أنه رئيس دولة.. بل عندما كان يزور دولة صديقة كان ينسى أنه خارج روسيا، ويتصرف تصرفاته العادية كما لو كان فى قصر الكرملين.. وبالطبع فإن أمراً كهذا يصعب معه أن يكون قرار يلتسين سليماً ورشيداً، لأنه فى كثير من الوقت سيفقد إحساسه بأنه الرئيس وسينسى قاعدة المعلومات والبيانات التى يدلى على أساسها بقراره بل إنه قد لا يتذكر مهامه الرئاسية على وجه كامل، وبالتالي فإن الخطأ سيشمل كل قراراته وتعليماته.

ولا شك أيضاً أن التصلب الذى أصاب شرايين قلب يلتسين قد يكون أيضاً أصاب شرايين دماغه... ومرض تصلب الشرايين له أسباب كثيرة ومختلفة، ولكن السمنة والإسراف فى تناول الدهون والتشويات وإدمان الخمور والاعتماد على السكريات فى الطعام، كلها أسباب يمكن أن تؤدى ببساطة إلى تصلب الشرايين وهى جميعاً متوفرة فى شخصيته وطبيعته.. وفى هذا المرض تظهر زوائد داخل تجويف الشريان تتكون من بعض الخلايا الضارة والدهون الغير مستحبة وتميل دائماً للخروج من جدار الشريان وتمتد فى اتجاه مركز مقطعه الدائرى فيزداد جدار الشريان سمكاً ويصبح تجويفه من الداخل ضيقاً إلى حد كبير، ومن الممكن أن تقوم هذه الزوائد بسد الشرايين كاملاً أو ترك الدم ينفذ من التجويف بنسبة ٣-٤%.. وهذا بالطبع يؤدى إلى ضعف فى قدرة الدم على الاندفاع داخل هذه الإنسدادات المتكررة وبالتالي فإن الدورة الدموية فى مخ يلتسين لم تكن على مايرام وأثرت على تركيبه وقدراته الذهنية.

وقد ذكرت أن يلتسين كان يعانى من خلل فى وظائف الكلى والكبد وارتفاع حاد

ومتكرر في ضغط الدم ونزيف معدى من حين لآخر، ومن الممكن طبيياً أن ترتبط كل هذه الأمراض ببعضها وتكون سلسلة مسبباتها من منشأ واحد وأغلب الظن أن يلتسين كان يعاني من ارتفاع في ضغط الوريد الكبدي الباسي، وهو ما يعرف باسم PORTAL HYPERTENSION والمعروف أن ضغط هذا الوريد الطبيعي من ٢ - ٥ ملليمتر / زئبق ولكن ارتفاعه عن الحد الطبيعي يمكن أن يتسبب في التعرض لنزيف معدى، من آن لآخر، وارتفاع في ضغط الدم كما كان الحال عند يلتسين، وتأخر في وظائف الكلى وحالات من فقدان الوعي وعدم التركيز الناتجة عن خلل في وظائف الكبد، وكل هذا بالطبع كان يؤثر على تصرفات يلتسين وقدرته على اتخاذ قراره بالصورة الصحيحة والسليمة، فكثيراً ما كان يصدر قرارات بعيدة كل البعد عن مقياس العقل ويقوم بتصرفات لا تصدر عن رئيس دولة لها كيانها ووضعها العالمي خاصة بعد أن ورثت الاتحاد السوفييتي القديم، وكان يلتسين كثيراً ما يهاجم سياسة دولة ما ثم سرعان ما يتراجع، ويشن على هذه الدولة وقادتها .. وكأنه كان يحلم ولم يكن على أرض الواقع، وكان الذي يتكلم رجل عادي وليس رئيس دولة مهمة مثل روسيا، وهو أيضاً الذي تحدى مجلس الدوما وأصر على تعيين «تشيرونكو» البالغ من العمر ٣٥ عاماً عضواً بمجلس الدوما، وقامت الدنيا ولم تقعد اعتراضاً على اختيار يلتسين وترشيحه لهذا الشخص الصغير في السن والتجربة وعندما هدأت العاصفة وقبل المجلس تعيينه نزولاً على رغبة يلتسين .. يقرر بكل بساطة أن يحل البرلمان !! وفي الأزمة الاقتصادية التي واجهتها روسيا عام ١٩٩٨ والتي أدت إلى ارتفاع معدلات البطالة وإغراق البلاد في حالة من الكساد التجاري .. ومرت أيام على أبناء الشعب الروسي المطحون ولم يجد فيها الواحد منهم قوت يومه .. وعندما تفتق ذهنه عن الحل الجهنمي .. قام بطبع الروبل بدون وجود مخزون استراتيجي في المقابل من الذهب والثروات وكانت النتيجة بالطبع زيادة في الأزمة وارتفاع في معدلات التضخم إلى الحد الذي جعل الكسندر رشوفين نائب رئيس الوزراء للشئون المالية يؤكد بأن يلتسين يدفع البلاد إلى الجحيم، وأنه في روسيا وحدها يوجد ٣٨ مليون مواطن لا يجدون الطعام.

ويؤكد الجنرال الكسندر كورجاروف حارسه الخاص في اللقاء الذي أجرته معه صحيفة الجارديان البريطانية أن يلتسين أصيب بأمراض نفسية كثيرة طوال رحلته السياسية، ففي عام ١٩٨٧ أصيب بإنهيار عصبي حاد بعد أن خلعه جورباتشوف من الحزب الشيوعي الحاكم، كما يذكر أن يلتسين حاول الانتحار عدة مرات بعد وقوعه في الاكتئاب والشعور بالانهيار التام، وأول محاولاته عندما ألقى بنفسه في نهر «مسكفا» والتي قال عنها أنها كانت محاولة لاغتياله من قبل الشيوعيين .. والمحاولة الثانية كانت بعد سنتين عندما حبس نفسه في قاعة الساوناء واضطر كورجاروف لخلع باب قاعة الساوناء، لإنقاذه ولكن يلتسين توقف عن محاولات الانتحار بعد إصابته بأزمات القلب المتكررة .. غير أنه قد أصيب بفقدان القدرة على فهم مضمون المعاهدات الدولية التي يوقعها.

وعندما اشتد المرض على بوريس يلتسين وخاصة عند إجرائه لجراحة عاجلة في القلب، كان لابد من سحب الزر النووي منه وتسليمه إلى رئيس وزرائه لأن الرئيس مقدم على إجراء جراحة خطيرة وقد يفقد فيها حياته أو تصيبه مضاعفات الجراحة، ويصبح عاجزاً بالفعل عن أداء مهامه خاصة إذا دخل في غيبوبة بعد إتمام الجراحة.. أما الأمر الذي لم يبدو عادياً ويبدو أنه أجبر عليه فكان في الوقت الذي سلم فيه رئيس وزرائه فلاديمير بوتين الحقييقة النووية، وكان ذلك في الفترة الأخيرة لحكمه، وهذا هو الدليل الأكيد على عدم قدرة يلتسين على إدارة البلاد رغم أنه في هذه المرة لم يكن مقدماً على إجراء جراحة خطيرة مثل المرة السابقة.

ومن تصرفاته الغريبة أيضاً أنه قام بفصل مدير مستشفى موسكو المركزي بدون إبداء الأسباب عندما كان نزيلاً بها عام ١٩٩٥، وفي عام ١٩٩٩ خرج من المستشفى لمدة ٣ ساعات رغم حالة الإعياء الشديدة التي كان يواجهها ليقلل أقرب مساعديه بدون إبداء الأسباب وهو رئيس طاقم الكرملين ثالنتين يوناشيف وثلاثة من معاونيه ثم عين مكانه نيقولاى بوريجاريف رئيس مجلس الأمن القومي وعاد بعدها إلى المستشفى مرة أخرى !!

ولا يجب أن ننسى أن حالة القلب والرئتين عند يلتسين لم تكن على ما يرام، وهذان العضوان لهما تأثير كبير في قدرة الإنسان الذهنية والعقلية فالقلب يمد المخ بالدم والرئتان تمده بأكسجين الضرورى لإنعاش وظائف المخ وتحسين قدراته الفكرية والذهنية.. وبالطبع فقد كان القلب والرئتان في حالة يرثى لها، وهذا كان له إنعكاسه على قوة تركيز يلتسين وبدا في نهاية حياته السياسية لا يعرف حقيقة المعاهدات الدولية التي يوقع عليها.. تماماً كلما كان بريجينيف لا يستطيع أن يدرك ماذا يقرأ أو يكتب في أواخر أيامه.. هذا بالإضافة إلى أن آلام القلب الشديدة التي كانت تعاود يلتسين من حين لآخر جعلته يصاب بالإكتئاب ويفقدان الثقة في نفسه، خاصة بعد إجراء جراحة القلب، والتي لم يشعر بعدها بأى تحسن ملحوظ بل على العكس تكررت آلام القلب كثيراً بعد الجراحة ودخل على أثرها المستشفى أكثر من مرة!! وهذه الآلام كان تدفع يلتسين إلى زجاجة القودكا التي لم يستطع التنازل عنها طوال حياته مما كان يدخله في دوامة أخرى من النسيان والعزوف عن الواقع.

هكذا كان يلتسين حقلاً لأمراض القلب والرئة والكلية والكبد والمعدة والأنف والأذن والمخ.. وكان من اللازم على إنسان يعيش بنصف أعضاء جسده أن يصل في نهاية المطاف إلى حالة من عدم التركيز وفقدان القدرة على اتخاذ القرارات، ورغم كل ذلك فقد استطاع يلتسين أن يشحذ تفكيره وتركيزه في أخطر قرارات حياته عندما قرر الاستقالة وعقد صفقة «يلتسين - بوتين» التي فر على أساسها من أنياب المتهورين والمعديين تحت قبضته وتحول الأسد الجبلى النازح من جبال الأورال إلى قطة سمينية لاحول لها ولا قوة...

تحليل وتساؤل ١١٩

بعد الإنتهاء من سرد جزء من السيرة العلاجية لبعض زعماء وقادة الدول الهامة على الخريطة السياسية، والتي تأثرت مجتمعاتهم إلى حد كبير بالقرارات التي اتخذوها خلال فترات المرض والمتاعب الصحية التي مروا بها . فقد توقفت كثيراً عند بعض النقاط الشائكة التي تتطلب إلقاء الضوء عليها وطرحها على مائدة الرأى أمام القارئ المهتم بالسيرك السياسى والأعبية حتى يفتن إلى المنهج الذى تتبعه الحكومات المختلفة فى عالمنا لتتحكم فيما هو فى صالح سياستها فقط دون النظر إلى مصالح الدول الأخرى... وقبل أن أتعرض لهذه النقاط بالتحليل والتساؤل يجب أن أذكر أن مضمون هذا التحليل، وهذه التساؤلات هو من قبيل وجه نظرى الشخصية، والتي استندت فى تحليلها على جملة القراءات والمعلومات التي اطلعت عليها والصادرة فى مصر والعالم، وأن وجهة نظرى قد يشوبها بعض الخطأ، وربما يكون لها من الصواب جانب كبير يحتم على أن أسرد تلك الوجة وألقيها بين يدي القارئ..

وأول النقاط الهامة التي لفتت نظرى هي أن كل الرؤساء والزعماء الذين تعرضوا لمحنة المرض كان همهم الأول والأخير إخفاء الأخبار التي تتعلق بحالتهم الصحية وقد دفعهم ذلك للتواطؤ مع أطبائهم الخصوصيين لإخفاء الحقيقة وكان يصل الأمر فى بعض الأحيان إلى حد تهديد الأطباء المعالجين للقادة بالقتل إذا ماتسربت معلومات عن صحة الرؤساء من خلالهم . ونتيجة لهذه الرغبة العارمة من الزعماء فى إخفاء ظروفهم الصحية صدرت عشرات بل مئات من النشرات الطبية خلال فترة المرض من دواوين الرئاسة، كانت تحمل أخبارا خاطئة وغير صحيحة عن صحة الرؤساء وهناك كثير من قادة الدول كانوا فى غياهب المرض وكادوا أن يموتوا كل يوم من الأهمم، ومع ذلك فقد كانت النشرات الصحية الصادرة بصورة رسمية تؤكد أن الرئيس المريض فى صحة جيدة، وأنه يمارس الرياضة ويؤدى مهامه الرئاسية دون أى مشاكل، وقد ساعدت أجهزة الإعلام وخاصة فى دول العالم الثالث فى الترويج لهذه النشرات الطبية الكاذبة، وتبنت تقديم البرامج والأخبار التي تشيد بصحة الرؤساء، وتطمئن المواطنين على رؤسائهم، وتنفى عنهم أخبار المرض بحجة أنها من قبيل التلفيق الإعلامى والصحفى الذى يروجه الأعداء والمعارضون !!

وبالطبع فإن هناك مبررات مدروسة لدى هؤلاء القادة الذين يخفون أخبارهم الصحية عن مواطنيهم، ومن أهم هذه المبررات كما ذكرنا من قبل، تأمين الرئيس من أى محاولة للإنقلاب عليه فى الوقت الذى يعلن فيه أن الرئيس أصبح ضعيفا لا حول له ولا قوة وأنه مشغول فى إنقاذ حياته من المضاعفات القاتلة الناجمة عن سوء حالته الصحية، وبالتالي فإن أمور القيادة وإدارة البلاد تتسرب خطوة بخطوة من يد الحاكم الأصلي لتصبح فى أيدي معاونيه والذين يمكن أن يكونوا طامعين فى الحكم، فينقلبون عليه أو يغفلوا عن قصد عن

صد محاولات الانقلاب عليه إذا وعدهم الإنقلابيون بغنائمهم ومكاسب لاحد لها بعد التخلص من رئيس الدولة .. ويتنامى هذا الإحساس بضرورة تأمين كرسي الرئاسة في حالة وجود معارضة قوية ومنظمة، وتطمح إلى الإطاحة برئيس النظام الحاكم .. هذا بالإضافة إلى التحديات الخارجية التي تواجه أنظمة الحكم التي يرأسها قادة في حالة وهن وضعف صحي، خاصة إذا كانوا قد أتوا إلى الحكم بعد قيامهم بثورة شعبية على الاستعمار الأجنبي الذي يظل متربصاً لقائد الثورة للإنتقام منه على فعلته ضد المستعمرين، ويكون مرضه أكبر فرصة لتنفيذ مخطط الإنتقام .. وأحيانا تكون الدول التي يقودها زعماء مرضى في حالة حرب وقد تكون هذه الحرب بدافع الكرامة وتحرير الأرض تهييذا لبناء المستقبل، فالسلام لا يأتي عادة إلا على رماد الحروب .. وبالتالي فإن إذاعة أنباء عن تدهور الحالة الصحية لرئيس الدولة التي تخوض هذه النوعية من الحروب، قد يبث روح الإحباط والضعف في نفوس جنوده، ويدفع بهم في غياهب الهزيمة النفسية التي تترتب عليها الهزيمة العسكرية، وفي نفس الوقت الذي ترتفع فيه معنويات الأعداء ويصبحوا أكثر تعلقاً بالنصر بلا بديل آخر ..

وبعض زعماء الدول كانوا يخفون أخبارهم الصحية عن أقرب المقربين إليهم، خاصة إذا كانت شعوبهم اعتادت من قبل على إنسحاب الرؤساء المرضى من بلاط الحكم، ولم تعد ترضى ببديل آخر عن هذا التقليد إلى الدرجة التي تتطلب فيها المجالس النيابية تقديم تقرير عن صحة الرئيس بصفة دورية لبحث امكانية صلاحيته لتولي رئاسة البلاد من عدمه، وقد حدث ذلك مع الرئيس الفرنسي ميتران الذي ظل مايقرب من إحدى عشرة عاما يخفي على شعبه أنه مصاب بالسرطان بعد توأطئه مع طبيبه الخاص كلود جوبلر، حتى لايقوم بتسريب أنباء مرض ميتران إلى الشعب الفرنسي، والذي بالطبع كان سيطلب بتنحية ميتران عن الحكم .. والغريب في هذا الأمر أن ميتران نفسه اكتشف منذ الأيام الأولى لانتخابه رئيسا لفرنسا لأول مرة أنه مصاب بالسرطان، ومع ذلك قضى فترتي حكمه كلها زعيما على فراش المرض الذي هدد حياته وأضعف قدرته على قيادة البلاد إلى الحد الذي وصل معه في نهاية فترة حكمه إلى استقبال رؤساء الدول من فوق فراشه ..

وحفنة قليلة من القادة هم الذين صرحوا بأنباء عن تدهور حالتهم الصحية بل سمحوا للصحافة ووسائل الإعلام المرئية والمسموعة أن تتابعهم وتنقل أخبارهم الصحية، ولكن تبقى دوافعهم لاتخاذ هذه السياسة محل تحليل ودراسة، فالبعض من هؤلاء الزعماء كانت مكاشفته تعود إلى طبيعته الشخصية التي تنتهج هذا الأسلوب مبدءا لها بصفة عامة، والبعض الآخر كان إتباعه لسياسة المكاشفة عائد إلى رغبته في ترسية ولي عهده والذي يكون في غالب الأمر أكبر أبنائه ليتولى مقاليد الحكم وسط تأييد شعبي وتعاطف يكتسبه ولي العهد من الظروف المرضية للحاكم الأصلي والذي يريد شعبه أن يلبى رغباته قبل أن يودعه .. وقد رأينا ذلك في سياسة المكاشفة التي اتخذها العاهل الأردني الراحل الملك حسين، فقد أدرك أنه في مرض الموت الذي لانجاة منه غالبا وفق المعايير الطبية والعلمية، وأن حالته الصحية سوف تجبره على البقاء خارج المملكة لفترات كبيرة للعلاج بمستشفى مايو

كلينيك بالولايات المتحدة الأمريكية وبالطبع فإن هذه الظروف لم يكن صالحاً معها أن يخفى الملك عن شعبه ظروف حالته الصحية لأن الشعب كان سيسأل بالطبع عن ملكه الغائب بصفة مستمرة عن البلاد، بالإضافة إلى أن الملك قد أسهم - بدون قصد - في إحاطة ابنه الأمير عبد الله بشعبية بين أبناء الأردن عند اختياره في ولاية العهد في أدق مراحل المرض الذي عانى منه العاهل الأردني وهو على مقربة أيام معدودة من أجله المحتوم، وليس هذا بغريب إذا عرفنا أن ٩٠% من أبناء الشعب الأردني ولدوا بعد تولي الملك حسين حكم المملكة الأردنية الهاشمية وأنهم يدينون له بالولاء والرمزية، ومن الصعب عليهم أن ينهى ملكهم حكمه للأردن بهذه الصورة الدرامية، ولذلك لبوا له وغبته الأخيرة في الموافقة على تعيين نجله عبدالله ولياً للعهد دون أدنى معارضة..

وعلاج الملك حسين وغيره من الزعماء والقادة بالمراكز الطبية بالولايات المتحدة الأمريكية يدفعنا للتساؤل عن مدى تدخل سياسة واشنطن في السياسة العلاجية الخاصة بقيادة ورؤساء الدول الذين يتلقون علاجهم على أرض الولايات المتحدة الأمريكية؟! ومن المعروف أن الولايات المتحدة تهتم كثيراً بدراسة الحالة الصحية للرؤساء والملوك من قادة الدول حتى يمكن أن تتعرف على طبيعة الظروف التي ستعرض لها الدول أو المناطق الخيطة بها في حالة وفاة رؤساء هذه الدول متأثرين بأمراض خطيرة أو عجزهم عن القيام بالأعباء الرئاسية وبالتالي يمكن الاستعداد لأي متغيرات بدلاً من تقبل المفاجآت التي قد تكون نتائجها أحياناً في غير صالح الولايات المتحدة الأمريكية، وهذا ماجعل وكالة المخابرات الأمريكية «سى آى إيه» تقبل على انشاء وحدة صحية للشخصيات الهامة تضم بين أطبائها أحد الأطباء النفسيين المسؤولين عن تحليل شخصية رؤساء الدول وتقنيد تصرفاتهم في ضوء الدوافع الشخصية، وكان من أهم أهداف هذه الوحدة العاهل الأردني الملك حسين والرئيس السوري حافظ الأسد وقيدل كاسترو وبوريس يلتسين، وقد قام رجال المخابرات الأمريكية بتحويل مسارات دورات المياه في المساكن التي يقيم بها رؤساء الدول المستهدفين وبالذات في رحلاتهم الخارجية للبحث من قبل الوحدة الصحية للشخصيات الهامة وذلك بعد تجميع فضلاتهم والقيام بتحليلها والوقوف على وظائف الأعضاء المختلفة في جسم الإنسان وطبيعتها الفسيولوجية وأنواع الأدوية المستخدمة في العلاج، كما قامت المخابرات الأمريكية بالتصنت على المكالمات التليفونية لبعض الرؤساء في مراحل مرضية مختلفة للوقوف على طبيعة المرض وخطورته، وآخر تطورات الحالة الصحية لهؤلاء الرؤساء، وبالطبع فإن إسرائيل الحليف الأول لأمريكا قد نقلت عن المخابرات الأمريكية هذا الفكر وتمكنت الوحدة الصحية المسؤولة عن متابعة الحالات الصحية لرؤساء الدول بالموساد الإسرائيلي من الحصول على عينة من بول الرئيس حافظ الأسد أثناء زيارته للأردن، للمشاركة في تشييع جنازة العاهل الأردني الملك حسين، وأمكن لأجهزة الموساد تحليل هذه العينة معملياً ومعرفة أن الرئيس الأسد يعاني من مضاعفات مرضية خطيرة، وأن حالته الصحية في تدهور مستمر بما قد يشكل خطراً على حياته في أي وقت من الأوقات.. ولكن هل يمكن أن تتدخل السياسة الأمريكية في السياسة العلاجية لأحد رؤساء الدول بما قد يؤثر سلبياً أو إيجابياً على صحته وحياته؟!

والإجابة على هذا التساؤل تحتاج لأن نوضح المغزى من أهمية التساؤل نفسه، والذي أقصد به الاستفهام عن إمكانية تدخل السياسة الأمريكية في توفير كافة إمكانيات الرعاية الصحية للزعماء الذين يرتبطون مع الإدارة الأمريكية بعلاقات سياسية وصلات قوية على مستوى عال من الحساسية وكذلك هل يمكن لنفس هذه السياسة أن تدفع بصحة الزعماء المعارضين أو الذين يتعارض وجودهم مع مصالح أمريكا إلى الهاوية، حتى يلقوا حتفهم متأثرين بأمراضهم الخطيرة؟..

وحتى يصبح الأمر جلياً علينا أن نعود قليلاً إلى ما قدمته الولايات المتحدة من خدمات صحية، ورعاية طبية للعاهل الأردني الراحل الملك حسين بن طلال، والذي كانت تربطه بالإرادة الأمريكية صلات وثيقة وعميقة إلى الحد الذي جعل الرئيس الأمريكي بيل كلينتون يأمر أطباءه الشخصيين بالتواجد في خدمة العاهل الأردني ومتابعة حالته الصحية لحظة بلحظة، على أن يرفعوا بها التقارير الدورية للرئيس الأمريكي، كما أن بيل كلينتون كان يفضل أن يعرف الأخبار الطارئة على صحة الملك حسين في أى وقت من الليل والنهار، وحين توفي الملك حسين لم يتأخر كلينتون لحظة عن المشاركة في تشييع جثمان الملك على رأس وفد أمريكي فوق العادة يضم الرئيس الأمريكي وزوجته هيلاري كلينتون وأربعة من رؤساء الولايات المتحدة السابقين.. ويأتى هذا كنوع من الاهتمام الأمريكي بالدور الذي كان يلعبه الملك حسين في منطقة الشرق الأوسط خاصة في عملية السلام وخوف الإدارة الأمريكية من الأحداث التي يمكن أن تتعرض لها الأردن في حالة وفاة الملك حسين، وعدم انتقال السلطة بهدوء إلى خليفته، أو تمكني ولي العهد السابق الأمير الحسن بن طلال من عرش المملكة وهو الشخصية التي لا تلقى قبولا في الأجواء الأمريكية..

أما عن التأثير السلبي للسياسة الأمريكية في تطور الحالة المرضية لبعض القادة والزعماء فعلياً أيضاً أن نرجع قليلاً إلى بعض الأسرار التي أذاعتها وكالة المخابرات الأمريكية بعد سنوات من حدوثها، والتي كان من بينها قرار الرئيس الأمريكي جون كيندي بإنشاء وحدة بالمخابرات الأمريكية لاغتيال شخصيات هامة يتعارض وجودها مع المصالح السياسية لأمريكا، ومن بين هذه الشخصيات بالطبع بعض رؤساء الدول وقادة الثورات الشعبية ومنهم على سبيل المثال فيدل كاسترو، الذي حاولت المخابرات الأمريكية اغتياله عشرات المرات ولكن بلا جدوى إلى الحد الذي جعلها تتفق مع عصابات المافيا لمحاولة القضاء على نظام كاسترو الذي كان يمثل لأمريكا شوكة في الحلق، وبالطبع فإن التدخل في السياسة العلاجية لرؤساء الدول يمكن أن يكون أحد الطرق التي تتبعها وحدة الاغتيالات بالمخابرات الأمريكية لتنفيذ مخططاتها المختلفة.. هذا إذا سلمنا بصحة الأخبار التي تم تداولها في الفترة الأخيرة عن إنشاء هذه الوحدة..

وقد رأينا أيضاً كيف أن الولايات المتحدة الأمريكية فتحت أبوابها لعلاج شاه إيران الأسبق محمد رضا بهلوى، في الوقت الذي كان يمثل فيه بهلوى معانئ كثيرة للإدارة الأمريكية، وعندما شعرت الولايات المتحدة بأن مجرد تواجد الشاه على أرضها بعد قيام

الثورة الإسلامية في إيران، سوف يسبب خسائر كثيرة للولايات المتحدة في مصالحتها بمختلف أنحاء العالم، رفضت أمريكا إعطاء تأشيرة دخول للشاه وهو يموت في أواخر رحلة المرض لتلقى العلاج على أرض أمريكا !!

ومن القصص والأحداث الجديرة بالتعليق، حكاية الطبيب الأمريكي الشهير مايكل ديبكى المتخصص في جراحة القلب والصدر، وهو بالمناسبة من أصل لبناني، وقد قام برئاسة الفريق الطبي الجراحي الذي أجرى عملية استئصال الطحال لشاه إيران في مستشفى القوات المسلحة بالمعادي، ووقتها أثيرت ضجة شديدة حول هذا الطبيب لأنه لم يترك خرطومًا في مكان العملية لتسريب الإفرازات الضارة بعد إنتهاء الجراحة خاصة وأنه قد أحدث جرحًا بالبنتكرياس تسبب عنه نزف دموي أدى إلى حدوث تجمع دموي في مكان الجراحة، وكان لا بد من الخرطوم في مكان الجرح لتفريغ هذا التجمع الدموي، ولكن عدم وجوده أدى إلى تعفن تلك الإفرازات الضارة، وتكون الصديد على التجمع الدموي الراكد مما تسبب في إصابة الشاة ببؤرة صديديه وتسمم بكثيري وجراثومي في الدم أدى بعد أيام من ارتفاع درجة الحرارة، وانخفاض ضغط الدم إلى وفاة الشاه خاصة وأن جهازه المناعي كان شبه معطل بسبب إصابته بسرطان الغدد الليمفاوية..

وقتها برر مايكل ديبكى للصحافة المصرية والعالمية فعلته وأكد أنه لم يخطئ مع أن الأطباء المصريين من أعضاء الفريق الجراحي لم يرضوا على تصرف ديبكى الذي تعلل بأن المدرسة الأمريكية في الجراحة لا تتبع هذا الأسلوب في وضع الخراطيم لتسريب الإفرازات والتجمعات الدموية بعد الجراحة، وهذا بالطبع أمر غير حقيقي، ويتنافى مع أبسط قواعد التدخلات الجراحية وسوف تصيبنا الدهشة عندما نعلم أن مايكل ديبكى قام بنفسه بوضع الخراطيم - التي رفض وضعها لشاه إيران - للرئيس الروسي بوريس يلتسين عندما أشرف على جراحة استبدال الشرايين التاجية لعضلة القلب والتي قام بإجرائها في روسيا !!

وبعد شهور من وفاة شاه إيران، تعرض الرئيس الأمريكي رونالد ريغان لمحاولة اغتيال فاشلة وأجرى له الأطباء جراحة عاجلة لاستخراج الطلق الناري من قفصه الصدري وبعد إتمام العملية قام الجراحون بوضع خراطيم لتسريب الإفرازات الضارة في مكان العملية... وهؤلاء الجراحون من نفس المدرسة الأمريكية التي نفى عنها مايكل ديبكى من قبل مثل هذا الإجراء.. كما أن الفترة الزمنية بين الجراحة التي أجريت للشاه والتي أجريت لريجان كانت محدودة جداً وهي فترة لا يمكن أن تتغير فيها أصول المدارس الطبية وقواعدها..

وهنا يتبادر إلى الأذهان سؤال هام؟

لماذا رأس مايكل ديبكى جراح القلب والصدر الشهير الفريق الجراحي الذي أجرى عملية استئصال الطحال لشاه إيران محمد رضا بهلوي وهو أصلاً غير متخصص في هذه النوعية من العمليات الجراحية؟!

مهما كان الرد.. ومهما كانت مشاركة ديبكى في الجراحة تدخل تحت طي الإشراف

فقط، أو القيام بإجراء الجراحة.. فإن الثابت في كل مقالات الصحافة المصرية والعالمية الصادرة في ذلك الوقت أنه صاحب قرار عدم وضع الخرطوم «الدرنقة الجراحية» رغم اعتراض الجميع على هذا..!! ولكن أمانة الرأي والموضوعية تدفعنا لعدم الجزم بتورط مايكل ديبكى في أخطاء طبية مقصودة لأن هذا كان سيدفعه إلى الدخول في متاهات عدم الثقة في أمانته الطبية، وهذا لم يحدث مطلقاً خاصة بعد استعانة كثير من الشخصيات العالمية الهامة بديبكي لإجراء جراحات خطيرة بالقلب.. وكان الأجدر بهم الابتعاد عن الاستعانة به إذا كان هناك شك في مصداقيته.. بالإضافة إلى أن الرئيس السادات قام بتكريمه بعد إجراء الجراحة لشاه إيران.. ولكن هذا لا يمنع من وضع عشرات من علامات الاستفهام حول مايكل ديبكى..!!

والغريب أن معظم رؤساء الدول وخاصة دول العالم الثالث يلجأون إلى طرق البوابة الأمريكية لتلقى العلاج من الأمراض التي يعانون منها، وفي الغالب يمكن علاج هذه الأمراض في بلادهم في ظل رعاية طبية وتمريضية خاصة.. وإذا عرفنا أن معظم الأمراض التي تعرض لها رؤساء الدول ذات تقنية عادية في علاجها بمعنى أن الولايات المتحدة لا تحتكر سر علاجها لأقنعتنا بأنه كان من الأحرى والأجدر برؤساء الدول المرضى أن يتلقوا علاجهم في أوطانهم طالما أن الأمر لا يستدعي السفر للخارج، ولكن نعود ونبرر قرار سفر الرؤساء للعلاج بالخارج بأنه كان بناء على رأى أطباهم الشخصيين الذين كانوا يهابون تحمل المسؤولية كاملة، خاصة إذا كان المرض يتعلق بحياة الرئيس، حتى لو كان علاجه تقليدي ومتوفر في المستشفيات الوطنية، ولكن هناك بعض القادة رفضوا العلاج خارج بلادهم ولكنهم استعانوا في النهاية بأطباء أمريكيين وأوروبيين للأشراف على علاجهم أو لإجراء الجراحات الخطيرة دون أن يضطروا للسفر إلى دول أمريكا وأوروبا..

وما قيل عن تدخل السياسة الأمريكية في أحداث المرض الخاصة بالزعماء كثيرا جدا.. فقد نشرت بعض الصحف أخبارا - مشكوكا في صحتها - كان مضمونها أن الولايات المتحدة أعدت بديلاً للملك حسين يشبهه تماماً للعودة إلى الأردن لتنصيب ابنه ولياً للعهد، وإقصاء شقيقه الأمير الحسن عن ولاية العهد في نفس الوقت الذي أكدت فيه هذه المصادر أن الملك حسين كان قد مات فعلاً وأن الشخص الذي تصرف في الأيام الأخيرة على أنه الملك حسين.. لم يكن سوى بديل له أعدته وكالة المخابرات الأمريكية اعتماداً على أنه لا يمكن الشك في هذا البديل لأن الملك حسين تعرض في شهوره الأخيرة لبرامج مكثفة من العلاج الكيميائي والإشعاعي الذي تسبب في تغيير كثير من ملامحه وصفاته الجسدية.. ولكن يبقى هذا الخبر موضع شك مبنى على الإثارة الصحفية.. والأيام والتاريخ هي التي ستقول لنا كل الحقائق في يوم من الأيام ودون أن نسعى إليها..

وهناك مصادفة غريبة لاحظتها أثناء رحلتي مع هذا الكتاب.. فالتاريخ أعاد نفسه مرة أخرى بعد أن قرر الرئيس الراحل محمد أنور السادات استضافة شاه إيران للعلاج والإقامة الدائمة في مصر وما أشبه اليوم بالبارحة، فعندما قام السلطان عبدالحميد سلطان الدولة

العثمانية يعزل الخديوى اسماعيل بعد المحاولات المستميتة من الخديوى للتأثير على السلطان العثماني لخلع اسماعيل قبل أن يتحول إلى رمز وطنى يقود الحركة الوطنية فى مصر إلى الدرجة التى يمكن أن تفسد خطة الانجليز الدقيقة لاحتلال مصر والسيطرة على قناة السويس .. وجد الخديوى اسماعيل نفسه تائها وطريداً خاصة بعد أن حرمه السلطان عبد الحميد من الإقامة فى أى بلد يخضع للسيادة العثمانية .. وقتها جاءت التقارير الطبية تقول إن الحالة الصحية للخديوى اسماعيل بلغت حد الخطر وأنه مصاب بالتهاب رئوى حاد وإستسقاء فى البطن وسرطان معوى فى نفس الوقت الذى لم يجد فيه هذا الطائر الشريد أى عش ليلقى فيه السكن والراحة النفسية، فلما علم ملك إيطاليا «أومبرتو» بقرار السلطان عبد الحميد بعث إلى اسماعيل يبدى استعداداه لقبوله ضيفاً على إيطاليا للإقامة والعلاج وتخصيص قصر فخم يقيم فيه يقع فى أرقى ضواحي مدينة نابولى وقبل اسماعيل العرض من هذا العاهل شاكراً له وفاءه لذكرى أبيه الملك فيكتور عمانوئيل الذى كان تربطه بالخديوى مودة صميمة ..

ومثلما فعل أومبرتو مع اسماعيل ...

فعل السادات مع بهلوى ..!!

والمشير للدهشة أنه بالرغم مما وصل إليه الشاه محمد رضا بهلوى من جاه وسلطان جعله متشبساً بالحكم، كأنه من الخالدين، فإنه لم يفكر يوماً فى نقل رفات والده رضا بهلوى من مسجد الرفاعى بالقاهرة إلى إيران حيث موطنه الأصيلى .. بل إن الشاه نفسه لم يوصى بدفنه فى إيران رغم أن آخر شئ أخذه معه قبل مغادرة طهران لآخر مرة حفنة من تراب إيران .. فهل كان الشاه يشعر بنوع من الغربة والضياع وعدم الزمان وهو يحكم إيران؟ وهل كان يعلم أن نهاية حكمه ستشهد طرده من بلاط الحكم شريداً مقهوراً يبحث عن مأوى وملجأ يلتمس فيه جسده المريض ..؟

ومن الملاحظات الجديرة باللقاء الضوء عليها تلك البداية الخاصة ببعض الزعماء الذين تناولناهم فى هذا الكتاب، فمعظمهم قد وصل إلى بلاط الحكم على أرض مفروشة بالشوك والقهر والفقر .. ولذلك ثاروا وغضبوا وانتفضوا على أنظمة الفساد والاحتلال والاستعمار فى بلادهم .. واتذكر هنا مقولة شكسبير فى مسرحية «سيدان من فيرنا» «Two Gentlemen of Verna»، «الرجل الجوعان، رجل غضبان»، فقد كان والد بوريس يلتسين فلاح بالأجرة فى أراضى الغير، ثم أصبح عاملاً من عمال البناء، وكانت أمه تساعد جيرانها فى أعمال المنزل مقابل نصف رغيف من الخبز، أو أى نوع من أنواع الطعام، ومع ذلك فقد كانت عزيمة يلتسين فى بداياته أقوى من الفولاذ، واستطاع أن يتخطى مراحل الضياع فى حياته بموتيفة الإصرار والتصميم، وقفز إلى المستحيل فوق جواد الأحلام الذى ظل يمتطيه إلى أن أصبح رئيساً لدولة عظمى فى عالمنا المعاصر .. والرئيس الفرنسى فرانسوا ميتران كان أبوه يعمل كمسرىا ومع ذلك فقد تمكن فرانسوا ميتران من مناطق شارل ديغول فى أبواب التاريخ الفرنسى، وأن يقود فرنسا لمدة أربعة عشرة عاماً بعد أن صعد إلى السلطة على جثة

الهبوان والأسر والفقر والألم.. ولا يخفى علينا أيضا أن ويليام ريجان والد الرئيس الأمريكي الأسبق رونالد ريجان أضطر لأن يعمل مندوبا في محلات الأحذية.. ولكن ابنه حكم العالم لمدة ثمانية سنوات من مكتب بيضاوى يدير منه السياسة العالمية بالريموت كونترول...، إنها معجزات البذور حينما يصبح لها جذور تنبت أعوادا وفروعاً..

ولكن للأسف فإن حفنة لا بأس بها من الرؤساء وصلوا إلى السلطة مؤيدين بأحلام الجماهير وطموحاتهم فى غد أفضل ورغبتهم فى تصعيد رجل منهم يدفع عنهم القهر والفقر والمرض ويعبر بهم إلى الرخاء والنماء.. ولكن عندما وصلوا للسلطة نسوا أحلام الجماهير وتذكروا أحلامهم فقط.. وتنكروا لآلام بطونهم التى كانت خاوية وصارت بعد وصولهم للسلطة مليئة بالكافيار والاستاكوزا، وبصقوا على طموحات المواطنين وهللوا لمطامعهم الذاتية.. وأهملوا ملايين البطون التى تخر ألما من الجوع وتذكروا بطنا واحدة فقط.. هى بطن الحاكم بأمره!!

وبوريس يلتسين الذى ناطح العالم كله من أجل الدفاع عن مبادئ الحرية والديمقراطية وحقوق المطحونين والمكدودين هو أول من وأد الحرية والديمقراطية فى روسيا، وطعنها فى مقتل واخترق القانون واعتدى على الدستور وضرب نواب الشعب بالدبابات والمدافع، وترصدهم بالقناصة، وبعد ذلك اتهم بالفساد والرشوة وظل يبحث عن حل ينقذه من مقصلة القانون.. لكن من ينقذه من مقصلة التاريخ؟

وفيدل كاسترو الذى آذاق شعبه العلقم على مدار أربعين عاما تحت شعار الحكم الاشتراكية أو الموت، لا يصدق أن الشيوعية قد ماتت ولا زال قابعا فى قصور الحكم النيفة، بالرغم من أن شعبيته فى كوبا تهاوت نحو الصفر.. فهو يطبق مبادئ الحزب الاشتراكية على شعبه، لكنه يطبق الرأسمالية على نفسه.. إنه الرجل الذى أوجد «الشيوعية» ذلك النظام العالمى الجديد.. وأطلق عليه تخديرا لعقول شعبه «تحديث النظام الشيوعى»..!!

إذن فالمبادئ التى يحارب من أجلها الزعماء يمكن أن تتغير أو تتبدل عندما يصلون إلى كرسى الحكم، ومهما يبرر المدافعون عن هؤلاء الرؤساء أسباب تغييرهم بقولهم أن السياسة تفرض أحيانا على الرئيس ما لا يكون مقتنعا به بصفة شخصية، فإن الجحود الإنسانى لا يمكن أن تقهره شريعة أو يقبله عقل خاصة إذا كان صادرا من الرعاية الذين يتحملون مسؤولية الرعاية أمام الله وأمام الوطن والتاريخ، فلاشك أبها القارئ أن أحلام الثوريين يمكن أن تتبدل وتصبح سرايا بدلا من أن تصبح واقعا يحقق آمال الجماهير..

ونقطة أخرى فى صدر تعليقى على أحداث الكتاب تتعلق بالرئيس الأمريكى الأسبق فرانكلين روزفلت وكيف أنه استطاع أن يصبح رئيسا تاريخيا للولايات المتحدة الأمريكية وهو رجل عاجز لاتحمله ساقه، ولا يقوى على الحراك دون أن يحمل على «نقالة» أو كرسى متحرك أو يستند على عكازين!! فهل كان لعامة فرانكلين دورا فى اكتسابه شعبية هائلة للوصول إلى البيت الأبيض، بل وحصوله على ثقة أبناء الشعب الأمريكى فى أربعة انتخابات رئاسية متوالية على غير العادة..؟

وفي رأيي الشخصي، أن لعاهة فرانكلين روزفلت دورا كبيرا في اكسابه تلك الشعبية الطاغية التي حظى بها وغير المسبوقة في تاريخ الأمم والشعوب في العصر الحديث، وهذا لاينفي المقومات الشخصية لفرانكلين روزفلت ولايدفعنا إلى الشك في عبقريته وقدرته على قيادة دوله عظمى في زمن كان العالم يغلى فيه فوق بركان الحرب العالمية الثانية.. فقد كان روزفلت يؤمن بمقولة إبراهيم لنكولن «Actions speak louder than words»، «الأعمال أعلى صوتا من الأقوال»، لذلك كانت أعماله أكثر من كلامه وكانت إنجازاته أكثر مما حلم به لأمریکا.. ولكن مما لا شك فيه أن عاهة روزفلت قد أتاحت له قدراً كبيراً من التعاطف الجماهيري، أو على الأقل فإن الجماهير الأمريكية أرادت أن تسمع مايقوله هذا الرجل العاجز الطامح في الوصول إلى البيت الأبيض، لقد كان مرضه سببا في نجاحه إن لم يكن كل أسباب نجاحه واكتسابه لشعبيته الطاغية، وفي تقديري أن فرانكلين روزفلت لو لم توافيه المنية في أسبابه الأولى في فترة الحكم الرابعة لأصبح رئيسا للولايات المتحدة مدى الحياة..

والدليل على أن أمراض الزعماء تكسبهم أحيانا جزءا كبيرا من الشعبية هو ماحدث مع الرئيس الفرنسي ميتران حينما أعلن رسميا عن إصابته بالسرطان قبل عامين تقريبا من انتهاء فترة رئاسته الثانية لفرنسا، ورغم أنه أخفى عن شعبه حقيقة إصابته بالمرض منذ الأيام الأولى لوجوده في قصر الإليزيه إلا أن أكثر من ٧٠٪ من أبناء الشعب الفرنسي لم يمانعوا في أن يستكمل ميتران فترة رئاسته الثانية، وأظهرت استطلاعات الرأي أن شعبية ميتران ارتفعت بعد إعلان مرضه وتوقع وفاته في أى وقت، تماما كما كانت شعبيته في كفاحه الأول ضد الاستعمار الألماني جنبا إلى جنب مع شارل ديغول..

وتساؤل جديد يفرض نفسه على هذه الصفحات..

مادور مساعدى الرؤساء والعاملين في بلاط الرئاسة في إفشاء أسرار الرؤساء بعد زوال ملكهم؟

الحقيقة أن دورهم كبير للغاية.. فالمذكرات التي يعدها ويؤلفها مساعدو الرؤساء المطلعين على أدق الأسرار الرئاسية تجلب لهم الملايين من الدولارات، وتعتبر هذه المذكرات بمثابة الصفقة الربحة التي يستفيدون منها بعد انتهاء عملهم بالدواوين الرئاسية، وهذا ماحققه الدكتور كلود جوبلر الطبيب الخاص للرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران بعد أن أصدر كتابه «السر الكبير» والذي حقق مبيعات هائلة في أول يوم من إصداره تقدر بأربعين ألف نسخة قبل أن يوقف تداوله من الأسواق، وهذا الأمر يحتاج إلى وقفة لأن أسرار بلاط الحكم تصبح في مهب الريح، ويتم تداولها بمعرفة كل من هب ودب مجرد أنه عمل يوما في بلاط السلطة، أو كان يوما من رجال الحاكم.. وبعض الآراء لاتوافق على منع هؤلاء المسؤولين من كتابة مذكراتهم بعد تقاعدهم، لأن ذلك يعتبر حجرا على الرأي وتعديا على الديمقراطية وانتقاما من حرية التعبير، وأنا أجد نفسى مؤيدا لهذه الآراء وفي نفس الوقت أشجع إصدار قوانين تنظم إصدار المؤلفات الخاصة بفتريات الحكم بحيث نحصى التاريخ من مغبة استغلال بعض العاملين في دواوين الرئاسة لمذكراتهم في تلفيق أو تزوير الأحداث.. ولذلك فمن

الأفضل أن تشكل لجنة مسؤولة عن دراسة المؤلف الذى يصدر عن زعيم بعينه ويكون لهذه اللجنة أعضاء من أسرة الرئيس موضع الكتاب وكذلك مسئولين من أجهزة الأمن القومى والمؤرخين وأجهزة الرئاسة وأساتذة العلوم السياسية لفحص مايمكن كشفه للرأى العام على أيدى الكتاب من العاملين فى دواوين الرئاسة فى مختلف دول العالم ومايمكن كشفه من خلال الأجهزة الرسمية والمدققين والمحللين حفاظا على صحة المعلومة وعدم العبث بمقدورات وحضارات الشعوب بشرط أن لايجب شيئا عن النشر..

وأجدنى هنا أوجه رسالة إلى كل رؤساء وزعماء وقادة الدول.. إحرصوا على انتقاء مساعدين أوفياء..

ولايجب أن ننسى فى خضم حديثنا التنشأة القاسية لبعض الحكام فى فترات الطفولة والصبا والتى أثرت تأثيراً مباشراً أو غير مباشر على تكوينهم الشخصى وسلوكهم فى إدارة قضايا بلادهم بعد ذلك، والمثل واضح فى حالة الرئيس الروسى الأسبق بوريس يلتسين الذى كان أبوه يعاقبه ضربا بالسوط، ولك أن تتخيل أيها القارئ كيف يمكن أن تتشكل نفسية طفل برئ يعاقب على خطأه ضربا بالسوط؟! والإجابة ظهرت بعد سنوات طويلة حينما أصبح يلتسين رئيسا لروسيا فتعامل مع معارضيه بمنتهى القسوة والتوحش وبعيدا عن الديمقراطية والاشتراكية وحرية الرأى، والتى حارب من أجلها سنوات شبابه، وكاد أن يلقي حتفه من أجل هذه المبادئ..

إن أمور الزعماء وسيرتهم تحتاج لمئات المجلدات للتمكن من سرد تفاصيل حكمهم بالصورة الكاملة.. ومع الكلمات الأخيرة فى هذا الكتاب أتخيل معنى الزعامة والمسئولية.. وكم من حكام عصفت بهم أمراضهم العضوية أو النفسية فعصفوا بشعوبهم.. وأيا كانت الرؤية فإن حكام ردتهم لحظات الاقتراب من الموت إلى صوابهم ورشدتهم المفقود.. وأيا كانت الرؤية فإن المرض قاسم مشترك فى صنع قرارات الزعماء وقادة الدول.. ومؤثر أساسى على السياسة الداخلية والخارجية.. وأجدنى أقول فى النهاية لكل من سيسأل عن رعيته يوم الحساب مقولة الشاعر الانجليزى موردينت «إن ساعة واحدة حافلة بالأمجاد تساوى عصرا بمرمته عاطلا عن المجد»..

فلايجب على الحكام إذا أصابهم الضعف أو المرض وأعاقهم عن تدبير أمور القيادة أن يعطلوا شعوبهم عسورا عن المجد.. لأنهم فى ذلك الوقت قد يصيروا عميانا وتصير شعوبهم فى طريق الظلام والعمى ويقول المسيح عيسى بن مريم عليه السلام فى سفر متى العهد الجديد من الكتاب المقدس بالاصحاح ١٥ والآية ١٤ «اتركوهم هم عميان.. قادة عميان، وإذا كان الأعمى يقود الأعمى سقطا معا فى الحفرة»..

ومعذرة فإنى أريد أن أكمل ولكن تلك آخر قطرة حبر فى قلمى..

القاهرة - ٢٥ نوفمبر ٢٠٠٠

الفهرس

صفحة	
٣	الإهداء
٥	المقدمة بقلم الأستاذ الدكتور عادل إمام
٩	مقدمة الطبعة الأولى
١٤	كيف يؤثر المرض على حياة الإنسان
١٩	جمال عبدالناصر «الرجل الذى إحترق»
٣٧	فرانكلين روزفلت «الإرادة تزحف على بطنها»
٥١	محمد رضا شاه بهلوى «كفن بلا جيوب»
٦٧	رونالد ريجان «الشيخوخة تحكم أمريكا»
٨٣	فِيدل كاسترو «عقد تركيبات متناقضات»
١٠١	الملك حسين بن طلال «لغز فى الحياة ولغز فى الموت»
١١٣	فرانسوا ميتران «رئيس بلا حدود»
١٢٩	بوريس يلتسين «أسد جبلى يتحول إلى قطة»
١٤٩	تحليل وتساؤل
١٥٩	المراجع والمصادر
١٦٠	فهرس

وعمل على قرأتش الروسى

أصدار له تنتشر عن قبل ١٩



وفى مارس عام ١٩٩٨ كانت خيبة الأمل شديدة والشعب الروسى يرى رئيسه يهدى امام العالم فى إفتتاح اعمال القمة الثلاثية بموسكو والتي دعى يلتسين إليها بجانبه كل من الرئيس الفرنسى چاك شيراك والمستشار الألمانى هيلموت كول..وعندما وقف ليعلن إفتتاح القمة وبداية المحادثات قال وسط ذهول الجميع :

اعلن إفتتاح المؤتمر الصحفى بدلاً من ان يقول :اعلن إفتتاح القمة ..واسرع سكرتيره الخاص وهو يعدو فى إتجاهه ليحمله يتدارك الموقف بهدوء ويذكره بأنه يفتتح القمة الثلاثية وليس المؤتمر الصحفى .. ولكن يلتسين نظر إليه بإحتقار ومضى يدعو الصحفيين لطرح الأسئلة وچاك شيراك وهيلموت كول يضريان كفاً بكف ولسان حالهما يقول :

لا حول ولا قوة إلا بالله ١٩

- د . باسم عادل عبد الصادق .
- من مواليد مدينة طنطا - محافظة الغربية.
- طبيب متخصص فى أمراض القلب بالمعهد القومى للقلب بالقاهرة .
- المستشار الإعلامى بالمركز المصرى للدراسات والبحوث الإعلامية .
- قام بتأليف مجموعة قصصية بعنوان «إثنى عشر وجه للقمر» .
- له ديوان أشعار تحت الإصدار بعنوان « عندما تولد الشمس » .
- قام بتأليف مسرحية بعنوان « أرض الشمس »
- له العديد من الأعمال الدرامية تحت التنفيذ بإتحاد الإذاعة والتليفزيون .
- قام بإعداد العديد من البرامج التليفزيونية بالمحطات الفضائية العربية .
- قام بكتابة المقالات السياسية والعلمية بالصحف والمجلات القومية .
- أعد دراسة عن التحديات التى تواجه الاعلام المصرى فى الألفية الثالثة والتي إهتمت بها وسائل الاعلام المختلفة

الناشر
ط. عبد الجواد